

سيرة النعماني
أشتر أبيض
السَّوْرَةُ... السَّارِجَةُ
التَّضَلُّعُ



دار الكتب والوثائق
مصر



إِسْرَائِيلَ
الْمُؤَرَّةُ..التَّارِيخُ
النَّضِيلُ

أَسْرَارُكَ السَّوْرَةُ .. الشَّارِخُ التَّضْلِيلُ

سَيِّدُ الْقَمَنِ

الناشر

دار فباء للطباعة والنشر والتوزيع

عمدة غريب

الكتاب : إسرائيل

التوراة ... التاريخ ... التضييل

المؤلف : سيد القمني

ت و ف : ٣٨٦٧٨٧٦ الجيزة

تاريخ النشر : ١٩٩٨م

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الناشر : دارقباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبدالله غريب

شركة مساهمة مصرية

المركز الرئيسي : مدينة العاشر من رمضان

والمطابع المنطقة الصناعية (C1)

ت : ٠١٥ / ٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨

التوزيع : ١٠ ش كامل صدقي (الغزالة) - القاهرة

ت : ٥٩١٧٥٣٢

رقم الإيداع : ٩٧ / ١١٧٦٠

الترقيم الدولي : ISBN

977-5810-779

الإهداء

إلى مجد ومحمود :

لازلت أنتظركما فرساتنا

فى ساحة البحث العلمى

فلا تتأخرا

تمهيد

فى التجربة المستمرة للتعامل مع طروحات الأيديولوجيا الصهيونية، المؤسسة على أعمدة تاريخية ودينية قدسية، كنت على يقين دوماً بمدى تهافت كثير من أعمالنا الفكرية وترنحها إزاء تلك الطروحات، رغم كم الشعارات والجمال الساخنة، والإطالة المفرطة، حيث كانت تلك الأعمال تلقى بنا فى النهاية على حجر الفكر الصهيونى وقبضة منظومته الفكرية، بعد الإقرار لها بكل تأسيساتها التاريخية والقدسية، برداء إسلامى يعيد إنتاج عناصر الأيديولوجيا الصهيونية، وهو ناتج ضرورى، ولزوم حتمى عن التسليم الإيمانى بقدسية التاريخ الإسرائيلى، كمادة أولى وأساس فى النص المقدس، وكمادة أولى فى قانون الإيمان (بالله وملائكته ورسله وكتبه)، وكان الواضح أن أولئك الرسل جميعاً من بنى إسرائيل نسباً وشرفاً وعقيدة، وإن تم سحب المصادقية عن مقدسهم المتداول بين الأيدى الآن بعد وصمه بالتحريف، بعد اكتشاف يهود يثرب والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، اختلاف توجهاتهم على البعد الاستراتيجى، ومن ثم تغير التكتيك المرحلى زمن الدعوة، بالنسخ القدسى، ليتم الكشف عن الإسلام كبعد تاريخى قديم، وأن الإسلام كان مستتبناً باليهودية التاريخية، ومن ثم تمت إعادة التاريخ دورة كاملة إلى عهد النبى محمد صلى الله عليه وسلم، كما تحول جميع أنبياء وملوك دولة

إسرائيل القديمة إلى أنبياء مسلمين، كانوا يدعون بدعوة الإسلام، وإن ظلت الشهادات المنسوخة متواجدة بالمقدس الإسلامي، بكل تفاصيلها التاريخية الإسرائيلية كما هي في المنظومة التوراتية، وظلت التوراة بصفتها الحاملة للهدى والنور، وظلت الآيات التي تذكر بهم كشعب مختار متميز فضلهم الله على العالمين، وغير ذلك لاتجد سوى تنويعات عربية نادرة وقيمة، عن القرى العربية البائدة، وأنبياء مثل هود وصالح، أما النسب الإسلامي والعربي، فقد ظل بدوره إسرائيلياً، بإعلان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، أنه الحفيد النبوي الأخير لسلسلة إسرائيلية استعربت بعد إبراهيم، باستعراب ولده إسماعيل، واكتسابه الجنسية العربية بسكنائه ببلاد الحجاز، عبوراً على عمومة مؤكدة لإسحق شقيق إسماعيل، الذي أنجب إسرائيل (يعقوب) وبنيه وسلساله الطويل من أنبياء، توارثوا النبوة خلفاً عن سلف.

هذا ناهيك عن تطابق المنمنمات الدقيقة حول الإله وقدراته، وقصص الأولين الأولى بدءاً من قصة الخليفة وآدم مروراً بنوح والطوفان، حتى قيام مملكة شعب الرب (مملكة إسرائيل القديمة) في فلسطين، ومالحق ذلك من قصص الأنبياء والمرسلين، وكلهم من ذات النسل المبارك، ثم ما أضيف في عصر التدوين الإسلامي للسيرة والتاريخ، تلك المدونات التي عملت مستضيئة بحديث النبي محمد عليه الصلاة والسلام: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"، والتزاماً

بقانون الإيمان، وما فرضه كل ذلك من سيادة المأثور الإسرائيلي على العقل العربى وروحه، بعد أن غص مأثور به بالإسرائيليات.

أما الشق الثانى من عناصر الأمة، والذى يمثله المسيحيون العرب، فمعلوم منذ البدء أنهم قد سلموا لإسرائيل وتوراتها، عبر إسرائيلية المسيح وتلامذته جميعاً، نسباً، بل وبالشق الأعظم من العقيدة المسيحية، وذلك اتباعاً لأمر إيمانى، يطلب الإيمان بالمقدس الإسرائيلى القديم، والتاريخ الإسرائيلى، إعمالاً لتوجيهات يسوعية بدأت بالإعلان: « ما جئت لأنقض الناموس، بل جئت لأكمل»، ولهذا ركز المسيح تعاليمه على الجانب الأخلاقى التشريعى، وترك مادون ذلك للمؤمن يبحث عنه فى المقدس الإسرائيلى، لذلك تم ضم الكتاب اليهودى المقدس (التوراة ومجموعة الأسفار القديمة) إلى الكتاب المسيحى المقدس (الأناجيل ومجموعة رسائل التلاميذ) فى كتاب واحد مقرر على المسيحى المؤمن، يحمل عنوان (الكتاب المقدس) بشقيه (العهد القديم) و(العهد الجديد).

وإعمالاً لذلك سلم المسيحيون بتاريخ إسرائيل وقديسيتها وحتميتها القدرية، ونهايته المرسوم فى التقدير الإلهى لقيام مجد إسرائيل فى فلسطين مرة أخرى، بل أصبح المسيحيون هم مادة التطور الكبرى، لقيام مملكة داود وسليمان فى فلسطين بزعامة الرب يسوع صاحب الملكوت، لأنه امتداد لملوك إسرائيل القديمة، باعتباره من نسل

سليمان وأبيه داود، فهو إن إلا حفيد ملوك، تجرى في عروقه دماء
إسرائيلية ملكية، ارتفع في المسيحية من كرسى النجارة الأرضية في
مدينة الجليل، حيث كان يمارس حرفته، إلى كرسى الألوهية في
السماء، لكن ليظل وفياً لرحمه وعشيرته، يركز كل الحقوق
التاريخية والدينية لإسرائيل في فلسطين، لأنه هو ذاته إله اليهود،
(يهوه) القائد الرباني المظفر الذي قاد شعب إسرائيل من مصر ليقوم
مملكة في فلسطين، نعم هو (يهوه) ولكن بعد أن تجلى لخرافه الضالة
في صيغة بشرية.

ومن ثم تنافس العربان، عتاة العقيدة العاضون بالنواجز على
الإيمان، مسيحية وإسلام، في تشريف تاريخ إسرائيل وتكريمه، وبينما
باتت عودة المسيح لإقامة مملكة أبيه داود، والجلوس على عرش
سلفه سليمان في فلسطين، مشروعاً مسيحياً، فلا زال المسلمون
ينتظرون المسيح ليقول الدجال، ويقوم ذات المملكة، وبعدها يقف
اسرافيل ينفخ في البوق من صخرة بيت المقدس، لقيام مملكة الحق
الإسلامية الخالدة، مشروعاً إسلامياً.

والأمر بهذا الشكل مشكلة إيمانية، وأزمة فكرية طاحنة، يتغافل
عنها الجميع وفق صيغهم السياسية، وتكتيكاتهم المرحلية، وأهدافهم
الاستراتيجية، لكن المأساة الحقيقة أنها تتجاوز ذلك الإطار إلى
مستوى الأزمة الوطنية والقومية والاجتماعية، بحالة تبدو مستعصية

على الحل تماماً، اللهم إلا فى عالم الحلم الثورى الآتى، وهو - بالركون إليه - يعادل تماماً انتظار المسيح قاتل الدجال ثم دخول الجنات فى المشروع الإسلامى، كما يعادل انتظار عودة المسيح الإله وقيام المملكة المجيدة فى المشروع المسيحى واليهودى، على حد سواء، والمدرّك لأبعاد تلك الأزمة المروعة فى الفكر والسلوك العربى، سيجد كماً من الإحباط الفكرى والنفسى، والواقعى (فى التعايش مع ذلك الفكر السائد)، كفى وحده بإجائه إلى إهمال الأمر برمته، ونفض يديه منه، بياس كامل ومطبق، لولا بقية من روح قتالية تشبث بالمحاولة، لوضع لبنة حقيقية فى بناء الأمل الآتى، ضمن لبنات أخرى نتمناها ونرجوها ونستحثها، من الباحثين المخلصين.

وضمن تلك المحاولات يأتى كتابنا هذا، الذى جهدنا عليه بالمعنى السالف، ولا نعلم مدى ما حققناه فيه، الأمر متروك فى النهاية للجدل القائم الآن على مستوى التعامل مع التراث لتحديد الهوية، فقط نريد الآن لفت نظر القارئ إلى أن لب هذا الكتاب وعمدته الأساس، هو بابيه الثالث، الذى هو هدف الكتاب الرئيسى. لأنه معنى بالرد على تنظيرة بنى إسرائيل التاريخية، المعتمدة رسمياً وفسياً من المؤسسة الصهيونية.

وقد رأينا أن نمهد لذلك الباب الأخير، بالبابين الأولين: التوراة، والتاريخ، لنضع بيد القارئ المفاتيح والأدوات اللازمة للتعامل مع الباب الأخير (التضليل)، بأقل قدر لازم من المشقة، وبحيث يمتلك القارئ قدراً من المعرفة المبسطة بالكتاب اليهودي المقدس، ومايكفيه من مؤونة للعلم بالمرحلة الزمنية من تاريخ اسرائيل، التي ركزت عليها تنظيرة بنى اسرائيل عملها، وسعيها.

ومن ثم، فقد تعرضنا في الباب الأول (التوراة)، لمجموعة من الشروح حول ذلك المقدس وأهميته التاريخية، ومتى تمت صياغته بشكله الحالي، وبأى الأدوات، ولتحقيق أى أغراض؟ مع محاولة متعجلة لوضعه على محك المصادقية التاريخية، ثم أردفناه بالباب الثانى (التاريخ)، لعرض الفترة الزمنية المتعلقة برحلة الدخول الاسرائيلى إلى مصر، ثم رحلة الخروج منها إلى فلسطين، حيث تم تأسيس مملكة إسرائيل القديمة.

وعليه، أضع هذا الجهد، الذى ربما كان متعجلاً فى بعض مواضعه، كنتائج محاولة المسارعة بالخروج إلى الساحة، بعد تأخر طويل، راجياً أن أكون بذلك قد وضعت بين يدى القارئ مساهمة على طريق التعامل العلمى مع طروحات الأيديولوجيا الصهيونية، مع

قناعة خاصة، أو اعتقاد، أنى أقدم به واحدة من الأدوات اللازمة، فى الصراع القومى والحضارى، الملتبس دوماً بالاجتماعى، والذى تخوضه فصائل أمتنا الواعية اليوم.

سيد القمنى

الباب الأول

التوراة

تأسيس

على الصفحة الأولى للكتاب المقدس

(النسخة العربية)

نقرأ إعلاناً افتتاحياً يقول :

الكتاب المقدس : أى كتاب العهد القديم والعهد الجديد وقد ترجم من اللغات الأصلية وهى؛ اللغة العبرانية، واللغة الكلدانية، واللغة اليونانية.

والعهد القديم يشمل مجموعة الكتب اليهودية المقدسة، التى يشار إليها فى مجموعها - مجازاً - باسم التوراة، وهو الاصطلاح الذى استخدمناه فى عنوان كتابنا هذا للدلالة على مجموعة كتب العهد القديم، رغم أن التوراة تقتصر على الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم، لكن الاصطلاح صار دارجاً للدلالة على مجموع الكتب اليهودية التى يشملها ذلك العهد بكامله، وهو المختص فى صفحة عنوان الكتاب المقدس، بالترجمة عن اللغة العبرانية واللغة الكلدانية، أما العهد الجديد فيشمل مجموعة الكتب المقدس للعقيدة المسيحية، وهو فقط من بين مجموع كتب الكتاب المقدس، المترجم عن اللغة اليونانية.

ويطلق على كتب العهدين اصطلاحاً لفظة (أسفار) جمع (سفر) أو كتاب، وتعني السور أو المحيط بالمحتوى، و (سفر) هي المقابل العبري لكلمة (سورة) في اللغة العربية، حيث يتبادل الحرفان (ف) و(و) بين العبرية والعربية، كما في (ليفى) العبرية، ومقابلها (لاوى) في العربية، وقد اعتبرت تلك السور أو الأسفار عند أصحابها كتباً مقدسة، أى موحى بها، أما كلمة العهد في التسميتين (العهد القديم) و (العهد الجديد) فتعني الميثاق، بمعنى أن كلا المجموعتين من الكتابات عبارة عن ميثاق أخذته الله على البشر، وارتبطوا به مع الله، فكان العهد القديم ميثاق العقيدة اليهودية، بينما أصبح العهد الجديد ميثاق العقيدة المسيحية.

وكتب العهد الجديد تمثل مجموعة الأنجيل وعددها أربعة أنجيل هي على الترتيب : إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا، هذا إضافة إلى سفر أعمال الرسل، ومجموعة رسائل تخص تلامذة المسيح والتي بشروا بها الأمم، وهى :

- رسائل بولس الرسول : رسالة إلى رومية، ورسالتين إلى كورنثوس، ورسالة إلى غلاطية، ورسالة إلى إفسيس، ورسالة إلى فيلبى، ورسالة إلى كولوسى، ورسالتين إلى تسالونيكى، ورسالتين إلى تيموثاوس، ورسالة إلى تيطس، ورسالة إلى فيلمون، ورسالة إلى العبرانيين.

- رسالة يعقوب الرسول.
- رسالتين لبطرس الرسول.
- ثلاثة رسائل ليوحنا الرسول.
- رسالة ليهوذا.
- سفر الرؤيا، وهو سفر خاص ناتئ يخص رؤيا ليوحنا اللاهوتي.
- وتلك الأسفار والرسائل فى مجموعها إضافة إلى الأنجيل تشكل سبعة وعشرين كتاباً أو سفرًا، تكوّن منظومة المقدس المسيحى أناجيل ورسائل مقدسة.
- لكن الأهم، والذي يعنينا هنا، هو القسم الأول من الكتاب المقدس، وهو القسم الأكبر والأضخم (العهد القديم) أو التوراة، ويتضمن تسعة وثلاثين سفرًا ضخماً هى على الترتيب :
- سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر النتنية، سفر يشوع، سفر القضاة، سفر راعوث، سفر صموئيل الأول، سفر صموئيل الثانى، سفر أعمال الملوك الأول، سفر أعمال الملوك

الثانى، سفر أخبار الأيام الأول، سفر أخبار الأيام الثانى، سفر عزرا، سفر نحميا، سفر إستير، سفر أيوب، سفر مزامير النبى داود (المعروف إسلامياً باسم الزبور لاختلاط حرفى الباء والميم بين اللسان العبرانى واللسان العربى)، وسفر الأمثال، وسفر الجامعة، وسفر نشيد الانشاد الذى لـ سليمان، وسفر إشعيا (وهو مجموعة نبؤات)، وسفر دانيال، وسفر هوشع، وسفر يوشيا، وسفر عاموس، وسفر عوبيديا، وسفر يونا، وسفر ميخا، وسفر ناحوم، وسفر حبقوق، وسفر صفينا، وسفر حجى، وسفر زكريا، وسفر ملاخى.

وعادة ما يتم تقسيم هذه المجموعة من الأسفار إلى أربعة أقسام هى على الترتيب:

القسم الأول : المعروف باسم التورة، أو كتب موسى الخمسة، أو البانتاتك Pentateuque ويشمل خمسة أسفار هى : التكوين Cenesis والخروج Exodus واللاويين Leviticus والعهد Nambers والتثنية Deuteronomy. وتعد تلك الأسفار الخمسة أهم أجزاء العهد القديم، وتنسب بجملتها إلى النبى موسى بوحي من الله.

ويحكى السفر الأول منها (التكوين) تاريخ العالم من لحظة البدء بخلق السماوات والأرض، ثم آدم ونسله، ويسير مع ذلك النسل

حتى يصل إلى أولاد يعقوب المعروف بإسرائيل، وهم إثني عشر ولداً يعرفون بالأسباط أو بنى إسرائيل، وينتهي السفر باستقرار هؤلاء ضيوفاً على أرض مصر، في زمن حلت به المجاعة بالمنطقة بكاملها، ومن المرجح عند العلماء أن هذا السفر قد تم تأليفه حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد موسى بحوالي خمسة قرون، وهو افتراض علمي لا يأخذ بعين الاعتبار مسألة نسبته للوحى أو لموسى من الأساس.

أما السفر الثانى (الخروج) فيعرض للأحداث التى مرت بها القبيلة الإسرائيلية فى مصر، وقصة النبى موسى وقيادته لبنى إسرائيل فى رحلة خروج - أو هروب - كبرى، ويحكى السفر أحداث الرحلة بتدقيق وتفصيل شديدين، ويشير إلى أسماء ومواضع الحل والترحال بكثافة وإصرار، إضافة لما يحويه ذلك السفر من بعض أحكام الشريعة اليهودية فى العبادات والمعاملات والعقوبات، ويرجح أنه قد تم تأليفه زمن تأليف سفر التكوين.

والسفر الثالث هو سفر (التثنية)، الذى شغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحرب والسياسة والاقتصاد، والمعاملات والعقوبات والعبادات، وقد سمى التثنية لأنه ثنى أو أعاد ذكر التعاليم التى يفترض أن موسى تلقاها من ربه، لكن العلماء يرجحون أن هذا

السفر قد تم تأليفه في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، أى بعد موسى بحوالى سبعة قرون، وذلك أثناء وجود القبيلة الإسرائيلية فى المنفى البابلى.

والسفر الرابع هو سفر (اللاويين) أو الليفيين، نسبة إلى لاوي أو ليفى Levi أحد الأسباط، والإشارة هنا إلى أبناء ليفى أو سلسلة نسله من أحفاد الأحفاد، الذين اشتغلوا بالكهانة اليهودية، ومن هؤلاء الأبناء كان النبى موسى، وقد شغل معظم هذا السفر بشؤون العبادة وطقوسها، خاصة ما تعلق منها بطرق تقديم الأضاحى والقرابين.

أما السفر الخامس وهو سفر (العدد)، فقد اهتم بإحصائيات عن عدد قبائل بنى إسرائيل، وجيوشهم، وأموالهم، وأى أمر كان يمكن إحصاؤه فى شؤونهم، لذلك سمى (العدد) من عملية العد والإحصاء.

القسم الثانى : ويعرف بالأسفار التاريخية، وعددها اثنتى عشر سفرًا، قامت بعرض تاريخ بنى إسرائيل بعد استيلائهم على كنعان (فلسطين)، وهى أسفار: يشوع Josue (ويشوع هو خليفة موسى على قيادة بنى إسرائيل إلى فلسطين بعد موت موسى، بعد استيلائهم على بعض أرض فلسطين)، ثم سفر راعوث Ruth (وهو اسم جدة داود من جهة أبيه)، ثم سفر صموئيل الأول، وصموئيل الثانى (وصموئيل هو آخر قضاة إسرائيل قبل انتهاء النظام القبلى وقيام

المملكة المركزية)، ثم يلي ذلك سفران بعنوان أعمال الملوك أول وثاني، ويحكي تاريخ ملوك بني إسرائيل بدءاً من أول ملوكهم (شاؤول) مروراً بداود وولده سليمان وسلسلة الملوك من بعدهم، يلي ذلك سفران بعنوان أخبار الأيام، وهما أول وثاني بدورهما، ويعرضان على الترتيب شجرة النسب من آدم إلى يعقوب إسرائيل، وهو تكرر سبق عرضه في سفر التكوين، ثم بعد ذلك يتم تقديم عرض لتاريخ داود، ثم ولده سليمان، ثم عرض لتاريخ إسرائيل السياسي بعد سليمان.

ويأتي بعد ذلك سفر عزرا Esdras وينسب إلى عزرا النبي الذي تمكن من إعادة الاسرائيليين من منفاهم في بابل إلى فلسطين، وذلك حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وإليه تنسب محاولة إعادة تجديد الديانة ونفخ الروح في القومية الإسرائيلية، إضافة إلى قيامه بتجديد بناء الهيكل، وينسب إلى عزرا النشاط هذا تحرير كثير من أسفار العهد القديم، حتى بلغ منزلة عظيمة الشأن، عند بني إسرائيل.

ومن بين تلك الأسفار التاريخية يأتي أيضاً سفر نحميا Nehemie نسبة إلى نحميا، أحد وجهاء بني إسرائيل، والذي تمكن بمساعدة عزرا من إقناع ملك الفرس، بالسماح لهم ببناء الهيكل مرة أخرى، يلي نحميا سفر إستير Esther وهو سفر صغير يشتمل على

تسعة إصحاحات فقط، يروى قصة الإسرائيلية الجميلة إستير، التى تمكنت من إغواء أخشويريش ملك الفرس فتزوجها، كما تمكنت من إحباط مؤامرات وزيره هامان ضد بنى ملتها، ودبرت مع عمها الكاهن مردخاى مكيدة قضت عليه وعلى أنصاره، حتى سمح لهم الملك الفارسى بالولوج فى الدم كيف شاءوا، فقام الإسرائيليون بذبح الآلاف من قوم هامان ونساءهم وأطفالهم، وحتى اليوم يحتفل أصحاب الملة اليهودية بذكرى تلك المذبحة الدموية فى عيد البوريم، أو عيد إستير، وذلك فى شهر مارس من كل عام.

القسم الثالث : ويعرف بمجموعة أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، ويشمل أسفاراً فى صيغ الأناشيد والمواعظ الدينية المؤلفة تأليفاً شعرياً وهى خمسة أشعار أولها أيوب Jop ثم المزامير Bsaumes وبعده سفر أمثال سليمان Bruverbes ثم سفر الجامعة Ecclesiastes وهو منسوب بدوره لسليمان، ومن بعده سفر نشيد الإنشاد Canuque des Cantigues وهو بدوره من أعمال سليمان حسب عنوانه (نشيد الإنشاد الذى لسليمان).

القسم الرابع : ويسمى بمجموعة أسفار الأنبياء (النبيم)، ويشمل سبعة وعشرين سفرأ تعرض لتاريخ أنبياء إسرائيل بعد موسى، وهى إشعيا Esaie وإرميا Jeremie ومراثى إرميا، وحزقيال Ezechiel،

ودانيال Daniel وهو شع Osee ويوثيل Joe وعاموس Amos
وعوبديا Abdias ويونس Jonas وميخا Michee وناحوم Nahum
وحبقوق Habakuk وصفنيا Sophonie وحجي Ajjee وزكريا
Zacharie وملاخي Malachie.

ويرجح العلماء أن معظم تلك الأسفار قد تم تأليفها بين النصف
الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد، وأوائل القرن السادس قبل
الميلاد، وأن بعضها يمكن تزمينه بأواخر القرن الرابع قبل الميلاد.

علاقة النبي موسى بالتوراة :

بات معلوماً — اليوم — أن نسبة الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) إلى النبي موسى، أمراً مشكوكاً فيه تماماً، وغير علمي بالمرّة، بل أصبح من العلمية القطع بتأليفه على يد عدد من الكتاب الذين اختلفت مشاربهم وأمزجتهم وتقافتهم ومواقفهم الاجتماعية وتوجهاتهم العقائدية، وهو الأمر الذي فرض نفسه في النهاية على المؤسسات الدينية ذاتها، حتى أنك تجد في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس، الصادرة في عام ١٩٦٠ مانصه :

ما من عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة، منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف حتى على وضع النص، لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده، لذلك يجب القول : إن ازدياداً تدريجياً قد حدث، وسببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية.

وقد كان السبب في إطلاق اصطلاح (أسفار موسى الخمسة) على التوراة، هو افتراض إيماني ينسب تأليفها إلى النبي موسى، حتى صار ذاك الافتراض عقيدة يهودية منذ عهد فيلون السكندري ويوسفوس في القرن الأول قبل الميلاد، اللذان عاصراً المسيح،

وأعلنا أن موسى هو مؤلف التوراة، وهى العقيدة التى ظلت تأخذ بها الكنيسة إلى زمن قريب، ولا تزال سائدة فى كثير من الكنائس.

إلا أن التوراة نفسها تقدم لمن يبحثها شواهد تقطع بأن تلك النسبة إلى موسى باطلة تماماً، ومن تلك الشواهد على سبيل المثال.

● هناك عبارات تتعلق بموسى فى التوراة، ويستحيل أن تصدر

عنه وذلك مثل الآية التى تقول: "وأما الرجل موسى فكان

حليماً جداً أكثر من جميع جميع الناس الذين على وجه

الأرض — عدد ١٢ : ٣ " فهنا واضح تماماً أن الكاتب

شخص آخر يتحدث عن موسى، ويذهب إلى تأكيد حلم

(الرجل موسى)، كما لو كانت محاولة للتوصل من أحداث فى

سيرة ذلك النبی التوراتية، تنفى عنه صفة الحلم بالمرة، ومثل

تلك الآية، أخرى تقول: "وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً

جداً فى أرض مصر، فى عيون فرعون وعيون الشعب —

خروج ١١ : ٣". هذا ناهيك عن الخبر الخاص بوفاة موسى

والذى يقول: "فمات هناك موسى عبد الله فى أرض موآب

حسب قول الله، ودفنه فى الجواء فى أرض موآب — تثنية

٣٤ : ٥"، وبالطبع يستحيل أن يكتب موسى عن نفسه أنه قد

مات، بل ويحدد موضع دفنه.

● إنك تجد فى التوراة أسماء لمواضع جغرافية يستحيل أن يكون لدى موسى علم بها، لأنها فى عمق أرض فلسطين وموسى مات ولم تطأ قدمه أرضى فلسطين، إضافة إلى أن أكثر تلك الاسماء لم تكن قد سميت زمن موسى، بل تمت تسميتها حسب ظروف ومستجدات حدثت بعد موسى بثلاثة أو أربعة قرون، مثل اسم مدينة دان (تكوين ١٤: ١٤، تثنية ٣٤ : ١)، ومثل مجموعة القرى المعروفة باسم يائير (عدد ٣٢ : ٤١، تثنية ٣ : ١٤)، وهى القرى التى لم تظهر أصلاً فى الوجود إلا فى عصر القضاة بعد زمن موسى بقرون (أنظر القضاة ١٠ : ١٤).

● وفى قصة يوسف خطأ تاريخى هائل، يطلق على فلسطين أرض العبريين (تك ٤٠ : ١٥) وهو الاسم الذى لم يطلق إلا بعد ذلك بزمان، بينما قبل ذلك - بتأكيد التوراة نفسها - كانت تسمى أرض الفلسطينيين، وأرض الكنعانيين.

● وفى سفر التكوين سقطة فاضحة تؤكد كتابة التوراة بعد قيام الملكية المركزية لاسرائيل، أى بعد أربعة قرون من زمن النبي موسى، والسقطة تتضح فى حديث التوراة، وقولها أن ما ترويه عن زمن موسى، كان " قبل أن يملك ملك من أبناء

اسرائيل - تكوين ٣٦ : ٣١، عدد ٢٤ : ٧ « وهى جملة لا يكتبها إلا شخص عاصر العهد الملكى وعرف بقيام المملكة، إنها بالقطع لا يمكن أن تكتب إلا فى العصر الملكى لإسرائيل.

● هناك تعبير متواتر فى التوراة هو (حتى اليوم)، يلحق قص بعض الأحداث، كالقول أنه تم تسمية مدينة كذا بهذا الاسم وهذا اسمها (حتى اليوم)، أو أن الحدث الفلانى قد أدى إلى تدمير مدينة كذا وظلت على حالها ذلك (حتى اليوم)، والملاحظ أن كل التسميات والأحداث التى لحق بها هذا التعبير، تمت بعد عصر موسى بقرون، إضافة إلى مساحة زمنية أخرى يضيفها تعبير (حتى اليوم)، أى حتى يوم كتابة الحدث وتدوينه، وهو ما يشير باليقين إلى مسافة زمنية أخرى تفصل بين الحدث وبين زمن التدوين، مما يبعد بزمن كتابة التوراة عن زمن موسى مسافات أخرى، ونموذجاً لذلك التعبير المتواتر ما يمكنك أن تجده فى عدة مواضع مثل (تكوين ٣٥ : ٢٠، تكوين ٤٧ : ٢٦، تكوين ٤٨ : ١٥، خروج ١٠ : ٦، وعدد ٢٢ : ٣٠، وتثنية ٢ : ٢٢، وتثنية ١٠ : ٨ وتثنية ١١ : ٤).

● أما تعبير (ولم يظهر نبي مثل موسى - تثنية ٣٤ : ١٠) فهو يشير إلى معرفة الكاتب بظهور أنبياء بعد موسى، والمفترض أن ذلك لم يكن معلوماً زمن موسى، علماً أن هؤلاء الأنبياء لم يبدأوا أيجادهم الفعلى إلا بعد عهد صموئيل ومع قيام المملكة الإسرائيلية.

وعلى مثل تلك الملاحظات التي يمكن لقارئ مدقق أن يراها في التوراة، تتالت التأكيدات التي ترفض نسبة التوراة إلى موسى، فكان تأكيد توماس هوبز الفيلسوف الإنجليزي (١٥٨٨ - ١٦٧٩): أن تدوين التوراة قد تم بعد موت موسى بزمان طويل، ثم تبعه الفيلسوف اليهودي باروخ اسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) الذي انتهى إلى إنكار أى احتمال يمكن بموجبه نسبة التوراة إلى موسى، وقدم على ذلك شواهد عديدة، وقدم عدداً من القرائن التي تشير إلى أن كتب العهد القديم بدءاً من سفر التكوين وحتى سفر الملوك الثانى، قد كتبها عزرا الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد. وكان الطبيب الفرنسى جاك أوستراك (١٦٨٤ - ١٧٦٦) أول من كشف عن احتواء سفر التكوين على روايتين مختلفتين، وأوضح حقيقة وجود اسمين مختلفين للإله فى ذلك السفر وفى قسم من سفر الخروج، هما (إلوهيم = الآلهة) و(يهوه). وقد ربط (أوستراك) بين ذلك وبين روايات التوراة فاكشف أن الأجزاء التي تستخدم اسم إلوهيم تروى رواية مختلفة عن تلك التي تستخدم اسم يهوه.

ويأتى الألمانى (جراف - ١٨٦٥) ليكمل تلك الدراسات، فيقوم بعملية عكس وقلب شامل للتصور التقليدى، الذى شاع عن كون القصة الإلهيمية هى الأقدم، ليؤكد أن القصة اليهودية كانت هى الأقدم، بينما دونت القصة الإلهيمية فى فترة العودة من المنفى البابلى زمن عزرا، وذلك خلال القرن الخامس قبل الميلاد. (١)

ولعل أهم ما ينفى نسبة التوراة إلى موسى. أنها لم تكن أبداً موضوعاً واحداً متكاملأ دفعة واحدة، يؤكد ذلك التكرار الذى يمكنك ملاحظته فى قصة الخلق، مما يشير إلى اختلاف المؤلفين، بل أنك تجد فى ذلك التكرار مخالافات جوهرية، ونماذج لتلك الروايات والمخالفات ما يمكن أن نوره كأمثلة وليس حصراً :

فى قصة الخلق أو التكوين التى يمكن للقارئ الرجوع إلى نصها كاملاً بالتوراة منعاً للإطالة، يمكننا أن نقف على ذلك التناقض فى فعل الخلق، الذى يقوم به مرة من سمي فى الترجمة العربية (الله) وهو فى الأصل العبرى (يهوه)، كما فى القول : « فى البدء خلق الله

(١) للمزيد حول علاقة موسى بالتوراة أرجع إلى

- اسبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة، ترجمة د. حسن حنفى، دار الطليعة،

بيروت ط٢، ١٩٨١.

- د. فؤاد حسنين على : التوراة الهيروغليفية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر،

القاهرة، د.ت.

السموات والأرض - تكوين ١ : ١ "أو كما في القول : " وقال الله
ليكن .. كذا وكذا "؛ ومرة أخرى نجد الخالق في ذات القصة لكن في
مواضع أخرى هو (إلوهيم) أو (الآلهة)، وذلك كما في قوله لأعضاء
مجمعه الإلهي: "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا — تكوين
١ : ٢٦ ."

وفي موضع من القصة يقوم الإله بخلق السماء والأرض دفعة
واحدة " في البدء خلق الله السموات والأرض - تكوين ١ : ١ " بينما
في موضع آخر تكون السماء والأرض موجودتان في الأصل في
هيئة غمر ماء أزلى مظلم، يفتقه الله عن بعضه إلى سماء وأرض
" وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله
يرف على وجه المياه.. وقال الله ليكون جلد في وسط المياه، وليكن
فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد.. ودعا الله الجلد سماء —
تكوين ١ : ٢ - ٨ ."

وفي مشهد آخر من دراما التكوين، نجد الإله يقوم بإنبات
النبات في الأرض ويضع فيها حيوانها ودباباتها " وقال الله لتنبث
الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزرّاً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه

بزره فيه على الأرض - تكوين ١ - ١١ " وفى مشهد آخر نجد
برية بلا عشب يقوم الرب الإله فيها بخلق آدم، ثم يضعه فجأة فى
مكان يدعى جنة عدن ليزرع أرضها ويفلحها " هذه مبادئ السماوات
والأرض حين خلقت، يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات، كل
شجر البرية لم يكن بعد فى الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد..
وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض.. وغرس الرب الإله جنة فى
عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذى جبله - تكوين ٢ : ١ - ٨ "

أما أفصح الإشارات لوجود روايتين مختلفتين لقصة الخلق،
فهو ما جاء عن آدم عندما وضع فى الجنة، فمرة نعلم أنه لم يكن
محرمًا عليه أكل ثمرة الخلد أساساً، بينما نفهم فى موضع آخر أنه
كان مخلوقاً للفناء " حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها، لأنك
تراب، وإلى التراب تعود - تكوين ٣ : ١٩ "

ثم تتناقض آخر، فلدينا رواية تؤكد أن عملية الخلق قد بدأت
بخلق السماوات والأرض دفعة واحدة " فى البدء خلق الله السوات
والأرض - تكوين ١ : ١، وأنه بعد ذلك تقرر إنارة الكون " وقال
الله ليكن نور فكان نور. ودعا الله النور نهراً والظلمة دعاها ليلاً —
تكوين ١ : ٣ - ٥،، بينما لدينا رواية أخرى تتحدث عن السماء

والأرض كموجود واحد أصلى فى هيئة محيط أزلى مظلم، وترجى تلك الرواية اىصال الإنارة إلى ما بعد فتق هذا المحيط إلى سماء وأرض " وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. ودعا الله الجلد سماء.. وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل - تكوين ١ : ٦ ، ٨ ، ١٤ ."

أما أبرز الشواهد على مزج روايتين مختلفتين للتكوين، فهو الكيفية التى تم بها خلق الإنسان الأول، ففي مواضع من القصة نجد الخالق يخلق الإنسان دفعة واحدة، ككائن واحد يجمع فى ذاته الواحدة بين الذكورة والأنوثة " يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله، ذكراً وأنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم - تكوين ٥ : ١"، لكن فى موضع آخر نجد الإله يخلق زوجين متمايزين ذكراً وأنثى "على صورة الله خلق الزوجين، ذكراً وأنثى خلقهم - تكوين ١ : ٢٧ ."

وبالطبع لم تكن شواهد التداخل بين روايات مختلفة تم جمعها، أمراً واضحاً فى قصة الخلق وحدها، فهناك دلائل أخرى فى روايات أخرى تشير إلى هذا الأمر بوضوح، ففي قصة نوح نجد رواية تقول أن الله قد أمر نوحاً أن يأخذ معه فى الفلك من كل زوجين اثنين "ومن كل حي من كل ذى جسد اثنين من كل، تدخل إلى الفلك

لاستبقائها معك، تكون ذكراً وأنثى - تكوين ٦ : ١٩ ،، بينما نجد رواية أخرى ترتفع بهذا الرقم فنقول « من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى - تكوين ٧ : ٢ ،، ثم فى موضع نجد نوحاً يستكشف أحوال الطوفان « وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض - تكوين ٨ : ٧ ،، بينما المستمر فى القراءة يجد المياه لم تنشف بعد، فيرسل الحمامة، ثم بعد فترة « فى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض - تكوين ٨ : ١٤ ،، والقصة النوحية مليئة بمثل تلك التناقضات التى لا تغيب على فراسة قارئ مهتم، وهى ذات التناقضات التى تغص بها بقية أسفار التوراة بلا استثناء، فهناك كمثال، تعليقات قدمتها التوراة لتفسير بعض التسميات، كتعليقها لتسمية مدينة (بئر سبع) بهذا الاسم، فالتسمية فى رواية تقول أنها سميت كذلك نسبة إلى سبع نعاج قدمها النبى إبراهيم لأبيمالك ملك مدينة جرار الفلسطينية، كرمز لميثاق عدم اعتداء بينهما، وهو الوارد فى (تكوين ٢١ : ٢٨ - ٣١)، لكن فى رواية أخرى نجد التسمية تعود إلى إسحق ابن إبراهيم الذى حفر له عبيده بئر ماء « فدعاها شعبه، لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليوم - تكوين ٢٦ : ٣٣ ،، وذات التناقض نجده فى تعليق تسمية

مدينة (بيت إيل)، فهو في رواية ينسب إلى يعقوب ابن اسحق عندما نام فأتاه الله في المنام، فقام متيقناً أن هذا المكان مسكن الإله فسماه بيت الإله أو بيت إيل "ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل، ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز - تكوين ٢٨ : ١٩"، وفي رواية أخرى تنسب التسمية إلى يعقوب أيضاً لكن في قصة أخرى ومناسبة أخرى حيث حدثه الله "ودعا يعقوب اسم المكان الذي فيه تكلم الله معه بيت إيل - تكوين ٣٥ : ١٥"، هذا بينما نعلم من التوراة ذاتها أن المدينة كانت تحمل اسم بيت إيل قبل يعقوب وقبل أبيه اسحق وقبل جده إبراهيم حيث نعلم أن إبراهيم عندما هبط أرض فلسطين غرباً، "ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت إيل ونصب خيمته، وله بيت إيل من المغرب وعامى من المشرق - تكوين ١٢ : ٨".

وفي قصة يوسف نجد يهوذا أحد الأسباط وهو هو صاحب اقتراح بيع يوسف للإسماعيلين بعشرين مثقالاً (تكوين ٣٧ : ٢٦ - ٢٨) بينما في موضع آخر نجد راوبين أخيهم يقترح إلقاءه في الجب (تكوين ٣٧ : ٢١، ٢٢، ٢٤)، ثم تجد نفسك هنا في متاهة : هل ألقوه أم باعوه، ومن الذى أنقذه أو أشتراه، تجار إسماعيليون أم مديانيون، التضارب هنا يصل قمته فلا تخرج بطائل.

وعليه فلا مناص من الاعتراف بأن التوراة، مجموعة جمة من التأليف التي اشترك في وضعها مجموعة مؤلفين، اختلفوا، ولم يلتقوا أبداً لتصفية ما بينهم من خلافات، وأن هذه المجموعة من التأليف تعنى بمسائل دينية ودنيوية وسياسية وأدبية وتاريخية، أما الذي يجب الإشارة إليه وعدم إهماله فهو شهادة العهد القديم نفسه في كثير من الإشارات الواضحة إلى أسفار يحيلنا إليها، فلا نجد لها ضمن المقدس المجموع، مما يدل على سفور على ضياع كثير من الكتب والأسفار ونموذجاً لذلك، وهنا سنحاول الحصر، وسنأتى بالنصوص التوراتية التي تحيلنا لمزيد من التفصيل في أسفار أخرى، بينما هذه الأسفار غير موجودة على الإطلاق.

— لذلك يقال في كتاب حروب الرب : واهب في سوفة وأودية أرنون — العدد ٢١ : ١٤ (هنا سفر حروب الرب وهو غير موجود) .

— فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه، أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر، فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل — يشوع ١٠ : ١٣ .
(هنا سفر ياشر، وهو مفقود بذوره).

– فكلّم صموئيل الشعب بقضاء المملكة وكتبه فى السفر ووضعه أمام الرب – صموئيل الأول ١٠ : ٢٥.

(وهنا سفر قوانين المملكة، وهو غير موجود).

– وأمور داود الملك الأولى والأخيرة، هى مكتوبة فى سفر أخبار صموئيل الرأى، وأخبار ناثان النبى، وأخبار جاد الرأى – أخبار أيام أول ٢٩ : ٢٩.

(وهنا ثلاثة أسفار هى أخبار صموئيل الرأى وناثان النبى وجاد الرأى، وهى بدورها لا يعلم شيئاً عنها).

– وبقيّة أمور سليمان الأولى والأخيرة، إما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى، وفى نبوءة أخيا الشيلونى، وفى رؤى يعدو الرأى – أخبار أيام ثانى ٩ : ٢٩.

(وهنا إشارة إلى سفرين آخرين مفقودين هما سفر أخيا الشيلونى، وسفر يعدو الرأى).

– وبقيّة أمور يهو شافاط الأولى والأخيرة، هاهى مكتوبة فى أخبار ياهو بن حنانى، المذكور فى سفر ملوك إسرائيل – أخبار أيام ثانى ٢٠ : ٣٤.

(وهنا سفر آخر مفقود هو سفر أخبار ياهو بن حنانى).

— وبقيّة أمور عزيا الأولى كتبها أشعيا بن أموص النبى —
أخبار أيام ثانى ٢٦ : ٢٣.

(والإشارة هنا إلى سفر غير سفر إشعيا المعروف، فالسفر
المفقود هنا لإشعيا النبى، وقد دونه عن الملك الإسرائيلى عزيا).

— وبقيّة أمور حزقيا ومراحمه، هاهى مكتوبة فى رؤيا إشعيا بن
أموص النبى — أخبار أيام ثانى ٣٢ : ٣٢.

(وكذلك فإن أخبار الملك الإسرائيلى حزقيا بدورها ليست
مدونة فى سفر إشعيا المعروف، وعليه فهناك سفر دونه إشعيا عن
أخبار هذا الملك فقد بدوره، وربما كان هو ذات السفر المفقود الذى
أشرنا إليه فى الفقرة السابقة مباشرة).

— ورثى إرميا يوشيا، وكان جميع المغنين والمغنيات يندبون
يوشيا فى مراتبهم إلى اليوم، وجعلوها فريضة إسرائيل —
أخبار أيام ثانى ٣٥ : ٢٥.

(وهنا إشارة لمرثى كتبها النبى إرميا على الملك الإسرائيلى
يوشيا، الذى قتل على يد الفرعون المصرى نخاو، وأن تلك المرثى
كانت ترتل كطقس فرضى على بنى إسرائيل فى صلواتهم، أو فى
تاريخ المناسبة السنوى، وهى غير موجودة فى إرميا أو مرثية

الموجودة بالعهد القديم الموجود بين أيدينا، مما يشير إلى كونها شكلت سفرًا بذاتها فقد بدوره).

- وكان بنو لاوى رؤوس الآباء مكتوبين في سفر أخبار الأيام إلى أيام يوحانان بن الياشيب نحemia ١٢ : ٢٣.

(وبالبحث في السفر الموجود بالعهد القديم والمعروف بأخبار الأيام الأول، والسفر المعروف بأخبار الأيام الثاني، لم نجد تلك الإشارات حتى يوحانان بن الياشيب، مما يقطع بوجود سفر أخبار أيام ثالث هو المقصود بتلك الإشارة، وهو غير موجود بالعهد القديم، مما يشير إلى ضياعه بدوره).

وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن هناك ستة عشر أو سبعة عشر كتاباً قد ضاعت في العقد القديم، وربما يصل الرقم إلى عشرين إذا أخذنا بإشارات إلى ثلاثة كتب مفقودة تنسب إلى الملك سليمان، هذا عدا ما ضاع ولم تشر إليه أسفار العهد القديم، ولم نعلم بأمره، وكان ضياع تلك الأسفار وغيرها أمراً محتوماً، اقتضته ظروف المنطقة والحروب التي خاضها الإسرائيليون، والتي تعرض أثناءها هيكلهم للتدمير والتلف أكثر من مرة، هذا إضافة للمدة الطويلة التي تطلبها تدوين ذلك المقدس الهائل، والتي امتدت حوالى ألف عام، وكان هذا بحد ذاته مدعاة لنقص شديد تعرض له ذلك الكتاب، والذي

يلقى بظله على أى بحث دينى أو تاريخى فيه، ناهيك عن خضوع الأسفار لمؤثرات مختلفة وعديدة باختلاف الأزمان والأحداث التى عملت فيها حذفاً أو زيادة، حتى أنك تجد اليوم نزاعاً داخل المؤسسات اللاهوتية ذاتها، حول مدى أصالة سفرى الجامعة ونشيد الإنشاد، وهل هما مقدسين يهوديين، أم دخيلين من ديانات أخرى.

تدوين العهد القديم وترجمته

انتهى التطور الأخير لأعمال مدرسة يوليوس فلهاوزن الألمانية حول الكتاب المقدس (١٨٤٤ - ١٩١٨)، إلى الكشف عن وثائق أربعة مختلفة يتكون منها المقدس اليهودى التوراتى (العهد القديم)، هى على الترتيب:

١ - مصدر يهوى : Jahwist ويرمز له اختصاراً بالرمز (J) وقد أخذت التسمية من أسم الإله يهوه Jahouva . لأنه الاسم الإلهى الغالب على الاستعمال فى هذا المصدر، ويرجع تأليفه إلى حوالى عام ٨٥٠ ق.م فى مملكة يهوذا، أى المملكة الجنوبية، وقد ركز هذا المصدر على الوعد الذى أعطاه الله للبطارقة من إبراهيم إلى موسى، وإن كان يحق لنا أن نرى ذلك التركيز فى هذا المصدر، محاولة لإضفاء الشرعية التاريخية والدينية، على الإنثالاف الذى أنشأه داود، بوضعه هو وأسلافه فى خضم تاريخ أقدم، لجعل مملكة داود عهداً مع الله، يمتد شرعاً إلى العهد مع إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى، ويمنح وحدة القبائل المعروفة بالأسباط وجوداً تاريخياً قديماً، وهى الوحدة التى لم تتحقق إلا بعد خروج قبائل راحيل الإسرائيلية من مصر، بقصد وضع أساس قومى تاريخى متين

للدولة التي وحدت القبائل، حتى يصعد بتاريخ تلك القومية التاريخية عبر الأنساب إلى زمن الخلق الأول.

٢ - مصدر إلهيمى : Elohist ويرمز له اختصاراً بالرمز (E) نسبة إلى الاسم الإلهي الغالب في ذلك المصدر وهو (إيل El) أى الإله، وإلهوهم أى الآلهة، ويرجع زمن تأليفه إلى حوالي ٧٧٠ ق.م، ويرجح أنه قد تم تأليفه في المملكة الشمالية إسرائيل، ثم تم بعد ذلك إدماج المصدرين اليهودي (J) والإلهوي (E) في مجموعة واحدة يرمز إليها بالرمز (EJ) وذلك حوالي عام ٦٥٠ ق.م وقد عنى هذا المصدر، باستكمال النقص الذى حدث فى المصدرين اليهودي والكهنوتي.

٣ - سفر التثنية (Deuteronomy) ويرمز له اختصاراً بالرمز (D) ويعنى بالإغريقية (القانون الثانى)، ويعد مصدراً منفصلاً، تم تأليفه خلال القرن السابع قبل الميلاد، وتزعم الرواية التوراتية أنه كان مخفياً فى مكان أو فجوة بجدران المعبد، وتم الكشف عنها عام ٦٢٢ ق.م أثناء حكم الملك اليهودي (يوشيا) Josias عند ترميم معبد أورشلیم (ملوك ثانى ٢٢ : ٣ - ١٠) و (٢٢ : ٣ - ٢٥)، حيث عثر المرممون فى وجود كبير الكهنة (حلقيا) على كتاب الشريعة وأحضره

للملك، فترك فيه أثراً عظيماً، حتى قام بموجبه يحرم كل الطقوس المتخلفة عن الوثنية، وقصر العبادة على معبد يهوه فى أورشليم وحده، لكن الملاحظ هو تعرض ذلك المصدر لكثير من الحشو والإضافات من عناصر ثقافية لا علاقة لها بالبيئة الصحراوية البدوية، وواضح أن كاتبها ينتمى لثقافة دولة متماسكة يحكمها ملك، ويعنى هذا السفر بالإضافة للشريعة، بوضع تشاريح الحرب وما جاء من أوامر إلهية بشأنها.

٤ - المصدر الكهنوتى : Priestly ويرمز له اختصاراً بالحرف (P) وهو تجميع كهنوتى يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ويركز على شعائر العبادة والطقوس، ويعود للتركيز على العهد مع نوح وإبراهيم وموسى وداود، ويقوم جوهره على وجوب إخلاص اليهود للعهد حتى يستحقوا الخلاص والوفاء بالعهد، وذلك عن طريق التزامهم شريعتهم بدقة، وشريطة أن يتمسكوا بلحظتين تاريخيتين جوهريتين: لحظة العهد القديم مع الله الذى أخذوا فيه الأرض مقابل الختان، أما اللحظة الأهم والأخطر فهي لحظة الإنقاذ بكبرى المعجزات (فلق البحر) عند الخروج من مصر، لذلك يكاد العزف على معجزة البحر عند اليهود، يشكل ترنيمة دائمة، وركناً أساسياً فى الاعتقاد، ويرجع

زمن ذلك المصدر إلى عهد (عزرا)، وقد تم إدماج هذا المصدر مع المصدر اليهودي والمصدر الألوهيمي حوالى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد.

وانتهت المدرسة الألمانية، إلى أنه قد تم تجميع المصادر الأربعة فى كتاب واحد، هو العهد القديم، حوالى عام ٢٠٠ ق.م، أما الأسفار المتأخرة مثل سفر المكابيين الأول والثانى (فى النسخة السبعينية اليونانية)، فقد تم تحريرها خلال القرن الأول قبل الميلاد، إلا أن مدرسة (فلهاوزن) قامت بعمل جريئ حقاً عندما عكست الترتيب اللاهوتى التقليدى القديم لتأليف الأسفار، بناء على ما أصبح بيدها من نتائج، وبحيث أصبح الترتيب يعاد على النحو التالى: أسفار الأنبياء، فالأسفار التاريخية، ثم أسفار موسى الخمسة مضافاً إليها سفر يشوع لتتشكل التوراة من ستة أسفار بدلاً من خمسة، ثم أضيفت إليها الأسفار بترتيب منهجى حسب مادتها، وليس حسب الترتيب الزمنى لتأليفها.

أما عن الطرق والوسائل والأدوات التى استخدمها مؤلفو التوراة ومحرروها فى التدوين، فهى ما يمكن استخراجها من الكتاب المقدس ذاته، فنجد سفر إرميا (٣٦:٢) يحدثنا عن تدوين الأدراج، بمعنى اللفائف، وتكتب من اليمين إلى اليسار، وقد أكدت ذلك

الأسلوب فى الكتابة أسفار عدة، مثل سفر حزقيال (٢: ٩، ٣: ١) وسفر زكريا (٥: ١، ٢) وسفر المزامير (٤٠ — ٨)، أما الأدلة التى استخدمت فى الكتابة على اللفائف، فكانت أحياناً قلم الأردواز كما يذكر المزمور (٤٥: ٢)، أو باستخدام الأحبار كما فى سفر إرميا (٣٦: ١٨).

ويبدو أن تلك الأدراج قد بدأت بأوراق البردى المصرية، ثم تطورت إلى الكتابة على الرق (الجلود)، وظلت تلك المخطوطات على هيئة اللفائف حتى جاء القرن الثالث قبل الميلاد حيث بدأت تأخذ شكل الكتب، مع الاستمرار فى العمل بنظام اللفائف، وهو نظام لازال معمولاً به حتى اليوم فى الأشكال الطقسية التى تمارس فى المعابد من باب تحنيط التاريخ، وتجد ذلك مستعملاً خاصة فى أسفار التوراة وسفر إستير بشكل محدد.

إلا أن أول أسلوب اتبعه الاسرائيليون فى التدوين، وإن كان غير موجود منه الآن أى أثر يشير إليه، أو لم يعثر على شئ منه حتى تاريخه، فهو أسلوب النقش المصرى القديم على المسلات، وكان أول من اتبعه النبى موسى، واستخدمه فى كتابة ألواح الشريعة الحجرية، والمزعوم أنها نقرت على الحجر أو نقشت بيد الإله نفسه،

ووردت قصتها في عدد من الإصحاحات المتفرقة في سفر الخروج،
التي جمعناها ورتبناها حسب ترتيب ورودها كالتالي:

- وقال الرب لموسى : اصعد إلى الجبل وكُن هناك، فأعطيك
لوحي حجارة والشرعة، والوصية التي كتبتها لتعليمهم.. ودخل
موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل، وكان موسى في
الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة - خروج ٢٤ : ١٢،
١٣، ١٨.

- ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء،
لوحي شريعة مكتوبين بإصبع الله - خروج ٣١ : ١٨.

- فأنصرف موسى ونزل من الجبل، ولوحا الشهادة في يده،
لوحان مكتوبان على جانبيها، من هنا وهناك كانا مكتوبين،
واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله، منقوشة على
اللوحين.. وكان عند اقترابه من المحلة أنه أبصر العجل
والرقص، فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه
وكسرها في أسفل الجبل - خروج ٣٢ : ١٥، ١٦، ١٩.

- ثم قال الرب لموسى: انحت لك لوحين حجر مثل الأولين،
فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين
الأولين، اللذين كسرتهما.. فنحت لوحين من حجر كأوليين،

وبكر موسى فى الصباح، وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ من يديه لوحى الحجر - خروج ٣٤ : ١، ٤.

(وقد جاء فى الأثر الإسلامى : إن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده^(١)، كما جاء فى الآيات الكريمة : وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة - ١٤٤ - الأعراف).

هذا إضافة إلى أسفار الشريعة، التى أمر موسى أتباعه بكتابتها، وبذات الطريقة، وهو ما يتضح فى قوله لهم : " يوم تعبرون الأردن إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك، تقيم لنفسك حجارة كبيرة، تشيدها بالشيد، وتكتب عليها جميع كلمات هذا الناموس.. حين تعبرون الأردن تقيمون هذه الحجارة، التى أنا أوصيكم بها اليوم، فى جبل عيبال، وتكلسها بالكلس.. وتكتب على الحجارة جميع كلمات هذا الناموس، نقشاً جيداً - تثنيه ٢٧ : ٢، ٤، ٨.. "

أما اللغة التى دونت بها الأسفار، فهى كما جاء على غلاف العهد القديم من الكتاب المقدس: العبرانية والكلدانية، والعبرانية كما

(١) الشهرستانى : الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفى البابى الحلبي، القاهرة، ١٩٦١، ج١، ص ٢١١ (المذكور نص حديث شريف).

يقرر المقدس التوراتى هى لغة أو لسان أو شفة كنعان الفلسطينية (إشعيا ١٩ : ١٨)، وإن كان من المفيد العلم أن بعض الأجزاء قد كتبت باللغة الأرامية، وأجزاء أخرى كتبت بالخط المربع (الآشورى) بعد السبى البابلى، وقد استخدم تلك اللغة (عزرا) صاحب معظم أجزاء العهد القديم.

أما المنطق التاريخى، فيفترض أن بدء الكتابة، بل وربما اللغة، التى استخدمها الخارجون من مصر بقيادة موسى، هى اللغة المصرية، خاصة إذا كانت الأدوات والأسلوب مصريين، وهو ما يجعل المدونات العبرية أمراً متأخراً حدث بعد موسى بزمان، وهو ما سبق وأثبتناه فى الصفحات السابقة، كما يستحسن الفرض أن الاسرائيليين - وقد قضوا فى مصر ما يزيد على أربعة قرون حسب تقدير الكتاب المقدس - قد تكلموا اللغة المصرية القديمة، شأنهم شأن بقية الأقوام التى دخلت مصر، هذا ناهيك عن موسى فى مصر، ونشأته نشأة مصرية، وشهادة المقدس له بأنه تتقف ثقافة مصرية وأنه كان متقهاً بكل حكمة المصريين.

بل وربما ذهب الافتراض حد القول أن لغة التخاطب بين موسى وربه فى سيناء، كانت اللغة المصرية القديمة وليست العبرية، التى لم يكن موسى يعرفها أصلاً، حيث ولد فى مصر وعاش فيها ثم

خرج منها حتى مات ولم تطأ قدمه أرض فلسطين صاحبة شفة كنعان التي عرفت فيما بعد بالعبرية^(١)، هذا ناهيك عن كون لفظة تورا ذاتها من الألفاظ المصرية، ومعنى تورا Torah فى العبرية (الشريعة) من Tororh (توروث)^(٢)، وهى ترتبط - فى رأينا - بعبادة الثور المقدس فى المصرية القديمة^(٣).

أما ترجمة ذلك الأثر الهائل عن لغته الأصلية، فمعلوم أن الترجمة العربية المتداولة الآن، قد تمت عام ١٨٦٥م، أما الترجمة الأنجليزية فقد تمت فى عهد الملك جيمس عام ١٦١١م، وكلا الترجمتين تمت عن الأصل العبرى المعروف بالنص المازورى، الذى سبق تدوينه فى القرن العاشر الميلادى، أى بعد ثلاثة قرون من تدوين القرآن الكريم.

ومن المفيد العلم أن النص المازورى قبل القرن العاشر كان غير مصحوب بالإشارات والحركات والنقاط فوق أو فيما بين

(١) ذهب هذا المذهب الدكتور فؤاد حسنين على، ولكنه لم يقدم عليه أية دلائل، حتى أنه سعى كتابه (التوراة الهيروغليفية)، والتي كانت عرضاً للعهد القديم كما تعرفه، ولا علاقة له بأية هيروغليفية.

(٢) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت، ج٦، ص ١١١.

(٣) انظر كتابنا : قصة الخلق أو منابع سفر التكوين.

الحروف الساكنة، وعند تدوين النص المازورى (المفترض أنه كان نصاً قديماً) تم اقتباس حركات النظام البابلى للحركات.

وهناك نص آخر باللغة اليونانية القديمة، يعرف بالنص السبعيني Version de Septante وقد تم كتابته حوالى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد، على يد اثنين وسبعين فقيهاً يهودياً مصرياً، بأمر ملك مصر آنذاك (بطليموس فلادفيوس)، وتزيد هذه النسخة عن النص المازورى أربعة عشر سقراً، وهى بالطبع غير موجودة بالنسخة العربية لأنها ترجمت عن النص المازورى، كما أنها غير الأسفار المفقودة التى أشرنا إليها آنفاً، وتلك الأسفار هى :

- سفر طوبيا Tobie وهو وصف لسيرة أسير إسرائيلى، فى الأسر الآشورى بمدينة نينوى، فى القرن السابع قبل الميلاد.

- سفر الحكمة لسليمان Salomon ويشمل أمثلة حكيمة عظام ضد الوثنية.

- أسفار الماكبيين Maccabees وعددها أربعة أسفار، تتحدث عن المكابين الذين حكموا فلسطين حكماً وطنياً فى عهد الرومان، فى القرن الثانى قبل الميلاد وجاء اسمهم فى الشعار الذى كانوا يتنادون به فى الحروب وهو (مى كاموخا بجييم يهوفا)، أى (من مثلك بين الأمم يا يهو). فاخذ من كل كلمة حرف (م ك اب ي) شكلت الاسم (مكابي).

- سفر يهوديت Judith وهو قصة أرملة يهودية غنية وتقية، ساعدت اليهود في الانتصار على الجيش الآشوري.

- سفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ، وهو مجموعة أمثال على غرار أمثال سليمان.

- سفر تسبيحة الفتية الثلاثة وهي تسابيح يقال أن أصدقاء دانيال الثلاثة رنموها وهم في أتون النار (وردت قصة الإلقاء في النار بالقرآن الكريم لكن حول الأب إبراهيم، والتوراة لم تذكر ذلك في قصة ذلك البطرك).

- سفر سوزان Suzane أو قصة سوسنة العفيفة، وهو تمجيد من النبي دانيال لقاض دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة.

- سفر بعل والتنين، وهو قصة تم إلحاقها بسفر دانيال تشرح كيف تم إقناع قورش ملك فارس بنبذ عبادة الأصنام.

هذا إضافة إلى ثلاثة أسفار منسوبة إلى عزرا، وإصحاحات تمت زيادتها على الأصل المازوري في أسفار (إستير) و(دانيال)، والمعلوم أن الكنيسة لم تتخل عن النص اليوناني السبعيني إلى النص العبري المازوري، إلا بعد القرن العاشر الميلادي، حيث أصبح النص المازوري هو النسخة المعتمدة للعهد القديم، ورغم ذلك مازالت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، والكنيسة الروسية، وكنائس شرق أوروبا، تستعمل النص السبعيني اليوناني.

الخرافة فى العهد القديم

سبق وأشرنا فى بحوثنا المنشورة إلى المصادقية التاريخية فى النص التوراتى، والمصادقية هنا لا تعنى أمراً لاهوتياً أو علاقة ما بالغيبيات، قدر ما تعنى مدى مطابقة النص لوقائع وأحداث أثبتتها نصوص تاريخية أركيولوجية، أى مصادقية موضوعية بحتة، وتلك الإشارة واجبة تماماً وهامة، لكن مع الحذر فى احتساب نص بعينه صادقاً لمجرد مطابقة بعض أحداثه مع أحداث تاريخية واقعية، بل يجب القول أنه قد دخله حشو وإضافات ومترجمات وزادات خرجت به عن معنى المصادقية الحققة، وأن هناك فقط ظل من حقيقة، بل وظل باهت، ونموذجاً لذلك، أسماء المدن والمواضع وأخبار المعارك والحروب، وسير الأنبياء والملوك، لأنه من المستحيل علمياً أن نتغاضى عن آلاف أسماء للمواضع الجغرافية التى وردت بالعهد القديم، لمجرد أنها وضعت فى سياق من الخرافة الواضحة، خاصة إذا علمنا أن هناك - كمثال - مواضع عديدة وكثيفة مرت بها رحلة الخروج من مصر إلى فلسطين، ومن العبث أن تكون كل تلك أسماء لهذه المواضع قد ذكرت عبثاً، أما الأهم حقاً، فهو ما جاء فى روايات تثبت معرفة مدهشة لدى الكاتب التوراتى بشؤون تاريخية قديمة كانت مخفية عنا، ولم نعلم بأمرها إلا بعد كشف المناطق الأثرية القديمة فى

حضارات المنطقة، وفك رموز لغات تلك الحضارات، كعرفة العهد القديم العجبية، لأسماء مدن مصرية، أهال عليها الزمان النسيان، بعد أن أهالت عليها الرياح تلؤل الرمال، ولم نكشف عنها ونعرفها إلا حديثاً، كذلك أسماء بعض الفراعنة مثل (شيشنق) و(نخاو)، أو مثل اسم زوجة النبي يوسف المصرية (إسنات بنت فوطي - فا - رع، كاهن مدينة أون)، وهو ما جاء ذكره فى سفر التكوين (٤١ : ٤٥)، ولم نعلم إلا حديثاً باسم (رع) إله الشمس المصرى، كما لم نعرف ما هى (أون) إلا بعد فك الطلاسم القديمة التى كشفت أن مدينة عين شمس الحالية كانت حاضرة مصرية عظيمة باسم (أون)، أو ما جاء عن مدينة (رعمسيس) فى سفر التكوين (٤٧ : ١١)، وهى المدينة التى لم نعثر عليها حتى الآن بشكل قاطع، لكننا وجدنا بشأنها برديات تتحدث عنها وتصف معالمها بكل دقة، إضافة لنشيد مديح مدينة (رعمسيس) المنسوب للشاعر (بنتأور)، ناهيك بالطبع عن الاسم (رعمسيس) ذاته كدلالة تامة الصدق والمطابقة لاسم الفرعون (رعمسيس) بنطقه المصرى القديم، قبل تحريفه إلى (رمسيس) بإهمال حرف الـ (ع).

أضف إلى ذلك حديث التوراة عن مركبات فرعون (تك ٤١ : ٤٣ مثلاً)، أو معرفة التوراة أن المصريين كانوا يعتبرون الرعاة رمزاً للشر وأنجاساً ملاعين، كما فى سفر التكوين (٤٦ : ٣٤)

و (٤٣ : ٣٢) وهو أمر كشفت عنه علوم المصريات الحديثة، إضافة إلى معرفة التوراة الدقيقة بالأسلوب المصرى فى التعامل مع الموتى وطقوس التحنيط والدفن، وهو ما ذكرته التوراة عن دفن يعقوب فى مصر، وأنه تم تحنيطه خلال أربعين يوماً، ثم البكاء والندب عليه سبعين يوماً (سفر التكوين ٥٠ : ١ - ٣)، وهو طقس لم نك أبدأ على علم به قبل فك أسرار المصريات القديمة.

وكثير مما يتعلق بشؤون مصر القديمة أثبتت التوراة معرفة دقيقة به، مثل قصة سبط البردى (خروج ٢ : ٣)، وأسلوب البناء بالطوب اللبن، الذى يؤخذ من طمى النيل ثم يخلط بالتبن ويجفف، وذكره سفر الخروج (٥ : ٦ - ١٧)، كذلك معرفة الكتابة بالحفر على المسلات كما جاء فى سفر الخروج (٢٤ : ١٢ - ١٣) و (٣١ : ١٨)، أو معرفتهم بصفات التابوت المقدس بدقة مدهشة تكاد تطابق التوابيت المصرية الملكية، وهو ما جاء ذكره فى سفر الخروج (٣٥ : ١٠) مع أفراد إصحاحات كاملة بذات السفر لمواصفات ذلك التابوت، أو عبادة عجل أبيس فى سيناء (خروج ٣٢ : ١ - ١٩)، أو مركبات الشمس التى ورد ذكرها فى سفر ملوك ثانى (٢٣ : ١١) وهى من أحدث الكشف الحالية فى المصريات القديمة.

لكن ذلك كله أمر، والتعامل مع النص بكامله كنص صادق تاريخياً أمر آخر، لأن التناقضات التي ينطوى عليها العهد القديم، يمكن أن تولف وحدها كتاباً قائماً بذاته، لا يقل حجماً عن الكتاب المقدس ذاته، لو أردنا أن نجعلها في مدون واحد، وهذا بحد ذاته كفيل بنزع الثقة عن التوراة وأخبارها منذ البدء، وحتى الأحداث التي ترويها، كوقائع حدثت في القرن التاسع قبل الميلاد على الأقل، ففي التوراة مبالغات لا يمكن قبولها إطلاقاً، وهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ الصادق.

وسنحاول هنا ضرب بعض الأمثلة التي تدخل روايات التوراة في عداد الخرافات البسيطة، والمركبة، فسفر القضاة مثلاً يحدثنا كيف قتل (شمشون) ألف فلسطيني بفك حمار (سفر القضاة ١٥ : ١٦)، وهناك روايات تحتوى على أرقام خيالية إلى حد بعيد، كما في تقرير سفر الملوك الأول (فضرب بنو اسرائيل من الأراميين مائة ألف رجل في يوم واحد ٢٠ : ٢٩)، والحديث هنا في حرب دارت بين (أخاب) ملك اسرائيل، وبين (بنحدد) ملك دمشق، حوالي عام ٨٦٠ ق.م، ومثل ذلك الحديث ليس فقط عسير التصديق، بل هو كذب فاضح، لأن مملكة دمشق بكاملها ولم تكن تحتوى على مائة ألف رجل يمكن قتلهم في يوم واحد بل وربما لم يبلغ سكانها جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً هذا الرقم العظيم.

وفى تلك الخرافات ما يعد لوناً من الأساطير المشروعة إلاً ولا زالت موضع تصديق وإيمان فى اليهودية والمسيحية، بل الإسلام مع بعض التعديل، مثل قصة وجود آدم فى الجنة وأكله الثمرة المحرمة، وحديث حواء مع الحية التى تتكلم:^(١)

وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله، فقالت الحية للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجرة الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، فقال الله : لا تأكلا منه وتمسأه، لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه، تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر

تكوين ٣ : ١ - ٥.

ومن قبيل تلك المصدقات الإيمانية، المبالغة الهائلة فى أعاء الرعيل الأول من البشرية :

(١) للمزيد أنظر كتابنا : الأسطورة والتراث ، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢.

- فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسع مئة
وثلاثين سنة

تكوين ٥: ٥.

- فكانت كل أيام شيث تسع مئة سنة واثنى عشر
سنة ومات

تكوين ٥ : ٨.

- فكانت كل أيام أنوش تسع مئة وخمسين
سنة ومات

تكوين ٥ : ١١.

- فكانت كل أيام قينان تسع مئة وعشر سنين ومات

تكوين ٥ : ١٤

فكانت أيام مهلائيل نماني مئة وخمسة وتسعين
سنة ومات.

تكوين ٥ : ١٧.

فكانت كل أيام يارد تسع مئة واثنين وستين
سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٠.

- فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسة وستين
سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٣.

- فكانت كل أيام متوشالحو تسع مئة وتسعة وستين
سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٧.

- فكانت كل أيام لامك سبعة مئة وسبعة وسبعين
سنة ومات

تكوين ٥ : ٣١.

- فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين
سنة ومات

تكوين ٩ : ٢٩.

ثم هناك أحاديث أخرى عن إتيان الله لأبناء تزوجوا من
آدميات فأنجبوا جيلاً من الجبابرة، وهو ما جاء نصاً :

وحدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض، وولد

لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن
 حسان، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا،
 فقال الرب لا يدين روى فى الإنسان إلى الأبد
 لزيغانه، هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة،
 وكان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام، وبعد ذلك
 إذا دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم
 أولاداً، هؤلاء الجبابرة الذين منذ أبد الدهر ذوو اسم
 تكوين ٦ : ١ - ٤. (١).

ومن باب تمجيد الآباء الأولين للقبيلة الإسرائيلية، نجد قصة
 تقول إن عدداً من الملوك العظام (إمرافل ملك شنعار، وإريوك ملك
 الأسار، وكدر لعومر ملك عيلام، وتدعال ملك جوييم) قد تحالفوا فى
 حرب ضد مجموعة ملوك لدويلات أخرى فى المنطقة هم (بارع ملك
 سدوم، وبرشاع ملك عمورة، وشنئاب ملك أدمة، وشمثيير ملك
 صبوييم، وملك بالع التى هى صوغر)، وتمت هزيمة الحلف الثائى،
 وكان بين أسرى المهزومين (لوط) ابن أخى (إبراهيم) وهنا تقول
 القصة ببساطة أن النبى إبراهيم أخذ ثلاثمائة رجل من أتباعه وهزم
 حلف الدول الكبرى أو كما جاء فى النص:

(١) وضعنا تفسيراً بقراءة علمية لتلك الاسطورة مرتبطة بظرفها الموضوعى فى كتابنا :
 النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.

فلما سمع إبرام أن أخاه سبى، جر غلماناه المتمرنين
ولدان بيته، ثلث مئة وثمانية عشر، وتبعهم إلى دان،
وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم، وتبعهم إلى
حوبه التي عن شمال دمشق، واسترجع كل الأملاك،
واسترجع لوطاً أخاه أيضاً، وأملاكه، والنساء
أيضاً، والشعب

تكوين ١٤ : ١٣ - ١٦.

هذا ناهيك عن ظهور الإله (بهية تشبه ما تحدثنا به الأساطير
عن الجن) للبطارقة الأوائل، وحديثه معهم، وصراعه مع يعقوب،
أو مثلما جاء في قصة لقائه بموسى وأتباعه وهو في هيئة أقرب
إلى التماثيل:

ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو، وسبعون من شيوخ
إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق
الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى
أشراف بنى إسرائيل، فرأوا الله، وأكلوا وشربوا - خروج
٢٤ : ٩ - ١١. (والمعلوم أن العقيق الأزرق هو فيروز سيناء الذي
صنع منه المصريون تماثيل آلهتهم).

وغير ذلك كثير وكثيف، نشير إليه فى عجالة، مثل : العصا الحية (خروج ٤ : ١ - ٥)، وضرب يهوه للمصريين بضربات أسطورية (خروج ٧)، أو فلق البحر (خروج ١٤)، وانشقاق نهر الأردن (يشوع ٣ : ١٦، ١٧)، وسقوط مدينة أريحا بمجرد أن صرخ عليها الإسرائيليون مع طبول وزمور وأبواق (يشوع ٦)، وإيقاف يشوع للشمس والقمر حتى ينتهى من القضاء على أعدائه (يشوع ١٠ : ١٢ - ٤)، وعكاز الملاك الذى يحرق اللحم (قضاء ٦ : ٢١)، وتحضير الأرواح (صموئيل ٢٨ : ١١ - ٢٠)، ومعجزات شمشون فى سفر القضاة (٤ : ١٤)، (٥ : ١٤)، (١٥ : ١٥)، (١٦ : ٣٠)، وإحياء النبى إيليا للطفل الميت (ملوك أول ١٧ : ٢١، ٢٢)، والامر الذى أصدره إيليا بهبوط نار من السماء تأكل جنود الأعداء (ملوك ثانى ١ : ١٠ - ١٢)، ثم صعوده إلى السماء (ملوك ثانى ٢ : ١١، ١٢)، وقيام رداء إيليا بعد ذلك بدور عصا موسى فى فلق الماء (ملوك ثانى ٢ : ٨، ١٤)، أو حروب الله مع التتتين لوائثن (اشعيا ٢٧ : ١).

وعليه ، فإن النص التوراتى من وجهة نظرنا ليس أكثر من وثيقة أسطورية، لكنه كأى وثيقة أسطورية أخرى، وحسب منهجنا الذى اتبعناه فى أعمالنا، يمكن أن يقدم لنا - إذا تعاملنا معه علمياً - مادة تاريخية نادرة لم تسعفنا بها الكشوف الأركيولوجية، وأن يضى

لنا مساحات مظلمة من التاريخ لم يكشف عنها البحث الأثاري بعد، ولكن وفق أصول وقواعد ومنهج صارم، وهو ما سبق وأن قدمنا له نماذج في أعمالنا المنشورة، لكن في نفس الوقت، يمكن لباحث مغرض أن يقرأ قراءة أخرى، بأغراض بعينها، وفق أيديولوجيا خاصة، فينطق بأمور أبعد ما تكون عن الصدق والموضوعية والعلمية، وهو ما سنجد له نموذجاً مثالياً في الباب الثالث من هذا الكتاب.

الانبياء فى العهد القديم

من الجدير بالذكر هنا، منعاً للتلباس، أن الآباء الأوائل أو البطارقة، من إبراهيم إلى موسى فى التوراة، لا يحسبون أنبياء بالمعنى المفهوم والسائد وفق الطروحات الإسلامية، وتبدأ النبوات فقط فى العهد القديم بموسى، أما عن إبراهيم وإسحق ويعقوب.. إلخ، فهم مجرد أسلاف يجب الاعتراف بهم وبسيرتهم، رغم علاقتهم بالإله، ورغم أنهم أصحاب الوعد، فهم ليسوا أنبياء المعنى المفهوم، لأن النبوة فى الفهم التوراتى هى التنبؤ، والقدرة على قراءة المغيبات، هذا بالطبع مع أمور أخرى تفصيلية تضع هؤلاء البطارقة الأوائل على المستوى الأخلاقى، فى صف الأفراد العاديين، الذين يمكن أن يرتكبوا أموراً يمجها الذوق المبنى على الفهم الإسلامى لمعنى النبوة، فالنبي إبراهيم مثلاً يتاجر بشرف زوجته سارة فى مصر، وفى جرار الفلسطينية، للحصول على الأموال، ويتم سرد ذلك دون أى تحرج (تكوين ١٢ : ١١ — ٢٠) و (تكوين ٢٠ : ١ — ١٤، ٧) ^(١)، وهو الأمر الذى يكرره بعد ذلك ابنه إسحق فى جرار كما ورد فى سفر التكوين (٢٦ : ٧ — ١٠).

(١) فصلنا الحديث فى هذا الأمر فى كتابنا النبى إبراهيم والتاريخ المجهول .

وفى قصة هلاك سدوم عمورة، ينجو لوط مع ابنتيه الوحيدتين، ويسكن فى مدينة (صوغر)، لكنه لسبب غير مفهوم يتركها إلى الصحراء وتحكى الرواية بعد ذلك :

وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر (١٩)، فسكن فى المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقى أبانا خمرأ ونضطجع معه، فنحى من أبينا نسلأ، فسقتا أباهما خمرأ فى تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبى، نسقيه خمرأ الليلة أيضاً، فأدخلى اضطجعى معه فنحى من أبينا نسلأ، فسقتا أباهما خمرأ فى تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه مواب، وهو أبو الموابين إلى اليوم، والصغيرة ولدت ابناً ودعت اسمه بنى عمى، وهو أبو بنى عمون إلى اليوم

تكوين ١٩ : ٣٠ - ٣٨.

وعليه فلن تصيينا الدهشة إن وجدنا (يعقوب) ابن (اسحق) الأصغر يحتال على أبيه ليسرق ميراث أخيه الأكبر (عيسو) (تكوين ٢٧)، أو حين نجد (راحيل) زوجة (يعقوب) تغادر بيت أبيها مع زوجها فتسرق الأصنام من أبيها عشقاً في عبادتها (تكوين ٣١ : ١٩)، كما لن ندهش إذا وجدنا الأسباط المكرمين يلقون بأخيهم الأصغر (يوسف) في بئر للتخلص منه (تكوين ٣٧ : ١٨ - ٣٨)، ولا أن يتزوج (عمران) من عمته يوكابد (خروج ٦ : ٢٠)، ولا أن يوعز الرب لموسى بسرقة ذهب المصريين (خروج ٣ : ٢٢، ٢١) و (خروج ١٢ : ٣٥، ٣٦)، وربما لا نصعق إذا ما علمنا أن الرب قرر موت موسى وهارون لأنهما قاماً بخيانتته (التثنية ٣٢ : ٣٨ - ٥٠)، أو أن يتم اختيار (شاوول) كأول ملك لإسرائيل، لالتميزة فيه سوى طوله وجماله (صموئيل الأول ٩ : ٢، ١٠ : ٢٣) أو اختيار (داود) لأنه كان أشقراً وحلو المنظر (صموئيل الأول ١٦ : ١٢، ١٧ : ٤٢)، ومن ثم فلا يجب أن ننزعج إذا أوعز لنا ذلك المقدس، بأمر علاقة شاذة تقوم بين (داود) وبين الصبي يوناثان بن شاول (صموئيل الثاني ١ : ٢٦)، أو أن يبدأ (داود) حياته مطبلاً للزار ومزمرراً لإخراج العفاريت التي ركبت (شاول) كما في (صموئيل أول ١٦ : ٢٣)، وربما يجب أن نقبل المبررات التي قدمها المقدس، والتي تم فيها تبخيس (نابال) وتصويره خسيساً، حتى يسوغ لداود أخذ أمراته

وهو ماجاء فى سفر صموئيل الأول (٢٥) ولطرافته يمكن
سرد نصه القائل:

واسم الرجل نابال، واسم امرأته أبيجايل، وكانت
المرأة جيدة الفهم وجميلة الصورة وأما الرجل
فكان قاسياً وردئ الأعمال.. وبعد نحو عشرة أيام
ضرب الرب نابال فمات.. وأرسل داود وتكلم مع
أبيجايل ليتخذها له امرأة.. وصارت له امرأة.

ومثل تلك القصة نموذج آخر بطله (داود) أيضاً، وهى بدورها
قصة غرامية انتهت باستيلائه على زوجة أخلص ضباطه أوريا
الحثى (وكان يعمل تحت قيادة يואب) بعد أن ضاجعها فى غياب
زوجها للدفاع عن حدود الدولة، وهى كما وردت نصياً :

وكان فى وقت المساء أن قام داود عن سريريه
وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على
السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر
جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد :
أليست هذه يتشبع بنت أليعام، امرأة أوريا الحثى؟
فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع
معه وهى مطهرة مز. طمئنها، ثم رجعت إلى بيتها،

وحملت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إنى
 حبلى، فأرسل داود إلى يوباب يقول: أرسل إلى
 أوريا الحثي، فأرسل يوباب أوريا إلى داود، فأتى
 أوريا إليه فسأله داود عن سلامة يوباب وسلامة
 الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا انزل إلى
 بيتك وأغسل رجلك، فخرج أوريا من بيت الملك
 وخرجت وراءه حصاة من عند الملك، ونام أوريا
 على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل
 إلى بيته، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريا إلى
 بيته، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر؟ فلماذا
 لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود: إن التابوت
 وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام، وسيدى يوباب
 وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء، وأنا أتى
 لبيتى لأكل وأشرب وأضطجع مع امرأتى؟! وحياتك
 وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر، فقال داود لأوريا:
 أقم هنا اليوم أيضا وغداً أطلقك، فأقام أوريا فى
 أورشليم فى ذلك اليوم وغده.. وفى الصباح كتب
 داود مكتوباً إلى يوباب وأرسله بيد أوريا، وكتب فى
 المكتوب يقول: اجعلوا أوريا فى وجه الحرب

الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيضرب ويموت،
وكان فى محاصرة يوبآب المدينة أنه جعل أوريا فى
الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال
المدينة وحاربوا يوبآب، فسقط بعض الشعب من عبيد
داود، ومات أوريا الحثى أيضاً.. فلما سمعت امرأة
أوريا أنه قد مات أوريا رجلها، ندبت بعلمها، ولما
مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته،
وصارت له امرأة، وولدت له ابناً

صموئيل الثانى ١١.

وأعمالاً لكل ذلك فلا يصح أن تأخذنا الدهشة عندما نجد
سليمان يقتل أخاه الأكبر صاحب الحق فى العرش (ملوك أول
٢ : ٢٥)، ولا عشق سليمان للنساء وعبادته لآلهة أخرى (ملوك أول
١١ : ١ - ٨)، ولا عندما نجد أمنون بن داود يعشق اخته ثامارا
ويجامعها (صموئيل ثانى ١٣ : ١)، فهذه قصص أسلاف وملوك
ومؤامرات قصور ودسائس، أما الأنبياء فلهم فى العهد القديم
شأن آخر.

والنبييم جمع كلمة (نابى) أو (نبنى) العبرية، من (نبا) أى خرج
وارتفع أو ظهر وخالف القطيع وأن كانت بقراءة التوراة العبرية تعنى

تماماً: الهاذى أو المخبول، وظهر منهم عدد كبير من بنى إسرائيل، بعضهم كان قاسياً يقرع اسماع الإسرائيليين بالقول الغليظ، إلا أن الواضح أيضاً فى كثرتهم، أنها أصبحت مهنة تدر على محترفها رزقاً طيباً، ومن هنا نلاحظ فى الأسفار المتأخرة تحفظ المؤلفين وحيطتهم إزاء الأنبياء، كما جاء فى سفر حزقيال « فإذا ضل النبى وتكلم كلاماً، فأنا الرب قد أضللت ذلك النبى، وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى إسرائيل - ١٤ : ٩ ».

وكثرة هؤلاء الأنبياء كانت لا تتناسب مع قلة عدد السكان فى البلاد، وهو ما يؤخذ من قول سفر ملوك أول : « فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربعة مئة ٢٢ : ٦ »، لكنهم على أية حال كان بإمكانهم إشعال الحروب وخلع الملوك وتنصيب من يريدون، وهؤلاء عادة ما كانوا من رجال الدين غير النظاميين، أشبه بمن نعرفهم اليوم بالدرأيش، ولم يخضعوا لهيكل من الهياكل، لكنهم كانوا يزعمون تلقى الوحي من الرب بلا واسطة، وأن روح الرب قد تملكهم فنطقت بلسانهم، وعادة ما نجد بعضهم فى صف الشعب يدافعون عن قضاياء، ضد المؤسسة الدينية الرسمية وكهانها المسيسين، وقد ظهر سلطانهم ونما منذ القرن العاشر قبل الميلاد، ولم يأت منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حتى أصبحوا من أهم عناصر الجماعة الإسرائيلية، وقام

بعضهم بعقد اتصالات مع الدول الخارجية، لتقويض سلطان الداخل المرفوض، ويقول (روبنسون) إنه كانت «تعتورهم حالة نفسانية غريبة نسميها نحن الوجد، تشبه أعراضها أعراض الغيبوبة أو الصرع، ويزعمون أن كل مرجع ذلك إلى أن الشخص قد حل فيه إله.. والعجيب أنها كانت حالة مُعدية قد تنتقل من شخص إلى آخر، وقد نزع الأنبياء والواجدون إلى التجمع وتأليف الفرق، وتعلموا كيف يبتعثون هذه الحالة الخاصة بهم برياضات شتى كالرقص أو اصطناع الموسيقى أو تناول العقاقير» (١).

ونموذجاً لذلك ما جاء في اختيار الكاهن صموئيل لشاول لمسحه بالزيت المقدس مسيحياً، كأول ملك لبني إسرائيل، فيصفه الإصحاح التاسع من سفر صموئيل الأول بالصفات «شاول، شاب، وحسن، ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه، من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب»، لكنه حتى يكون نبياً ملكاً، «أخذ صموئيل قنينة الدهن، وصب على رأسه، وقبله، وقال: أليس لان الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً.. إنك ستصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود، وهم يتنبأون، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر - صموئيل أول - ١٠».

(١) روبنسون (تيودور): إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثاني من تاريخ العالم، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص ١١٥، ١١٦.

وهذا (داود) بعد تنصيبه ملكاً، يتمكن من استعادة تابوت بنى إسرائيل المقدس من الفلسطينيين^(١)، «فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة.. وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو، بالعيدان والرياب والدفوف والجنوك وبالصنوج.. وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب، وكان داود متمنطقاً بإفود من كتان، فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق، ولما دخل تابوت الرب مدينة داود، أشرفت ميكال بنت شاول (زوجة داود) من الكوة، ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب، فاحتقرته من قلبها.. فخرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود وقالت : ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم، حيث تكشف اليوم فى أعين إماء وعبيده، كما يتكشف أحد السفهاء، فقال داود لميكال: إنما أمام الرب الذى اختارنى دون أبائك، ودون كل بيته، ليقمنى رئيساً على شعب الرب إسرائيل، فلعبت أمام الرب — صموئيل ثانى - ٦ » .

(١) التابوت فى الاعتقاد عبارة عن صندوق بصفات معينة، تم صنعه فى سيناء، بأمر النبى موسى، ليرقد فيه رب إسرائيل، ويحمله معهم لنصرهم على أعدائهم، ويكون دائماً فى معيتهم قريباً منهم، وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم، عن استعادة داود له كدلالة لصحة ملكه بعد شاول، وذلك فى قوله تعالى : « إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سكينه من ربكم — ٢٤٨ - البقرة » .

ومن الأنبياء من لم يكن من بنى إسرائيل، إنما من أهل المنطقة الذين يدعون إلى عبادة الإله البعل الزراعى، وقد ذاع صيت نبي موآب المدعو (بلعام بن بعور)، وجاء ذكره فى العقد القديم كمناصر لبنى إسرائيل ضد شعبه، مما يشير إلى أن المكافأة التى نالها من الأسرائيليين كانت أعظم. (جاء ذكره فى التراث الإسلامى باسم بلعام بن باعوراء).

ومن الطرائف ان الأنبياء الاسرائيليين كانوا يكذبون بعضهم بعضاً، فهذا ملك المملكة الجنوبية (يهوذا) المعروف باسم (يهوشفاط) يذهب إلى ملك المملكة الشمالية (آخاب) يطلب معونته لشن الحرب على بلاد سورية (آرام)، « فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربع مئة رجل وقال لهم : أذهب إلى رامة الجلعاد للقتال أم أمتنع؟ فقالوا اصعد فيها فيدفعها السيد ليد الملك - ملوك أول ٢٢ : ٦ «، وتحمس الأنبياء للقتال ومنهم صدقيا « وعمل صدقيا بن كنعنة لنفسه قرنى حديد وقال : هكذا قال الرب بهذه تنتطح الأراميين حتى يفنوا - ملوك أول ٢٢ : ١١ «، لكن الملك آخاب أرسل يستدعى نبياً لم يكن حاضراً هو (ميخا بن يمله) وسأله فى هذه المشكلة وهل يذهب لمحاربة الأراميين أم لا؟ فأجابه ميخا « وقال : فاسمع إذن كلام الرب : قد رأيت الرب جالساً على كرسیه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن

يساره، فقال: هذا : هكذا، وقال ذاك: هكذا، ثم أخرج الروح ووقف
أمام الرب وقال : أنا أغويه، قال له الرب : بماذا؟ فقال : أخرج
وأكون روح كذب فى أفواه جميع أنبيائه، فقال : إنك تغويه وتقدر،
فاخرج وافعل هكذا، والآن هو ذا قد جعل الرب روح كذب فى أفواه
جميع أنبيائك هؤلاء، والرب تكلم عليك بشر، فتقدم صدقيا بن كنعنة
وضرب ميخا على الفك وقال: من أين عبر روح الرب منى
ليكلمك؟ - ملوك أول ٢٢ : ١٩ - ٢٤ .

الآلهة فى العهد القديم

معلوم أن بنى إسرائيل انتقلوا بين مرحلتين، تمت في إلهين، واحد باسم إيل، وأحياناً باسم إلهوهم أى الآلهة، والآخر (يهوه)، لكن الأمر فى الحقيقة لم يكن مقصوداً على هذين إلا فقد عبد بنو إسرائيل العجل المصرى أبليس فى سيناء، بعد من مصر بأسابيع قليلة، أثناء غياب موسى على الجبل لإحضار لوحى الشريعة.

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هرون وقالوا له: قد اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذى اصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هرون انزعوا أقرا الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيتن وأتوني بها .. فأخذ ذلك من أيديهم وصور بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا : ها آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر
خروج ٣٢ : ١ — ٤.

ثم أنهم بعد ذلك عبدوا الإله المدياني بعل فغور، كما فى سفر العدد (٢٥ : ١ — ٣) وبدخلهم أرض كنعان حيث عبادة البعول الزراعية، عبدوا بعل وعشتروت، كما فى سفر القضاة (٢ : ١١ — ٧)، والقضاء (٣ : ٥ — ٨)، بل ومارسوا طقوس

الزنا الجماعى أمام هياكل تلك الآلهة، كما فى القضاة (٨ : ٣٣) و (١٠ : ٦)، ثم تحول طقس الزنا إلى يهوه نفسه، فكانوا يمارسون النزو الجماعى فى باب خيمة الإجتماع حيث تابوت الرب، وهو ما حدثنا عنه سفر صموئيل الأول (٢ : ٢٢)، بل أن سليمان الملك عبد بدوره عدداً من الآلهة «فذهب سليمان وراء عشتوت إلهة الصيدونيين، وملكولم رجس العمونييين .. وبنى سليمان مرتفعة لكموس رجس الموآبيين على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك رجس بنى عمون

ملوك أول ١١ : ١ — ٨.

أما الملك (يربعام) فقد عاد إلى عبادة العجل، : « وعمل عجلي
ذهب وقال لهم : هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذى أصعدوك من أرض
مصر، ووضع واحداً فى بيت إيل، وجعل الآخر فى دان - ملوك أول
١٢ : ٢٨ ، ٢٩ » .

كما بنى المرتفعات للزنى وراء الآلهة رحبعام بن سليمان،
وهو ما جاء فى سفر ملوك أول (١٤ : ٢٣)، كذلك إن الملك آخاب
بن عمرى عبد البعل (ملوك أول ١٦ : ٣١ - ٣٣)، بل إن أحاز ملك
يهوذا، أعاد طقس التضحية بالأبناء لنيران الآلهة، فقدم ابنه قرباناً
لنيران الإله، كما جاء فى سفر ملوك ثانى (١٦ : ٤، ٣)، أما الحية
التي صنعها لهم موسى وهم خارجون من مصرن وكان اسمها
(نحشان) أى الحنش أى الثعبان فقد ظلت تعبد زمناً طويلاً حتى عهد
متأخر (ملوك ١٨ : ٤)، وقد عبد الملك منسى بدوره البعول وبنى
لهم مرتفعات المضاجعة الجماعية، وهو ما يؤخذ من (ملوك ثانى
٢١ : ٢٢) وكذلك لعبادة إله جبل توفة المعروف باسم مولىك (ملوك
ثانى ٢٣ : ١٠)، كما عادت قدسية مراكب الشمس المصرية وظلت
قائمة إلى عهد متأخر كما فى سفر ملوك ثانى (٢٣ : ١١)، واستمر
يهورام ملك أورشليم فى عمل مرتفعات الزنى فى أورشليم كما
أخبرنا سفر أخبار الثانى (٢١ : ١١).

وفى الكتاب المقدس سفر كامل، لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء العبادات الجنسية وطقوس الزنى الجماعى، تلك العبادات التى كانت متفشية فى العبادات الزراعية بشكل وبائى، من باب حض أرض على الخصب والعطاء اعتماداً على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه، وكان الملك عادة ما يقوم داخل الهيكل مع الكاهنة الكبرى بإعطاء إشارة البدء فى ممارسة الطقس للجماهير المحتشدة فى الخارج، وذلك بقيامه بمجامعة الكاهنة، فتبدأ المعمعة الشبقية حول المعبد دون تمييز، وعادة ما كان يصاحب تلك الممارسة لونا من الأناشيد الطقسية تسبق الممارسة، وهى أشكال شعرية جنسية تتم تلاوتها لتحفيز المقدرات الجنسية على العمل، وذلك السفر المقصود بالعهد القديم وهو المعروف بسفر نشيد الإنشاد الذى لسيمان، الذى لا يَكُن ولا يحتشم، بل يقدم النشيد الطقسى دون أى تحرُّج، ويمكن اقتطاع نماذج من ذلك السفر فى شكل حوار يدور بين العشيقين الملكيين يقول:

العشيقة - ليقبلى بقبلاّت فمه، لأن حبك أطيب من الخمر.

لرائحة أدهانك الطيبة اسمك مهراق

لذلك أحببتك العذارى

لجذبى ورائك فنجرى

أَدْخَلْنِي الْمَلِكَ إِلَى حِجَالِهِ

نَذْكُرُ حَبْلَكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ

العشيقۃ - أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشلیم

كخيام قیدار

كشقق سلیمان

أخبرنی یا من تحبه نفسی:

أین ترعى؟ أین تربض عند الظهيرة؟

العاشق - إن لم تعرفی أيتها الجميلة بین النساء فاخرجی على
آثار الغنم

وارعى جدائك عند مساكن الرعاة

لقد شبهتك يا حبيبتي بفرس فى مركبات فرعون

ما أجمل خديك بسموط

العشيقۃ - ما دام الملك فى مجلسه أفاح نار دينی رائحته

صرۃ المر حبيبى لى

بين ثديي يبيت

العاشق - ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة

عيناك حمامتان

العشيقة - ها أنت جميل يا حبيبي وحلو

وسريرنا أخضر

أنا نرجس شارون سوسنة الأودية

أدخلني إلى بيت الخمر

وعَلَّمَه فوقى محبة

أسندوني بأقراص الزبيب

أنعشوني بالتفاح، فإني مريضة حبا

شماله تحت رأسي ويمينه تعانقتي

أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول

ألا تيقظن ولا تتبهن الحبيب حتى يشاء

.....

.....

فى الليل على فراش طلبت من تحبه نفسى

طلبته فما وجدته

وجدني الحرس الطائف في المدينة

فقلت : رأيتم من تحبه نفسي؟

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي

فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمي

وحجرة من حبلت بي

العاشق - ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك

شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد

أسنانك كقطيع الجرائر الصادرة من الغسل

شفتك كسلكة من القرمز، وفمك حلو

خداك كفاقة رمانة تحت نقابك

عنقك كبرج داود المبني للأسلحة

ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن

شفتك يا عروس تقطران شهداً

تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان

.....

قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه؟

قد غسّلت رجلي فكيف أوسخهما؟
حبيبي مد يده من الكوة فأنتت أحشائي عليه
قمت لأفتح لحبيبي
.... إلخ

الباب الثاني

التاريخ

تأسيس

عادة ما يلجأ الباحثون عند تناولهم شأناً من شؤون الجماعة البشرية، التى بدأنا بالاصطلاح على تسميتها فى العنوان بـ (بنى إسرائيل)، إلى استخدام أحد اصطلاحات ثلاثة، هى على الترتيب حسب شيوع الاستخدام : العبرانيين واليهود، الإسرائيليين.

ولتدقيق المصطلح ودلالته، نجد أن اصطلاح العبريين أو العبرانيين، يقصد به تمييز تلك الجماعة، بحيث يشير الاصطلاح إليها كشعب بعينه، وبحيث تبدو كما لو كانت تتسم بسمات جنسية محددة بتاريخ مترابط وواضح، ويرتبط بأرض ومواطن بعينها، له ظروفه البيئية والجغرافية التى تتناغم فى النهاية مع السمات التى طبعت ذلك الشعب، اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وفكرياً، وهو قصد يذهب إلى وضع الجماعة الإسرائيلية فى وضع يسمح بالإحياء بدلالات، تتساوى مع الدلالات التى تفهم من استخدامنا مصطلحات مثل (المصريين، البابليين، الكنعانيين، الحيثيين .. الخ)

لكن؛ بينما نجد اصطلاحات إسمية مثل المصريين أو البابليين، لا مجال للخلط بشأنها، ويمكن للمؤرخ وللباحث استخدامها باطمئنان، حيث تشير إلى شعب بذاته، يسكن أرضاً بعينها، تفاعل مع بيئة خلال مسار تطورى، انتهى إلى وسمه بسمات صريحة المعالم، يبدو فيها أثر

الجدل بين الإنسان وبين تاريخه وبيئته وطبيعة أرضه، وبحيث انتهى ذلك الجدل إلى نشوء كيان سياسى له سماته المميزة، مما يمكن الباحث من رسم صورة شبه متكاملة لتاريخ ذلك الشعب، من خلال وثائق، ومدونات، وآثار، وسجلات عينية، ومعتقدات، وأساطير، مع قراءة ذلك كله مرتبطاً بالظرف البيئى والتطور الاجتماعى، الذى يكسب الشعب فى النهاية نكهته الخاصة، وسماته المميزة، لكن استخدام مصطلح عبرى، للدلالة على الجماعة الإسرائيلية لا يؤدى بحال إلى أى من تلك المعانى، بحيث يسمح بكثير من الخلط والخبط وسوء الغرض إن بحسن نية أم بقصد، نظراً لاتساع المصطلح عن حجم المدلول، فلا يطابقه، وتتحول معه الجماعة الإسرائيلية إلى كتلة رجراجة داخل المصطلح دون ثبات، ويعود ذلك إلى عيوب أساسية فى تاريخ تلك الجماعة البشرية، يجد معها الباحث عسراً شديداً فى استخدام تعبير شعب، للدلالة على تلك الجماعة، دون السقوط فى خطأ علمى فادح.

. كما نجد عيوباً من لون آخر فى نسيج تلك المجموعة البشرية، وفى المراحل التى مرت بها وظروفها، إبان تكونها التاريخى، لا تسمح بإعطاء المدلول الذى يمكن الاطمئنان إليه، كما فى حال التعامل مع مصطلح (مصريين) أو (بابلين) على المثال، ورغم أن الباحث قد يجد أوجهاً للقصور فى تاريخ أياً من تلك الشعوب، نتيجة

مبالغة هنا، أو اختفاء للمدون - فى حقبة بعينها - هناك، فإن الاستعانة بعمليات القياس والنقد والمقارنة بين النصوص المتعددة، إزاء الحدث الواحد والتحليل ومحاكمة الوثائق على سياقها الداخلى والسياق التاريخى، يمكن الوصول بالمسألة إلى الوجه الأقرب إلى صدق ما حدث بالفعل، إضافة إلى ما يمكن القيام به من مقارنات، إزاء الحدث الواحد، بين نص يتحدث عنه فى مدونات مصر، وبين نص آخر يتحدث عنه فى وثائق الرافدين، لكننا مع الجماعة الإسرائيلية لن نجد بين أيدينا مثل تلك المادة الخام الأساسية، لنعلم فيها أدوات البحث، فلا وثائق، ولا آثار، ولا سجلات عينية، لا شئ بالمرة سوى وثيقة واحدة هى الكتاب المقدس (العهد القديم).

وحتى نكون أكثر دقة، فإن تعبير (لا شئ بالمرة) لون من المجاز الصادق، فهناك بالفعل إشارات متأخرة فى وثائق متناثرة فى أشلاء مبعثرة بين دول المنطقة، لكنها لا تصنع تاريخاً بحال، ولا تؤكد فى التاريخ الإسرائيلى شيئاً بالقطع اليقيني أو تنفيه، أما فى المراحل الأقدم والتي تعود إلى بداية ذلك التاريخ ولقرون طويلة، بعده حتى ظهور تلك الإشارات المبعثرة، فالأمر معلق بالمقدس وحده، علماً أن ذلك التاريخ الذى لا وجود له إلا بالكتاب المقدس، وهو عمدة تاريخ إسرائيل، ويمثل أخطر الأحداث التى تقيم جماعة إسرائيل التاريخ كله عليها، ويشمل أهم البنى لمقدسهم وتاريخهم على

الإطلاق، ومثالاً لذلك علاقة الجماعة الإسرائيلية بمصر، التى تتمثل فى لحظة حاسمة وفاصلة وقاطعة فى تاريخهم، وتحكى عبر المقدس عن هبوطهم من كنعان (فلسطين) إلى مصر، زمن النبى (يوسف) عليه السلام، وخروجهم منها بعد قرون فى عهد النبى (موسى) عليه السلام، وسط أحداث هائلة سواء فى كيفها أو فى نتائجها، وما صحب ذلك الهول من هلاك كامل لجيش مصر، أعظم إمبراطوريات ذلك الزمان قاطبة، مع مالحق الديار المصرية نفسها من دمار وهلاك بفعل رب إسرائيل (يهوه)، وأسهب فى شرحه الرواية المقدسة، ومع ذلك فإنك لا تجد فى وثائق مصر، على كثرة ما اكتشف منها حتى الآن، وعلى ما فى هذه الكثيرة من ذكر لدقائق وتفاصيل صغيرة الشأن، كسجلات وعقود البيع والشراء، أو كأوامر ثانوية للفرعون بنقل موظف أو تابع قليل الشأن، أو جزاءات التقصير فى العمل، أو الأمر بالسماح لقبيلة بدوية بالانتجاع على الحدود، للعمل فى مناجم الفيروز وحفائر سيناء... إلخ.. فإنك لا تجد بين كل تلك التلال الأثرية والشواهد المدونة أية وثائق تشير إلى بنى إسرائيل، اللهم إلا إشارة وحيدة يتمية، يقول فيها الفرعون (مرنبتاح) بن الفرعون (رعسيس الثانى)، ضمن لوحة يحكى عن انتصاراته « هلكت إسرائيل ولم يبق لها بذر »^(١)، وقد جاءت تلك الإشارة عرضاً، ضمن

(١) سليم حسن : الأدب المصرى القديم، كتاب اليوم، القاهرة، ١٩٩٠، ج٢، ص ٢٢٢.

روايته عن سحقه لعدد من الشعوب، مثل اللوبيين (الليبيين)، والكوشيين ^(١) (السودانيين). وحتى لو غفلت مدونات مصر عن ذكر ذلك الحدث الهائل الذى دمرت فيه البلاد، وهلك الزرع والضرع والعباد، وغرق بعده الفرعون وجيشه العرموم فى خضم أمواج البحر، فما بال مدونات الشعوب المعاصرة للحدث لا تذكر ما حدث للجارة الكبرى؟ سواء فى بلاد الشام أو الرافدين أو تركيا بلاد الحيثيين؟

هذا كل ما جاء عن تاريخ إسرائيل الطويل العريض فى الأثر المصرى " هلكت إسرائيل ولم يبق لها بذر "!! أما بلاد الرافدين فإنها لا تعرف شيئاً البتة عن التاريخ القديم لتلك الجماعة التى ملأت المقدسات صخباً وضجيجاً، وإن وردت إشارات فى الحقب المتأخرة تذكر شيئاً يسيراً فى شذرات عن مملكة تدعى (مملكة عمرى)، والتى يُظن أنها مملكة إسرائيل فى عهد أحد ملوكها المعروف بأسم (عمرى)، خلال الربع الأول من الألف الأولى قبل الميلاد، ثم شيئاً لا يغنى ولا يسمن عن انتصارات الآشوريين على سكان فلسطين وسببهم لأهلها، ومثله شيئاً آخر عن انتصارات الكلدانيين على جنوب فلسطين، أما قبل ذلك فلا شئ على الإطلاق يشير إلى جماعة

(١) الكلمة كوشى فى التوراة وفي المصرىات القديمة تشير عموماً إلى العنصر الزنجى.

إسرائيل، ولا للأحداث التي مرت بها، والتي أسهب الكتاب المقدس في تدوينها كعادته، إلى حد الإملال، بل أن الحفريات المحمومة، والهوس الأركيولوجي الذي يمارس الآن في دولة الكيان الصهيوني، لم يسفر حتى تاريخه عن شيء يستحق الذكر، أو عن أمر يمكن القطع بشأن نسبته للجماعة الإسرائيلية، أو حتى تصنيفه ابتساراً ضمن مرحلة بعينها من مراحل ذلك التاريخ، الذي تضخم حتى صار ورماً ناتئاً في تاريخ البشرية، دون سبب واضح، اللهم إلا بسبب مرض في صنّاع التاريخ وانحيازهم السافر، لإيجاد موطئ قدم للجماعة الإسرائيلية في تاريخ الإنسانية.

وحتى لو غرضنا الطرف عن كل المراحل القديمة في ذلك التاريخ، حسبما أوردته المقدسات الإسرائيلية، بحسبانها مراحل بداوة وعدم استقرار، لم تسمح لها ظروفها بترك آثار واضحة يمكن قراءتها، وبدأنا مع زمن قيام الدولة، بحسبان التاريخ عادة ما يبدأ مع الاستقرار، وقيام الكيان السياسي والتدوين، أي لو بدأنا مع المملكة التي أقامها (شاول وداود وسليمان)، رغم عدم ثبوت التدوين آنذاك (حوالي ١٠٠٠ ق.م)، لما وجدنا لأى من تلك الأسماء المضخمة قدسياً وسياسياً وعسكرياً، أى ذكر في سجلات أى من دول المنطقة بكاملها ودون استثناء، ذلك رغم ما قيل عن عظمة تلك المملكة واتساعها وجبروتها وعظم شأنها ومنشأتها، مع ما زعم عن الهيكل والقصور

والجيش العرمرم، مهما دققت النظر وأعييت الذهن، فلن تجد آية
إشارة، لا لمملكة وضيعة، ولا حتى في حفائر الدويلة الحالية، ولا أثر
معماري واحد بقى يتيماً كشهادة واحدة على تلك المنشآت التي
صدّعت بها أسفار المقدس رؤوسنا، بينما نجد ما يقف بلا ضجيج،
بدل الشاهد ألف، في آثار فراعين مصر الذين سفهم ذلك المقدس،
وأظهرهم في المراتب الدنيا في تاريخ الإنسانية، فالمملكة التي تبجح
المقدس بعظمتها لا شيء عنها البتة، لا في أثر على ظهر الأرض،
ولا في باطن الأرض، ولا حتى في الورق!! اللهم إلا ورق المقدس
وحده، وهو في موازين التاريخ والبحث العلمي، مالم ت اخترع له وحدة
قياس بعد.

هذا ما كان عن القصور الأول في تاريخ جماعة بنى إسرائيل،
والذى جعل من الصعب تدقيق الاصطلاح صادق الدلالة عليهم، فمع
تاريخ كهذا لن تكون واتقاً عن أى شئ تتحدث بالضبط، ولا يبقى
لديك سوى مآثرهم الوحيدة (العهد القديم من الكتاب المقدس) لتتناول
التاريخ الوارد فيه بالدرس، لكن الكتاب المقدس نفسه يضعك في
حيرة عندما تريد تدقيق الاصطلاح، ما بين العبريين واليهود
والاسرائيليين، لكن العجيب في الأمر، والمثير لدهشة الباحث وقلقه
معاً، هو ذلك التكامل المدهش في ذلك المآثور، الذى يندرج ضمن
التاريخ أكثر مما يندرج ضمن الدين، فيظهر بمظهر الدقة الصارمة،
ويتحدث عن الجماعة الإسرائيلية من البدء، نسباً لنسب، ليرتفع بهم

إلى أرومتهم (النبي إبراهيم عليه السلام)، ثم يصعد ليصل إلى شخصية تراثية أبعد هي (النبي نوح عليه السلام)، ثم يغالى دون أن يبالي، فيرتفع بسلسلة الأنساب حتى يصلها مباشرة بشخصية تراثية أخرى هي (آدم) أبو البشر، مع تفصيل لكثير من الدقائق والمنمنمات التي يقدمها كشواهد، إثباتاً للمصداقية، هذا علماً أن كل هذا المدون الذي يضرب في عمق الزمن السحيق، لم يتم تدوينه إلا في زمن متأخر جداً بما لا يقارب، قياساً على زمن الأحداث التي يرويها، حيث لم يبدأ تدوين المقدس الإسرائيلي حسب أبعاد الترجيحات، وأكثرها تأولاً لصالح بنى إسرائيل، إلا بعد بداية الألف الأولى قبل الميلاد.

وإزاء هذا التأخير في التدوين، مع التكامل الظاهري، والإصرار على التدقيق في تفاصيل أحداث سحيقة في القدم، فإن أى باحث لا يملك سوى أن يرى في ذلك التاريخ المقدس صنعة وانتحالاً واضحين، وريبة مركزية تحيط بها كثير من الظنون، مما يفقده الكثير من المصداقية لأول وهلة، وقبل وضعه على أى ميزان، هذا ناهيك عما تلبس بهذا التاريخ من أساطير ومبالغات لا تخلو منها صفحة من صفحات ذلك المقدس، ملتبسة بأحداث أخرى واقعية، وتتم رواية ذلك المزيج الهجين بحسبانه في مجمله أحداث تاريخية واقعية، مما يلقي مزيداً من ظلال الشكوك على الحدث نفسه، الذي يروى كواقعة تاريخية.

أما ما يزيد الأمر تعقيداً، فهو أن تلك الجماعة، وحسب الكتاب المقدس ذاته، قد مرت بعدة أدوار، انتقلت فيها نقالات هائلة ومتغيرة كميّاً وكيفياً، بحيث لا يمكنك في مرحلة بعينها، الزعم أنك تتحدث دون خلط، وهو ما ألقى بظلاله على تدقيق الاصطلاح المناسب الدال على تلك الجماعة البشرية، فاصطلاح العبريين يرتبط أساساً بلغة تلك الجماعة، والمعروفة باللغة العبرية، كما يرتبط من جهة أخرى بتفسير الباحثين للاصطلاح بحسبانه دالاً على حدث تاريخي، هو عبور القبيلة الأولى (الإبراهيمية) للنهر، في هجرتها من وطنها الاصلى إلى كنعان، ويتضارب الباحثون التوراتيون - دون الشعور بأى خلل - ما بين كون هذا العبور لنهر الفرات أو لنهر الأردن، فالأمر مقدس، ومع المقدس كل شئ جائز، وقد كانت هذه الهجرة من مدينة (أور) المزعوم بالتوراة أنها (أور الكلدانيين)، الواقعة في أقصى الطرف الجنوبي الغربى لبلاد الرافدين حسبما ذهب الباحثون، والتي ذهبنا نحن بها إلى منطقة (أرارات) في جبال (أرمينيا) حول هضبة أرارات وغربها، أى المنطقة الواقعة شمالى العراق وسورية الآن، وذلك فى كتابنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول).

ومن جانبنا فقد رأينا اصطلاح (العبريين) غير صادق الدلالة إلى حد بعيد، رغم كونه أكثر الاصطلاحات استخداماً فى كتابات الباحثين، وموقفنا يتأسس على خطأ نراه أساسياً فى مستند هؤلاء،

لأن الكلمة (عبري) لا تعود بحال إلى عبور نهر، وإعادتها لعبور القبيلة الإبراهيمية للنهر، قصد بها تخريجاً يتمشى مع سيناريو كاتب هذا الجزء بالكتاب المقدس الذي دون قصة الهجرة الإبراهيمية من (أور) إلى كنعان، بينما الأصل يعود إلى أن القبيلة الإبراهيمية المعنية بهذا الاصطلاح، تعود بنسبها إلى الجد المدعو (عابر)، وذلك حسب شجرة الأنساب التوراتية، فإبراهيم هو ابن تارح (آذر في الرواية الإسلامية)، ابن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر، وعابر هذا هو حفيد سام بن نوح، وتعود أهمية (عابر) في هذا السلسل حسب التعليقات التوراتية، إلى أنه في زمنه وزمن ولده (فالج)، قسمت الأرض حسب أسننتها إلى شعوب وأجناس، ووزعت على خريطة المنطقة، بحيث تميز العبريون في هذه القسمة عن غيرهم من الشعوب، لذلك لا ينسب الكتاب المقدس يذكر الجد عابر بشكل متواتر، قاصداً به الدلالة على الشعب الذي تناسل عن النبي إبراهيم تحديداً.

وممكن الخطأ في استخدام هذا الاصطلاح، هو أنه إلى (عابر) ذاته، تعود مجموعة أخرى من الشعوب، حسب القسمة التوراتية ذاتها، هم أبناء (يقطان) أحد أبناء عابر، وأبناء يقطان هم عرب جزيرة العرب وبخاصة جنوبها (قحطان) لذلك فإن دلالة (عبري) حسب المقدس، تشمل بني إسرائيل، كما تشمل شعوب جزيرة العرب،

فهى دلالة أوسع وأشمل وأعم من بنى إسرائيل وحدهم، وكما تبين دلالتها فى الكتاب المقدس، فهى تشير إلى الرعاة وأصحاب نهج البداوة بشكل عام، وحيثما استعملنا التعبير (عبرى)، يتبادر إلى الذهن فوراً تعبير (عربى) كمصطلح دال على الرعى والبداوى، ولنلاحظ أنه بظاهرة الميئاتيز الفونيطيقى (القلب اللسانى)، يمكن أن تتبادل (عبرى) و (عربى). وعلى مستوى اللسان فإنه من (عبرى) يكون التعبير، أو الإفصاح من (عبر) ومن (عربى) يكون الإعراب (أعرب) أى أفصح وعبر وهو يحمل ذات الدلالة، ولا يفوتنا الاقتراب الحميم بين اللغتين العربية والعبرية تحديداً من بين بقية فروع شجرة اللغات السامية، وفى المأثور (إسماعيل) أبو العربان، هو أخ لإسحق أرومة بنى إسرائيل، وفى التاريخ تحدثت وثائق الرافدين عن مملكة (عربى)^(١)، بينما تحدثت وثائق مصر عن البدو باسم (عبرو)^(٢)، ولنلاحظ أمراً لا يخفى مغزاه، وهو اعتماد المؤرخين الإسلاميين على شجرة الأنساب التوراتية، فى حال تنسيبهم لشخصيات عربية تاريخية، بحيث تعود تلك الشخصيات دوماً فى النهاية إلى الشجرة العبرية.

(١) فرتر هرمل : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ضمن كتاب التاريخ العربى القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين.

(٢) ر.س. ماكليستر : الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، تاريخ الإنسانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، مج ٢، ص ٩٣.

وفى حال احتساب اصطلاح عريبي منسوباً إلى اللغة العبرية، فإنه من المفيد أن نعلم، أن اللغة العبرية نفسها لم تكن لغة بذاتها بهذا الاسم، بل هي «شفة كنعان - أشعيا ١٩ : ٦٨ » أى لسان الكنعانيين، حيث اكتسبتها القبيلة الابراهيمية بعد نزولها فلسطين، حيث سكنت بين سكانها الكنعانيين، وتكلمت بلسانهم اكتساباً، وعليه فإن استخدام اصطلاح عبري سيشمل القبيلة الإبراهيمية الوافدة، والكنعانيين سكان فلسطين، وعرب الجزيرة، وما أبعد ذلك عن الصحة والسلامة، ومن هنا رأينا أن اصطلاح عبري، لا يفي بدقة للدلالة على بنى اسرائيل بقدر ما يدل على البداوة عموماً .

أما اصطلاح (يهود)، فهو لا يشير إلى جنس بعينه، أو شعب بذاته، أو مكان محدد، أو لكيان سياسى بخصوصيته ونظامه، قدر ما يشير إلى تصنيف طائفى، يتأسس على العقيدة والملة التى اجتمع عليها البشر، الذين شكلوا الجماعة الإسرائيلية، وتعود التسمية (يهود) إلى رب هؤلاء المعبود فيما بعد العهد الموسوى باسم (يهوه)، ثم إلى أحد الأسباط من أبناء يعقوب، والمدعو (يهودا)، الذى سمي به قسم منفصل عن دولة سليمان حمل اسم (مملكة يهوذا). والاصطلاح واضح القصور، حيث لم يظهر الإله يهوه إلا مع ظهور النبي موسى عليه السلام، والنبي موسى هو أحد أحفاد سبط لاوي أو ليفى بن

يعقوب المعروف بإسرائيل، حوالى عام ١٢٥٠ ق.م، مع إسقاط كل المراحل السابقة فى تاريخ تلك الجماعة، هذا ناهيك عن كونه لايفى إطلاقاً بدلالاته الصادقة، على الشرازم المؤتلفة اليوم فى الكيان الصهيونى، والتى لا تجمعها لالغة مشتركة ولا تاريخ واحد، ولا جنس، ولا موطن، ولا يجمعها شئ سوى الملة والطائفة، والمبدأ العنصرى الذى يقوم عليه ذلك الكيان، وإعمالاً لذلك فإن اصطلاح (يهود) لا يحمل دلالة صادقة على الجماعة الإسرائيلية المقصودة فى الكتاب المقدس.

ومن هنا، فقد ملنا إلى استخدام اصطلاح (بنى اسرائيل) الذى يشير إلى الجماعة القديمة، صاحبة ذلك التاريخ المقدس، رغم ما قد يلحق ذلك الاصطلاح بدوره من عيوب، وهو اصطلاح يعود فى منشأه إلى يعقوب بن اسحق بن إبراهيم، فى قصة مقدسة ومشهورة تقول إن يعقوب النقى رباً يُعرف بالاسم (إيل)، وكان رب إبراهيم وإسحق ويعقوب، وظل رباً لتلك الجماعة حتى ظهور النبی موسى وربه (يهوه)، وتحكى القصة حكاية النزال الجسدى بين يعقوب وإيل، وكادت المصارعة تحسم لصالح يعقوب، لولا أن كشف إيل عن شخصيته الإلهية ليعقوب، حيث أمره بتبديل اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، وهو نحت لفظى مركب من ملصقين، يترجمه بعض الباحثين تجميلاً، وربما مجاملة لشعب الرب، بالترجمة

(جندى الرب)، بينما صدق التسمية لدينا هي (صرع - إيل) أى مصارع الرب، أو الذى صرع الرب وهزمه، ولو كان صدق التسمية هو (جندى الرب) لكان الأصل العبرى هو (صبت - إيل) وليس (اسر = إيل) = (صرع = إيل) « انظر الكتاب المقدس سفر التكوين : ٣٢ : ٢٢ - ٢٩ ».

وقد ملنا إلى استخدام اصطلاح بنى إسرائيل، رغم كونه لا يشمل سلف الجماعة قبل يعقوب (إسحق وإبراهيم)، لكنه على أية حال الأقرب إليهم زماناً، فيعقوب حفيد إبراهيم مباشرة، هذا بالإضافة لكونه تابعاً فى العقيدة للإله (إيل)، بينما يرتبط يعقوب نفسه من جهة أخرى بالأسباط بنى إسرائيل وهم بنيه، الذين جاء من نسلهم موسى عليه السلام صاحب الإله الجديد (يهوه).

أدوار التاريخ الإسرائيلي

من المتفق عليه بين الباحثين المهتمين بدراسة تاريخ الجماعة الإسرائيلية اللجوء إلى تقسيم هذا التاريخ إلى مراحل أو أدوار، في محاولة لتجاوز الصعاب والعقبات التي ربما تعرض لونها من الاستحالة، في حالة معالجته كتاريخ متصل، وهى الصعاب الناتجة عن العيوب الأساسية في مسيرة هذا التاريخ، والتي أشرنا إليها، وقد اختلف تقسيم تاريخ بنى إسرائيل بيد المؤرخين حسب الرؤية، والمنهج، والمدرسة، والأيديولوجيا في أغلب الأحيان، وللإيجاز سنعمد إلى الرؤى المطروحة والمعلومة لدى القارئ العربى، وأوسعها انتشاراً تقسيم (فيليب حتى) لهذا التاريخ دورين رئيسيين، يعتمدان خط الهجرات للجماعة الإسرائيلية إلى فلسطين، والذي تم في هجرتين رئيسيتين، تفصل بينهما مرحلة زمنية، تعود الهجرة الأولى منهما إلى القبيلة الأولى في التاريخ الإسرائيلي (القبيلة الإبراهيمية)، وهى الهجرة التي هبط فيها البطرك إبراهيم وعائلته أرض فلسطين في استيطان أول، أما الهجرة الثانية فكانت في الزعم المقدس مجرد عودة إلى فلسطين، بعد أن اضطرت المجاعة وشظف العيش النبى (يعقوب) وأباطه وأحفاد إبراهيم عليه السلام، إلى هبوط مصر طلباً للقت، حيث لبثوا هناك زمناً عادوا بعده في هجرة ثانية إلى

فلسطين، لكن الهجرة هذه المرة، ضمت عدداً هائلاً من البشر، وتأسيساً على ذلك أقام (فيليب حتى) تقسيمه لتاريخ بني إسرائيل إلى دورين، مثلتهما هجرتين إلى فلسطين، لكنه يؤكد أن التاريخ الحقيقي لتلك الجماعة، وظهورهم في التاريخ (كشعب)، إنما يبدأ من الهجرة الثانية، أى مع خروجهم من مصر بقيادة النبی موسى عليه السلام، حوالى عام ١٢٣٤ - ١٢١٥ ق.م فيما يذهب هو إليه، وأن هذا الخروج أو الهروب أو الهجرة، لم تشمل سوى قبيلة واحدة من جماعة إسرائيل، هى قبيلة (راحيل)^(١)، نسبة إلى راحيل الزوجة الثانية ليعقوب وهى أم يوسف النبی عليه السلام وأخيه بنيامين، والمقصود هنا أن القبيلة التى دخلت مصر وخرجت منها هى فقط نسل راحيل فقط دون بقية الجماعة الإسرائيلية.

وإن المؤرخ (فيليب حتى) وهو يضع ذلك اللغم، يتركه ويستمر فى عرض تاريخ الجماعة، لكن بعد أن يشعل فتيله الذى يشير لقارئ ليب، لديه إمام كاف بالتاريخ المقدس، إلى تفجر وتشظى الجماعة الإسرائيلية قبل دخول مصر، وإلى احتمال أنها لم تكن يوماً جماعة واحدة، إنما حدث لها إئتلاف بعد الخروج بقيادة

(١) فيليب حتى : خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٥، مج ١، ص ١٢٦، ١٢٧.

قبيلة راحيل، وأن الخروج لم يشمل إلا عدداً محدداً من بنى يعقوب إسرائيل، وعليه فلا مندوحة لعقل نقدي، أن يستدل من رؤية (حتى) على أن جماعة إسرائيل لم تتكون حقيقة إلا بعد الخروج، وبالتالي لتتشكل من إئتلاف قبلي كان أصلاً متعدد العروق ومختلف المشارب، ولم يكن من بينها من هو أصل النسب لإسرائيل سوى أبناء راحيل، وهو أمر يمكن أن يؤدي بإعمال البحث المدقق إلى نتائج هائلة في محتواها، وهو ما نحاول إعمال البحث فيه حالياً، في كتاب لازال مشروعاً قيد البحث بعنوان (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة).

أما عالم الساميات (سبتيوموسكاتي) فيلجأ في تقسيمه للتاريخ الإسرائيلي إلى أدوار، مستنداً إلى رؤية أخرى، ترتبط بمراحل الاستيطان والارتحال الإسرائيلي من مواطن مختلفة ومتباعدة إلى مواطن أخرى متباعدة، يبدأها بالمأثور التوراتي حول إقامة القبيلة الأولى (الإبراهيمية) في جنوب بلاد الرافدين (وهو يسلم بذلك دون مناقشة)، ثم هجرتهم من هناك إلى فلسطين، ثم يثنى على الدور الثاني الذي هاجر فيه يعقوب إسرائيل وأولاده إلى مصر حيث أقاموا فيها إلى أن أنهى بهم الأمر إلى الأضطهاد، ثم الخروج من مصر إلى سيناء بقيادة موسى النبي عليه السلام. ثم ينتقل إلى الدور الثالث والأخير في تقسيمه، والذي يرتبط بدخولهم أرض فلسطين في سلسلة من الحملات، التي وُجّهت إلى جنوب فلسطين ووسطها وشمالها،

حتى استيطانهم فيها، وينسب تلك الأحداث إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مشيراً إلى حفائر آثارية فى جنوب فلسطين، تشهد بتدمير بعض المدن حوالى ذلك الزمن، ويحتسب ذلك دليلاً كافياً على حدوث الهجوم الإسرائيلى على فلسطين^(١)، وهو الأمر الذى يؤخذ على باحث فى وزن موسكاتى، فدليله واضح التحيز وبين القصور، لأنك لن تحفر الأرض فى أى موطن فى الشرق الأوسط، إلا وتجد قرى وبلدات عفى عليها الزمان، بعد تدميرها على يد أقوام أخرى، ومعلوم أن منطقة الشرق الأوسط كانت تموج لمدى ثلاثة آلاف عام بالحركات البشرية والهجرات، ومعلوم أيضاً أن فلسطين نالها النصيب الأكبر من اضطراخ تلك الجموع البشرية الهائلة، لموقعها الجغرافى المركزى فى بطن المنطقة، وعليه فإن وجود قرى مدمرة فى طبقات الحفائر بفلسطين لا يشير بالشرط والقطع إلى بنى إسرائيل تحديداً فى الزمن الذى يشير إليه، وكون فلسطين كانت طوال تاريخها معبراً لجميع الشعوب المهاجرة، وساحة لمعارك الأمبراطوريات الكبرى المتصارعة دوماً (مصر، آشور، بابل، الحيثيين)، كفيل وحده بجعل فلسطين تنال نصيباً أوفر من الدمار المتواصل، أكثر من مواضع أخرى كثيرة فى الشرق القديم.

(١) موسكاتى : الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٤٩، ١٤٠.

هذا بينما يذهب باحث آخر - لا يقل اجتهداً - هو (أحمد سوسة) إلى تقسيم التاريخ الإسرائيلي إلى أدوار ثلاثة، يعتمد ذات خط (موسكاتى)، أقصد نظرية المواطن التى تقاسمت حركة التبدي للجماعة الإسرائيلية، لكنه يخالفه فى تزمين تلك المراحل طوياً أو قصراً، فالدور الأول يبدأ بهجرة النبى إبراهيم عليه السلام، مع قبيلته، من (أور الكلدانيين) جنوبى بلاد الرافدين، لكنه يمد هذا الدور زمنياً لينهيه باستقرار الإسرائيليين فى مصر، حيث يزعم أنه بعد هبوطهم مصر، اندمجوا كلية فى البيئة المصرية، بعد قضاء ست قرون كاملة هناك (وهو تقدير خاص بأحمد سوسة)، لكن مسألة الاندماج التام رأى له وجهته، فى ضوء ما يعرفه التاريخ، عن قدرة مصر الفذة فى امتصاص الغرباء وتمصيرهم، فى أزمنة أقصر بكثير من المدة المزعومة لبقاء الإسرائيليين بمصر، ثم ينتقل (سوسة) بعد ذلك إلى الدور الثانى، الذى يبدأه مع النبى موسى عليه السلام وجماعته، فى نزوحهم من مصر إلى فلسطين، ويذهب فى ذلك إلى رأى فريد، فيقول : إن رحلة الخروج التى أسهب فى روايتها الكتاب المقدس، وتعتبر حجر الزاوية فى البناء التاريخى لإسرائيل بكامله، ليست سوى " حملة مصرية، مؤلفة من جماعة من المصريين، وبقياء الهكسوس، يدينون بدين التوحيد، الذى ورثوه عن إخناتون فرعون مصر، واضطروا تحت ضغط الوثنيين واضطهادهم إياهم إلى الهروب من مصر، والتوجه إلى أرض كنعان ".

بل ويذهب (سوسة) إلى أن هؤلاء الخارجين لا ريب " كانوا يتكلمون باللغة المصرية، وبها كلمهم موسى على وجه التأكيد، وقد

نسبت التوراة هذه الحملة إلى بنى إسرائيل، بغية ربط هذه الجماعة،
 بيعقوب وبإبراهيم الخليل، كما نسبت موسى إلى كهنة بنى لاوى بن
 يعقوب، فى حين أن رأى الغالب لدى الباحثين فى هذا العصر، هو
 أن موسى كان قائداً مصرياً فى بلاط إخناتون، يدين بدين التوحيد
 الذى دعا إليه إخناتون، ورواية التوراة نفسها، تشير إلى أن موسى
 تربى فى بلاط فرعون، واتخذته ابنة فرعون ابناً لها — خروج
 ٢ : ١٠ — ثم تزوج من امرأة كوشية (زنجية) — عدد ١٢ : ١٠ —
 فلو كان لاوى فى الوجود زمنه، لتزوج إحدى بنات عمومته، ومن
 الثابت لدى العلماء، أن اسم موسى اسم مصرى صميم، تسمى به
 أباطرة عصر الإمبراطورية : أحمس أو (أح موسى) .. تحوتمس
 أو (تموت موسى)، رعمسيس أو (رع موسى) أما لغة هذه الشريعة
 فالأرجح عندنا أنها كانت باللغة المصرية، وقد أخذت جماعة موسى
 بالحضارة الكنعانية وتقاليدها وعاداتها، كما أخذت بلغتها الكنعانية..
 أما لغتهم التى صارت تسمى بالعبرية فى وقت لاحق، فهى إحدى
 اللهجات التى اقتبسوها من الآرامية، وقد تكونت بمرور أكثر من
 ستمائة عام، على دخولهم أرض فلسطين، وبها كتبت التوراة فى بابل
 بعد عهد موسى بثمانمائة عام، وبعد عدة قرون اقتبست هذه الجماعة
 الكثير من أسس الديانة والعبادة الكنعانية، وصارت جزءاً
 من ديانتها «^(١) .

(١) أحمد سوسة : العرب واليهود فى التاريخ، دار العربى للإعلان والطباعة والنشر، ط ٢،
 د.ت، دمشق، ص ١٥٥ : ١٥٧ .

ولنلاحظ هنا، أن القول بمصرية موسى عليه السلام سبق إليها
أعلام مثل (جيمس هنرى برستد) و(سيجموند فرويد).. إلخ، هذا
إضافة لما يتمتع به رأى (سوسة) فى جملته من وجاهة، تضعه فى
إعتبار أى باحث جاد.

ثم ينتقل (سوسة) إلى الدور الثالث من أدوار التاريخ
الإسرائيلى، فينتقل مع بنى إسرائيل إلى موطن ثالث، يبدأ بسببهم من
فلسطين إلى بابل على يد (نبوخذ نصر الثانى الكلدانى)، وذلك حوالى
عام ٥٨٦ - ٥٣٩ ق.م، حيث أقاموا فى بابل، إقامة أدات إلى تطور
هائل فى العقيدة اليهودية خلال القرون التالية، كما كان لتلك الإقامة
أهمية أخرى، فقد دُونت فى بلاد الرافدين - أثناء الأسر- أهم فصول
التوراة. ويذهب (سوسة) إلى أنه ربما كان فى حوزتهم، نسخة من
وصايا موسى الأصلية، المكتوبة بالهيروغليفية، قدمت لهم المادة
الأساسية والخام، لعملهم بالكتاب المقدس^(١).

ثم نجد لونا آخر من تقسيم التاريخ الإسرائيلى، لا يعتمد خط
الحركة المهاجرة ولا يأخذ باعتباره المواطن الجغرافية للحل
والترحال، إنما يربط بين أدوار التقسيم، وبين تبادل الأحداث التى
مرت بالجماعة الإسرائيلىة، وكانت ذات أثر جوهري فى حدوث

(١) نفسه : ص ١٥٨ ، ١٥٩.

نقلات تاريخية، حولته تحولاً كبيراً، بحيث أصبح ذلك بمثابة الانتقال من دور إلى آخر، مع أخذه بالحسبان، شكل الحياة، أو نمطها السائد، ومدى ما دخلها من تغيرات نقلتها من دور إلى دور آخر في التاريخ، وهو ما نجد نموذجاً له عند (أنيس فريشة) حيث يقول: "مر العبران في خمسة أدوار رئيسية:

١ - دور البداوة .. حيث كانوا من جملة القبائل السامية المنتشرة في شمالي الجزيرة العربية " .. ولم يكونوا موحدتين، لكنهم كانوا في طريقهم نحو التوحيد، وأصبح أحد آلهتهم - يهوه - قائدهم في الحروب.. الإله الأول .. وكان يهوه إله قبيلة قليلة العدد ضيقة الأفاق، وكان يتميز بكثير مما تتميز به آلهة الصحراء، فقد كان إلهاً غيوراً يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، للجيل الثالث والرابع، كان صارماً شديداً، حتى أنه لم يرد أن يرسم له رسم أو نحت، خوفاً من المنافسة، ولكن هذا الإله الصحراوي أصبح على يدى الأنبياء أمثال إشعيا وعاموس وميخا، إلهاً عالمياً يأمر بالمحبة والعدل.

٢ - دور التكوين القومى والسياسى .. وهو طور أستقرارهم فى كنعان، بعد أن دخلوا أسباطاً وعشائر تحت إمرة شيوخهم وقضاتهم، ولم تخضع البلاد لهم برمتها، بل ظلوا يكافحون فيها

قروناً يحاربون، حتى دانت لهم من دان إلى بئر سبع، وكانت الحضارة الكنعانية أرقى من حضارتهم، وكذلك كانت لغة الكنعانيين أرقى من لغتهم، فاقتبسوا لغة البلاد واندمجوا في حضارتها، وتكونت على مر الأجيال قومية عبرية، .. وتأسست الملكية، .. ونعموا بفترة استقرار ورخاء دامت أكثر من تسعين سنة، ثم أنهم ما لبثوا أن انقسموا على ذواتهم، قسم شمالي عاصمته بالقرب من نابلس الحديثة، وقسم جنوبي عاصمته أورشليم، وفي هذه الفترة، نشأ صراع عنيف بين يهوه وبين آلهة أخرى زراعية، وقام نزاع بين كهنة البعل وكهنة يهوه، واشتد الصراع بين العادات الصحراوية القبلية، وبين العادات الزراعية الحضرية.

٣ - دور السبي.. في سنة ٧٢١ ق.م وقعت المملكة الشمالية إسرائيل في قبضة الآشوريين، فخربوا العاصمة، وأجلوا قسماً كبيراً من السكان إلى العراق، وفي عام ٥٨٦ ق.م، وقعت المملكة الجنوبية في قبضة البابليين، فخربوا العاصمة، ودكوا معالم الهيكل، وأجلوا السكان إلى بابل.

٤ - دور الرجعة إلى موطنهم.. كان رجوعهم إلى فلسطين على يد الفرس، وقد انصب حماسهم في إعادة بناء الهيكل .. وفي هذه

الفترة وضعت أكثر أسفار التوراة، كما نعدّها حتى يومنا هذا ..
وهذه الفترة كانت فترة نضوج اليهودية الرسمية التقليدية.

٥ - دور وقوعهم تحت الهلينية.. وقعت فلسطين تحت حكم الإغريق
عند أواخر القرن الرابع ق.م.. فنشأت حرب فكرية عقائدية بين
الإغريق واليهود.. وقد اشتدّ العداء واستفحل، فنشبت بينهم
حروب دامية تعرف بحروب المكابيين.. وقرر أنطيوخس
أبيفانس أن يمحو اليهودية من الوجود، فجرد عليهم طيطس
الرومانى عام ٧٠ للميلاد حملة كبيرة، كانت القاضية، فخرّب
الهيكل وأحرقه، وتشتت اليهود من جميع أنحاء المعمورة^(١).

(١) أنيس فريشة : دراسات فى التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٩٠، بيروت، ١٩٨٠،
ص ١٤٩، ١٤٥.

أحداث الدخول

فى الطور الإيلى الإبراهيمى :

تبدأ الأحداث فى الأصل، بنزول إسرائيل (وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم) إلى مصر، بصحبة بنيه من الأسباط الأحد عشر، بعد أن استدعاهم ولده الأثير، السبط الثانى عشر (يوسف عليه السلام)، والذى سبق أن بيع رقيقاً فى مصر، بعد مؤامرة من أشقائه لاستبعاده، كى يخلو لهم وجه أبيهم، وفى مصر تقلبت به الأحوال، حتى انتهى وزيراً لخزانة المصريين.

وتقول التوراة : إن بنى إسرائيل قد قضوا فى مصر ٤٣٠ عاماً، لكنها لا تحدثنا إطلاقاً، عما جرى لبنى إسرائيل هناك طوال تلك السنين، رغم ميلها المعهود إلى التفصيل والتكرار الممل، فقط تبدأ التوراة عاديها، بالشرح والتفصيل والتكرار كدأها، مع ظهور النبى موسى عليه السلام، الذى قدر له أن يقود بنى إسرائيل فى رحلة خروج أو هرب كبرى إلى فلسطين.

ومن المشكلات العَصِيَّة على أى باحث، هو محاولة القطع بشأن الزمن الذى بدأ فيه ظهور القبيلة الإسرائيلية أصلاً، على صفحات التاريخ، مع جدهم البعيد إبراهيم، وإن كان الأقرب للقبول

افتراضاً، هو تواجد النبی إبراهيم عليه السلام خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد، وذلك وفق مقاربات افتراضية، تستند إلى رواية توارثية، تتحدث عن مهاجمة فرعون مصرى لمملكة إسرائيل بعد موت ملكها سليمان مباشرة، وقد ذكرته التوراة باسم (شيشق)، ولأن تاريخ مصر المدون في آثارها، حدثنا عن فرعون باسم (شيشق)، وأنه كان صاحب حملات على بلاد الشام وفلسطين، فقد تم لأول مرة محاولة ضبط التاريخ الإسرائيلي متوافقاً مع التاريخ المصري، وثم التزمين الافتراضى لزمن سليمان، بمطابقته مع زمن شيشق أو (شيشق) الذى عاش حوالى ١٠٠٠ ق.م. وعليه فقد وضعت خطة ترتب الأزمنة والأحداث والشخصيات التاريخية الهامة، ارتجاعياً، بدءاً من زمن شيشق وسليمان، وفق سياق افتراضى يصل فى النهاية إلى زمن النبی إبراهيم عليه السلام.

وإن الأحداث التى تتعلق بحدثى الدخول والخروج، يمكن تقسيمها بين مرحلتين أو طورين، هما الطور الإيلى الإبراهيمى، وخلاله تم حدث الدخول، ثم الطور الثانى اليهودى أو الموسوي وخلاله ثم حدث الخروج، وعليه فإن أحداث الدخول، هى تلك التى تبدأ بزمن النبی إبراهيم، وتنتهى بظهور النبی موسى على صفحة الأحداث، حيث يبدأ بعد ذلك حدث الخروج.

ويتضح من رواية التوراة (الكتاب المقدس)، أن تلك الجماعة قد عاشت هذا الطور في حالة من التبدى والارتحال الدائمين، وكان إبراهيم عليه السلام راعياً للمواشى، كذلك كان أبناؤه هبوطاً من إسحق إلى يعقوب، وهو ما يتضح في قول يوسف عندما استقبل أخوته بمصر .. ثم قال يوسف لأخوته ولبيت أبيه : أصدق وأخبر الفرعون وأقول له : أخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليّ، والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا أهل مواشى، وقد جاءوا بغنمهم وبقروهم وكل مالهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم، أن تقولوا : عبيدك أهل مواشى منذ صبا إلى الآن، نحن وآباؤنا جميعاً، لكي تسكنوا أرض جاسان، لأن كل راعي غنم رجس للمصريين تكوين ٤٦ : ٣١ - ٣٢ .»

لكن ثمة إشارات غامضة في مصر ما بين يوسف وموسى، غلب عليها حكاية الاضطهاد، لكن عملهم قبل ذلك أيام فرعون يوسف كان رعاية مواشى الفرعون، أو كما جاء بالكتاب المقدس «فكلم فرعون يوسف قائلاً: أبوك وأخوتك جاءوا إليك أرض مصر، قدامك في أفضل أرض أسكن أباك وأخوتك، ليسكنوا في أرض جاسان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذو وقدره، فاجعلهم رؤساء مواش على التي لى - تكوين ٤٧ : ٦،٥ .»

هذا إضافة إلى ما يظهره السرد التوراتي لحياة إبراهيم ونسله في أرض كنعان، وأنها كانت ارتحالاً دائماً وراء الكلا، حيث تجد النعمة السائدة "ثم ارتحل إبراهيم ارتحالاً متوالياً - تكوين ١٢ : ١٩"، دونما استقرار، فلم يعرفوا سكن البيوت، بل سكنوا في خيام متنقلة، وعادة ما كان الرب يظهر لإبراهيم وهو يقضى القيلولة أمام خيمته "وظهر له الرب عند بلوطات ممراً، وهو جالس في باب الخيمة، وقت حر النهار - تكوين ١٨ : ١٥".

ومن الطبيعي أن يستتبع العمل بالرعى هجرات متعددة وراء العشب، وحسب حال الطبيعة من جود أو شح، لذلك كان نزولهم مصر في عهد إبراهيم، وفي عهد يوسف بن يعقوب، وعادة ما كان يسبق تلك الحركة المهاجرة الإشارة إلى نزول جوع بالأرض "وحدث جوع في الأرض، فأنحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك - تكوين ١٢ : ١٠"، وكان الجوع على وجه كل الأرض ... فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال يعقوب لبنيه: لماذا تنتظرون بعضكم إلى بعض؟ وقال: إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر، انزلوا إلى هناك - تكوين ٤١ : ٥٦، ٤٢ : ١، ٢".

ويبدو من عدة شواهد أخرى، أن أهم مظاهر ثروتهم التي تمثلت في الأنعام، كانت ثروات عائلية لافردية، ولا قبلية، إنما كانت ملكية عائلية أسرية، فنجد أن لوطاً ابن أخى إبراهيم، له ولأسرته أملاكها من المواشى، ولإبراهيم وأسرته أملاكاً أخرى تخصصهم، كذلك الأمر مع أبنائه، بينما كانت أراضي المراعى وآبار المياه ملكية جماعية مشاعية، لكن دون ثبات أو دوام، فكانت المراعى تتعرض للجفاف، والآبار للنضوب، فتتنقل القبلية مع مواشيتها، كما حدث في حال نزولهم إلى مصر، أو في حال استيلائهم على أرض فلسطين، ولم تكن الفروق كبيرة في ذلك العهد بين ثروات أسر تلك القبيلة، ولا بين ثروات الأفراد، إلا في حالات طارئة تزيد فيها الثروة لأسباب أخرى، وهو مثيل ماروته التوراة حول نزول النبی إبراهيم إلى مصر، وما حدث عندما أخذ الفرعون سارة زوجته، «فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال.. فصعد إبراهيم من مصر.. وكان إبرام غنياً جداً في المواشى والفضة والذهب - تكوين ١٢ : ١٦، ١٣ : ١، ٢. - وهو زعم سبق لكثير من الكتاب تناوله وتقنيده، ولا يعيننا منه سوى دلالة غنى أصاب بعض رهط إسرائيل في مصر، أما النبی إبراهيم فلا شك يرادنا في كونه نبياً جليلاً، يترفع ويتنزه عن مثل تلك المزاعم.

وطوال تلك السطور، نجد التوراة تؤكد وتقرر أن « إيل إله إسرائيل - تكوين ٢٣ : ٢٠ »، وقد ظل (إيل) هو الإله الذى يتردد ذكره طوال الحقبة الممتدة ما بين إبراهيم وموسى، أى بطول سفر التكوين كاملاً، عدا حالات يذكر فيها الإله الموسوى (يهوه) قبل ظهور موسى، بديلاً عن (إيل)، بداخل سفر التكوين، ومعلوم لدى الدارسين أن ذلك لا يعنى معرفة العهد الإبراهيمى للإله (يهوه)، إنما نعرف أن ذلك كان ناتج إدماج روايتين داخل سفر التكوين، رواية كتبها من نعرفه اصطلاحاً بالكاتب الإيلى، وروايته هى الغالبة فى سفر التكوين، ورواية كتبها من نعرفه اصطلاحاً بالكاتب اليهودى، لكن ما لا يجب أن يفوت القارئ هنا، أن الكلمة (إيل) كانت تأتى فى حالات كثيرة فى صيغة الجمع (إلوهيم) أى الآلهة.

والإله (إيل) فى رواية التوراة، هو الإله الذى يرتبط بمشروع البطارقة للاستيلاء على أرض كنعان، بعد هجرتهم من موطنهم الأصلي - وللأبد - إلى فلسطين. وهنا لا نستطيع مجاملة الأحداث أو التاريخ، فقصة المشروع الإبراهيمى للاستيلاء على فلسطين قصة مقدسة، ولا عبرة بتاريخ إنسانى لم يدونها أو يعرف شيئاً عنها، وقد اعتمدت علاقة الإله (إيل) بالمشروع الاستيطانى على قصة توراتية مقدسة، تؤكد أنه الإله الذى أخرجه من مدينة (أور الكلدانيين) موطنه

الأصلى البعيد، وهو الإله الذى اختار له أرض كنعان ومنحه إياها ولنسله من بعده وإلى أبد أبدين، وتتكرر صيغة هذا الميثاق فى أكثر من موضع بسفر التكوين، وقد جاءت على الترتيب فى عهد النبى إبراهيم كالاتى :

وقال الرب لإبرام : أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك، إلى الأرض التى أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك، وأعظم اسمك وتكون بركة، وأبارك مباركك، ولاعنك ألعنه

تكوين ١٢ : ١ - ٣.

وبعد هبوطه أرض كنعان :

ظهر الرب لإبراهيم وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض
تكوين ١٢ : ٧.
إرفع عينيك وانظر من هذا الموضع الذى أنت فيه، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها لنسلك للأبد، وأجعل نسلك كثراب الأرض

تكوين ١٣ : ١٤ - ١٦.

فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً :

لنسلك أعطى هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر
الكبير نهر الفرات، القينيين والقنزيين والقدمونيين
والحيثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين
والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين

تكوين ١٥ : ١٨ - ٢١.

وأقيم عهدى بينى وبينك، وبين نسلك من بعدك فى
أجيالهم، عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من
بعدك، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك،
أرض كنعان، ملكاً أبدياً، وأكون إلههم

تكوين ١٧ : ٧ - ٨.

والمتابع للقصة التوراتية عن الإله (إيل) والنبى (إبراهيم)، يجد
نفسه إزاء أسرة صغيرة متواضعة، تتكون من أفرد يعدون على
أصابع اليد (إبراهيم وسارة ولديه إسماعيل ثم إسحق، وأسرة ابن
أخيه لوط التى تتكون فقط من زوجة وبننتين وللتدقيق نجد الوعد قد
اقتصر فقط على إبراهيم وولده اسحق، رجل وزوجته، جاءوا أغراباً
لينزلوا أرضاً غريبة (أرض غربتهم بتعبير التوراة)، فيمنحهم
(إيل) كل الأرض، ليس قطعة فيها، ولا قرية، ولا حتى مدينة، إنما
كل البلاد والممالك الواقعة ما بين نهر مصر وبين نهر الفرات، رغم
سكانها الذين عمروها من ألوف السنين، وتم تعدادهم فى نص الوعد

(القنبيين ، والقنزيين، والقدمونيين، والحيثيين، والفرزيين، والرفائيين، والأموريين، والكنعانيين، والجرجاشيين، واليبوسيين)، والواضح في رواية سفر التكوين، أن تلك الشعوب قد قطعت شوطاً عظيماً في سلم التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكونت عدداً من الممالك المستقرة، وجاء ذكر بعضها في الإصحاح الرابع عشر وغيره، مثل مملكة جرار، ومملكة سدوم، ومملكة عمورة، ومملكة أدمة، ومملكة صبويم، ومملكة بالع، ومملكة عمون، ومملكة موآب، ومملكة شاليم، وقد ورد ذكر تلك المملكة الأخيرة مع اسم ملكها بصيغة (ملكى صادق) أو الملك صادق، كما جاء مع مملكة جرار اسم ملكها الفلسطيني (أبيمالك)، كل هذا تعج به الأرض، بينما كان إبراهيم مجرد راع غريب بسيط، صاحب مواشى، وعليه فلا مندوحة في افتراض أن كاتب هذا الجزء من التوراة، الذي كتب بعد زمن النبي إبراهيم بقرون طويلة، قد كتبه بعد أن وصل الإسرائيليون لدرجة من الاقتدار تسمح لهم بهذا الطموح، فتمت ترجمة ذلك الطموح إلى اللغة القدسية، بإعادة القرار بالاستيلاء على فلسطين، إلى علاقة قدسية بالرب (إيل)، والمسألة بذلك تصبح قدراً مقدساً وإلهياً، لا مجال للاعتراض عليه، بحيث تم منح الأرض بأثر رجعى للسلف البعيد إبراهيم، بينما لم يكن قد أنجب أصلاً. مع وعد آخر بأن ذلك النسل سيكون أعظم الأمم، ومن هنا تم ترمين الرواية بزمن النبي إبراهيم لتكتسب قدسية التقادم، وإعمالاً للمبدأ القانوني القائل بوضع اليد المدة

الطويلة المكسبة للملكية، والذي يبدو أنه اليوم ليس سوى توارثاً عن قواعد تلك الأزمان.

وكان المقابل الذى طالبه (إيل) مقابل هذه العطية العظيمة، التى يتم فيها سلب الأرض من أصحابها لصالح القبيلة المغتربة، هو أن يتم الاعتراف به إلهاً للقبيلة، دون الآلهة الأخرى، وكان لابد من توثيق العهد وإشهاره، ليكون التوثيق شاهداً على مر السنين أمام جميع الشعوب منعاً للنزاع، وكان التوثيق هو أن يضع إبراهيم ونسلة علامة الميثاق الشاهدة لتذكر الأحفاد، فى علامة مميزة هى (الختان)، وذلك نصاً « هذا هو عهدى الذى تحفظون بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن كل ذكر منكم، فتختتنون فى لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بينى وبينكم - تكوين ١٧ : ٩ - ١١ ».

أما الغريب فى كل تلك الحكاية، أن الإله (إيل)، الذى منح الغرباء أرض فلسطين، كان إلهاً كنعانياً فلسطينياً أصيلاً فى المنطقة، وفى النصوص يمكنك أن ترى ما يشير إلى أن (إيل) كان غير معروف لإبراهيم عند هبوطه البلاد، وذلك من قبيل القول : وظهر الرب لإبراهيم وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للإله الذى ظهر له - تكوين ١٢ : ٧ «، فالرب هنا غفلاً من التعريف أو المعرفة، فهو رب بين أرباب. لكنه يتميز عنهم بأنه هو « الذى

ظهر له « لذلك قام ذلك الرب يقدم نفسه بالتعريف إلى إبراهيم قائلاً :
 « أنا إله بيت إيل - تكوين - ٣١ : ١٣ »، ومعلوم أن (بيت إيل) مدينة
 كنعانية مقدسة منذ القدم، وقد دلت الكشف الأركيولوجية الحديثة
 على انتشار عبادة (إيل) على نطاق واسع بحسبانه كبير الآلهة، في
 مناطق الشعوب السامية، في بلاد كنعان والشام جميعاً، والرافدين
 وجزيرة العرب وبخاصة جنوبها، بل أنك تلاحظ ملحوظة على جانب
 عظيم من الأهمية سبقت الإشارة إليها، وهو أنه عند هبوط إبراهيم
 وعائلته أرض كنعان، يهجر لغته الأصلية الآرامية، إلى لغة
 الكنعانيين أهل البلاد، أو شفة كنعان بتعبير التوراة.

وقد ظل (إيل) مصاحباً للنسل الإبراهيمي، فالإله ينسب (سمع
 إيل) أو (إسماعيل) ابن إبراهيم الأكبر، والذي تم استبعاده من التركة
 لأنه ابن جارية مصرية (!؟) وكان (إيل) هو الذى بشر سارة بأبنها
 إسحق، الذى أنجب ولدين هما (عيسو) و (يعقوب)، وتم استبعاد
 عيسو بدوره من الميراث لتبقى التركة خالصة ليعقوب، الذى كان
 على علاقة متميزة بالإله إيل، فقد ظهر له عدة مرات كان أهمها
 وأشدّها حسماً، اللقاء الذى تم فيه اختبار قوة يعقوب بمصارعته
 جسدياً، وتبديل اسمه من يعقوب إلى (إسرائيل)، ومن ثم أعاد (إيل)
 تأكيد الوعد الموثق بقوله ليعقوب : « أنا الرب إله إبراهيم أبائك وإله

إسحق، والأرض التي أنت مضطجع عليها لك ولنسلك ويكون
نسلك كتراب الأرض، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً - تكوين -
٢٨ : ١٣، ١٤. وبهذا استمر الوعد لإسرائيل (يعقوب) وبنيه
الأسباط الإثني عشر (رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، نفتالى، جاد،
أشير، يساكر، زبولون، بنيامين، يوسف)، الذين هبطوا مصر،
وعاشوا هناك زمناً كان كفيلاً بنسيان (إيل)، وربما عبدوا هناك آلهة
المصريين، ولما جاءهم موسى عليه السلام بعبادة الإله الجديد (يهوه)
من بلاد (مديان)، وأخبرهم أنه إله أجدادهم الذى كان يعبد فى كنعان،
لم يجدوا غصاضة فى قبوله على الفور، دون تمحيص أو تشكك
أو حتى محاولة للتأكد.

وبعد ذلك، تنقلنا التوراة نقلة أخرى، إلى أحداث أخرى، تبدأ
بقصة تفضيل يعقوب لولده يوسف، مما أثار حقدهم وموجدتهم،
وبحيث لجأوا إلى مؤامرة للتخلص منه، وهنا محاولة تصفية أخرى
تقوم بها التوراة لصالح قبيلة (راحيل) أى قبيلة يوسف، عن قبائل
الأسباط الأخرى، لكنها هنا يبدو قد اصطدمت بواقع تحالف مجموعة
القبائل التى شكلت ما يسمى بالجماعة الإسرائيلية، ولم يكن هناك
مناص من قبولهم واستبقائهم، خاصة أن النبى الآتى (موسى) لن
يكون من سبط يوسف، إنما من سبط لاوى.

وهكذا، بدأ الدخول بيوسف بن إسرائيل الجميل، صاحب الأحلام، تلك الأحلام إلى أزعت إخوته بشدة، ورأى فيها يوسف إخوته (رمزاً) مع والديه يسجدون له، حتى قالوا له : « ألعك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً - تكوين - ٣٧ : ٨ »، لكن سير أحداث القصة بعد ذلك، يشير إلى أن أحلام الصبي قد تحققت بحذافيرها، وأن يوسف سيصير في عشرين، وأن أهله سيسجدون له فعلاً، لكن في بلاد النيل، حيث تتابع الرواية سردها للأحداث فتقول:

وأما يوسف، فأُنزل إلى مصر، واشتراه فوطيفار، خصي فرعون رئيس الشرطة، رجل مصرى، من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه هناك، وكان الرب مع يوسف، فكان رجلاً ناجحاً، وكان في بيت سيده المصري.. فوجد يوسف نعمة في عينه، وخدمه، فوكله على بيته، ودفع إلى يده كل ما كان له، .. والرب بارك بيت المصري بسبب يوسف..

ثم فجأة، وبلا مناسبة، تقول الرواية المقدسة : « وكان يوسف حسن الصورة، وحسن المنظر »، توطئة للتعريف بنساء المصريين، فإن « امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف، وقالت اضطجع معي، فأبى »، واستمر يوسف يتأبى على سيدة القصر حتى كان يوم « أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت، فأمسكته بثوبه قائلة : اضطجع معي، فترك ثوبه في

يدها وهرب «، فما كان من المرأة التى شبقت بالاشتھاء إلا أن «نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة : انظروا، قد أتى إلينا برجل عبرانى ليداعبنا، دخل إلى ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخ أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج - التكوين - ٣٩ .»

وبغض النظر عن الثغرات فى إخراج الدراما والتى ملأتها الرواية القرآنية بأنه بدوره قد (هم بها)، والتناقض ما بين خلو البيت تماماً «لم يكن إنسان من أهل البيت هناك»، وبين صرخة واحدة فإذا أهل الدار كلهم إلى غرفتها محضرين، فإن مآل يوسف الحتمى كان السجن، وهو حكم لا شك يهون مقارناً بمواقف بنى إسرائيل من قضايا مشابهة كان القضاء المبرم فيها هو الإعدام، دون تثبيت من صحة الواقعة بالبراءة أو ثبوت التهمة، فكان قرار سيد الدار المصرى مقابل مثيله لدى بنى إسرائيل قراراً يتسم بالحيلة مشفوعة بالرحمة مغلفة برغبة فى التغطية على فضحية، كان يمكن أن تفشو - وقد فشلت - لو تحدث عنها (يوسف) مع رفاق سجنه.

واستمر يوسف فى علاقته الحميمة بالأحلام وهو رهين حبسه، ولكنه هذه المرة لم يكن حالماً، إنما مفسراً للأحلام، وصدق تفسيره لأحلام رفاق السجن، وتنبأ لأحدهم - وهو ساقى الفرعون - أنه سيبرأ،

ويتنبأ مكانه مرة أخرى بعد ثلاثة أيام من رؤياه، بينما تنبأ الآخرين بمصير سيء بالإعدام، وهو ما يشير إلى لون من المحاكمات القضائية المقننة، فتبرئ وتجازى وفق قواعد محددة، وكان ما قاله يوسف محققاً في الواقع.

ثم تأتي الرواية المشهورة عن حلم فرعون بالبقرات السبع العجاف، تأكل السبع السمان، والسنابل الملفوحة بالريح الشرقية، تلتهم السنابل السمينة الممتلئة، وعندما يطلب الفرعون المفسرين، يتذكر الساقى (يوسف) كأعظم مفسر للأحلام، فيخبر الفرعون، فيحضرون إلى البلاط، ويتقدم يوسف بتفسيره لسيد مصر:

فقال يوسف لفرعون : حلم فرعون واحد، قد أخبر الله فرعون بما هو صانع، البقرات السبع هي سبع سنين، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين .. هوذا سبع سنين قادمة شعباً عظيماً في أرض مصر، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً.

ثم يوجه يوسف النصيحة للفرعون :

فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً، وحكيماً يجعله على أرض مصر في سبع سنين الشبع.. ويأخذ خمس غلة الأرض.. فيجمعون جميع طعام هذه

السنين الجيدة القادمة، ويخزنون قمحاً تحت يد
فرعون.. فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع
سنى الجوع.

وكانت نتيجة موهبة يوسف الفريدة فى تفسير الأحلام أن
قدرت له تحقيق أحلامه هو بعد ذلك، وهو ما سجلته رواية المقدس
فى قولها :

فحسن الكلام فى عيسى فرعون، وفى عيون جميع
عبيده، فقال فرعون لعبيده: هل نجد مثل هذا رجلاً
فيه روح الله؟ ثم قال فرعون ليوسف: بعدما أعلمك
الله كل هذا، ليس بصير وحكيم مثلك، أنت تكون
على بيتى، وعلى فمك يقبل جميع شعبى، إلا أن
الكرسى أكون فيه أعظم منك، ثم قال فرعون
ليوسف: أنظر، قد جعلتك على كل أرض مصر،
وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف،..
وأركبه فى مركبته الثانية، ونادوا أمامه: اركعوا.
وقال فرعون ليوسف.. بدونك لا يرفع إنسان يده ولا
رجله فى كل أرض مصر، ودعا فرعون يوسف
صفنات فعنيح، وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع
كاهن أون زوجة.. تكون ٤١.

وكان تولى يوسف أمر خزانة مصر وشؤونها الاقتصادية، مدعاة لدخول تغييرات جوهرية على الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية المعمول بها في البلاد، فبعد أن كان الناس أحراراً، ليس لملكهم عليهم سوى سلطان مركزية الدولة، وبعد أن كانوا يملكون أراضيهم وغلالهم أحراراً فيها، « إشتري يوسف كل أرض مصر لفرعون إذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون، أما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى مصر إلى أقصاه.. فقال يوسف للشعب : إني اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون، هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض، ويكون عند الغلة أنكم تعطون خمساً لفرعون.. فقالوا : أحبيبتنا، ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي، فنكون عبيداً لفرعون، فجعلها يوسف فرضاً على أرض مصر إلى هذا اليوم - تكوين ٤٨ : ٢٠ - ٢٦ »، وكان من المفهوم كيف تحول بعد ذلك فرعون مصر أو الفراعين عموماً، وبعدما كان الفرعون يشهد لله، وبأن الإله هذا هو الذي يمنح العبد علمه « بعدما أعلمك الله كل هذا »، فامتلك الفرعون الناس والأرض، تغيرت الأحوال، من سلطان محكوم بالقواعد، إلى سلطان مطلق النفوذ، يدعى الألوهية فيما بعد، وهو أمر يترتب على رواية التوراة، وإن كان التوراة لا يبنى على حقائق التاريخ.

أما كيف تحققت أحلام الصبى بعد اليفوع، وكيف سجد له
الأحد عشر كوكباً، فهو ما تخبرنا به رواية المقدس، التى تؤكد أن
الجوع لم يكن فى مصر وحدها، والتى أمنت على نفسها بالحكمة
اليوسفية، إنما كان الجوع شاملاً، فقد حل القحط بيعقوب وبنيه فى
بداوتهم، وحل بهم الشطف فى سنى المجاعة السبعة « فلما رأى
يعقوب أنه يوجد قمح فى مصر، قال يعقوب لبنيه - إنى قد سمعت أنه
يوجد قمح فى مصر، إنزلوا هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا
ولا نموت، فاتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا، لأن الجوع كان
فى أرض كنعان - التكوين ٤٢ ».

وبنزولهم مصر كان اللقاء مع سيد الخزانة، ثم التعارف، ثم
إعلان يوسف لإخوته الذين بغوا عليه صغيراً « أنا يوسف، أحنّ أبى
بعد؟.. أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر.. فالآن ليس أنتم
أرسلتمونى إلى هنا، بل الله، وهو جعلنى أباً لفرعون وسيداً لكل بيته
ومتسلطاً على كل أرض مصر، أسرعوا وأصعدوا إلى أبى، وقولوا
له هكذا يقول ابنك يوسف: قد جعلنى الله سيداً لكل مصر، إنزل إلى
فتسكن فى أرض جاسان وتكون قريباً منى.. وقال فرعون ليوسف قل
لإخوتك.. خذوا أبائكم وبيوتكم وتعالوا إلى فأعطيكم خيرات أرض
مصر، وتأكلوا دسم الأرض.. ولا تحزن عيونك على أثاثكم، لأن

خيرات جميع أرض مصر لكم - تكوين ٤٥ "، " وكانت جميع نفوس بيت يعقوب التى أتت إلى مصر سبعون، " فاسكن يوسف " أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر، فى أفضل الأرض، فى أرض رعمسيس، كما أمر فرعون - تكوين ٤٧ ".

وفى مصر، أنجب يوسف من زوجته المصرية (أسنات) ولديه " منسى وإفرايم - تكوين ٤١ "، وبعد زمن مات يعقوب " وأمر يوسف عبده الأطباء أن يحنطوا أباه، فحنط الأطباء إسرائيل، وكمل له أربعون يوماً، لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين وبكى عليه المصريون سبعين يوماً - تكوين ٥٠ ".

وعاش يوسف مئة وعشر سنين " وقال يوسف لإخوته : أنا أموت، لكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب، واستحلف يوسف بنى إسرائيل قائلاً : الله سيفتقدكم، فتصعدون عظامى من هنا، ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين، فحنطوه ووضعوه فى تابوت فى مصر - تكوين ٥٠ " . وبموت يوسف ينتهى الطور الإبراهيمى المرتبط بالإله الأكبر (إيل).

وهنا ملحوظات سبق أن نبهنا إليها، لأنها أثارت بعد ذلك عدداً من الإشكاليات، ففي قصة التوراة نجد ذكراً لأسماء مصرية مثل (فوطى فارع)، وهو اسم مركب يدخل فيه اسم إله الشمس المصرى الأكبر (رع)، كذلك نعلم من الرواية أن (فوطى فارع) كان كاهناً لمدينة (أون) كذلك يرد اسم مدينة (رعمسيس)، ومثل تلك الإشارات أضفى على رواية التوراة بعض المصادقية، ويشير إلى معرفة واضحة للنص التوراتى لمصر فى عهدها القديم، أو على الأقل معرفة كاتب ذلك الجزء من التوراة بمصر فى عصرها الذهبى، وهى الإشارات التى أدت بنا فى بحث بين أيدينا الآن (النبى موسى...) مع إشارات أخرى كثيرة، إلى تأكدنا اليقين من دخول بنى إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها، دون أى شك فى ارتكابنا خطأ علمى بهذا اليقين.

والمسألة بالطبع، ولا تخاذ ذلك الموقف، لم تكن بالبساطة التى فى عجالتنا هنا، حيث كانت الإشكاليات شديدة التعقيد، وكثيفة الروافد والمتشابكات، وربما كان أبرزها وأشدّها إشارة للتضارب بين المدارس البحثية، هو أن التوراة رغم استخدامها اصطلاحات وأسماء مصرية قديمة، وذكرها لعادات مصرية لم تكن على علم بها قبل كشف رموز اللغة القديمة، كطقوس الدفن، وعدد أيام التحنيط، وعدد أيام ندب الميت.. إلخ، فإن التوراة جاءت عند أمور هامة وخطيرة

وتجاوزتها، وبشكل يفصح عن جهل تام ومطبق بها، رغم أنها أكثر المسائل حديةً وفصلاً وقطعاً في أهم نقاط ذلك التاريخ الفاصلة، وذلك مثل عدم ذكرها لاسم فرعون الدخول (فرعون يوسف)، ولا اسم فرعون الخروج (فرعون موسى)، ولا سنة الدخول، ولا عام الخروج، ولا أى علامات يمكن تزمينها وفك دالاتها، رغم اهتمامها بذكر ما هو أقل أهمية بالمقارنة، مثل اسم وزير الشرطة أو كاهن أون وابنته، والأمر كله مرهون بما يمكن أن نصل فيه إلى رأى يمكن الإفصاح عنه عند الانتهاء من البحث فى كتابنا المشار إليه، أو بما يمكن أن ينتهى إليه باحث مجتهد قبلنا.

أحداث الخروج

(فى الطور اليهودى الموسوى):

ينقلنا المقدس التوراتى هنا نقلة أخرى فاصلة ومتميزة تماماً فى مضامينها ودلالاتها وتحولاتها التاريخية والعقدية، بادئاً بالإشارة الهامة « بنو إسرائيل أثمروا وتوالدوا ونموا كثيراً وامتألت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هوذا إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا، ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلّوهم باتّقالهم، فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس خروج ١ : ١ - ١١».

وهكذا نعلم أن فرعون يوسف قد مات، أو انتهى أمره بشكل ما، ليخلفه على العرش فرعون آخر، تحول بنو إسرائيل فى عهده من التكريم والسيادة، وأكل دسم الأرض، إلى التسخير فى طين الأرض، لأن الفرعون الجديد لم يكن يعرف يوسف!!، واستعبدوهم فى بناء مدينتين للمخازن هما (فيثوم) و(رعمسيس)، وكان واضحاً أنه يحمل روحاً عدائية شديدة، وشكاً فى علاقات الإسرائيليين بأعداء البلاد، مع

رغبة واضحة في الانتقام منهم، لأمر غير واضح بالكتاب المقدس، حتى أنه أمر بقتل كل ذكر يولد من بينهم " إن كان ابناً فاقتلاه، وإن كان بنتاً فتحيها.. كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها - خروج ١: ١٦، ٢٢. "

وفي ظل هذه الأزمة ولد (موسى) أشهر رجل في تاريخ بني إسرائيل، وهو (موسى بن عمران بن قهات بن لاوى)، ولاوى هو أحد الأسباط أبناء يعقوب إسرائيل، وذلك يعنى أن موسى هو النسل الرابع ليعقوب، وقد انجبه عمران بزواجه من عمته (يوكابد)، وأنجب منها أيضاً هارون أخيه الأكبر، وشقيقتهم مريم - خروج ٦: ١٤ - ٢٠، ورغم أن التوراة تؤكد لنا مسألة قتل ذكور الإسرائيليين من أطفال، فإنها لم توضح لنا كيف نجى هارون من هذا المصير، وإن فصلت أمر نجاة موسى، حيث وضعت أمه في سفط من البردى على حافة النهر، خوفاً عليه من القتل، وعثرت عليه ابنة فرعون، فرقت له رغم علمها أنه طفل إسرائيلي وتينته، وأرسلته مع أمه كمرضعة له بالأجر، "ولما كبر الود جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابناً، ودعت اسمه موسى، وقالت إنى انتشلته من الماء - خروج ٢: ١٠. "

وقد تعامل (سيجموند فرويد) مع اسم (موسى) كما تعامل جيمس هنرى برستد، وأكد أنه اسم مصرى، وأنه بالترجمة الدقيقة يجب نطقه صحيحاً (مس)، ومن ثم افترضوا أنه كان يسبقه اسم إله مصرى، باعتبار (مس) فى المصرية القديمة تعنى (يلد) أو (أنجب) غراراً على أسماء مثل (تحوت مس) أى الإله تحوت أنجب ولداً، و (رع مس) أى إله الشمس أنجب ولداً، و (أح مس) أى إله القمر أنجب ولداً، لكن من جانبنا نرى ترجمة (موسى) بهذا الشكل متسرعة وغير دقيقة، ولو دققنا النظر فى رواية التوراة، سنجد القول " ودعت اسمه موسى قائلة: إنى انتشلته من الماء " لا يحتاج إلى تخريجات، لأن (الماء) باللسان المصرى القديم (مو)^(١)، وبذات اللسان نجد (سا) تعنى (ابن)^(٢)، والإسم هنا ملصق من مقطعين ويفيد معناه (ابن الماء)، وهو اسم يتناسب مع الموقف حيث وجدته ابنة الفرعون فى سفطه على سطح الماء، ولم تجد اسماً يناسبه — وهى لا تعلم له نسباً — سوى تلك التسمية البليغة، وهى بدورها تسمية مصرية قحة.

ونتابع الأحداث مع رواية التوراة فنقول :

(١) أنطون ذكرى : مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع خطوطها وأهم إشارات، د.ت، د.ن، ص ٨٣ (الكتاب تعليمى للهيروغليفية، ولا علاقة له بقصة النبى موسى).

(٢) نفسه : ص ٨٢.

وحدث فى تلك الأيام، لما كبر موسى، أنه خرج إلى
 إخوته لينظر فى انتقالهم، فرأى رجلاً مصرى يضرب
 رجلاً عبرانياً من إخوته، فالتفت إلى هنا وهناك،
 ورأى أن ليس أحد، فقتل المصرى وطمره فى
 الرمل، ثم خرج فى اليوم الثانى، وإذا رجلان
 عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب
 صاحبك؟ فقال: من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟
 أمفكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى؟ فخاف موسى
 وقال: حقاً قد عُرِف الأمر، فسمع فرعون هذا الأمر
 فطلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من وجه
 فرعون، وسكن فى أرض مديان، وجلس عند البئر،
 وكان لكاهن مديان سبع بنات، فأتين واستقين وملأن
 الأجران ليسقين غنم أبيهن، فأتى الرعاة وطردوهن،
 فنهض موسى وانجدهن وسقى غنمهن، فلما أتتا إلى
 رعوئيل أبيهن قال: ما بالكن أسرعتن فى المجئ
 اليوم؟ فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدي الرعاة،
 وأنه استقى لنا أيضاً، وسقى الغنم، فقال لبناته: وأين
 هو؟ لماذا تركتن الرجل؟ إدعونه ليأكل طعاماً،
 فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى
 صفرة ابنته

خروج ٢ : ١٦ - ٢١

وفى مديان يأتى الحدث الأهم والجديد، فى شؤون العقيدة الإسرائيلية، حيث يظهر لبنى إسرائيل إله جديد، يلتقى بموسى فى مديان وهو يرعى غنم حميه (رعوئيل) أو (يثرון)، وذلك فى رواية المقدس :

وأما موسى فكان يرعى غنم يثرון حميه كاهن مديان، فساق الغنم إلى ما وراء البرية، وجاء إلى جبال الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة، فنظروا وإذا العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق.. ناداه الله من وسط العليقة وقال : .. اخلع حذائك من رجليك، لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة، ثم قال : أنا إله أبائك، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب.. إنى قد رايت مذلة شعبى الذى فى مصر.. فنزلت لأنقذهم من ايدى المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوبيين واليبوسيين.. فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر..

فقال موسى لله: ها انا اتى إلى بنى إسرائيل، وأقول لهم: إله آبائكم أرسلنى إليكم، فإذا قالوا لى ما أسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: إلهه الذى إلهيه، وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل: إلهه أرسلنى إليكم وقال الله أيضاً لموسى: هكذا تقول لبنى إسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم، هذا اسمى إلى الأبد

خروج ٣ : ١ - ١٥ .

قل لبنى إسرائيل أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أنقال المصريين وانقذكم من عبوديتهم، وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة، واتخذكم لى شعباً، وأكون لكم إلهاً

خروج ٦ : ٦، ٧ .

وهكذا التقى موسى الإله (إلهيه) أو (يهوه)، وفى موضع آخر بالمقدس يأتى اسمه (ياه) أنظر (مزامير - ٤٨)، ويلاحظ أن كاتب هذا الجزء، يصر على أن هذا الإله كان إلهاً لإبراهيم وإسحق ويعقوب، إصراراً لا يبرره إلا محاولة تثبيت أمر جديد بإلقائه فى القديم، ولا يلتقى مع عدم معرفة بنى إسرائيل بمصر لهذا الإله

أو اسمه، مع استعدادهم بحكم تعاملهم في مصر مع آلهة عديدة لقبول الإله الجديد، فقط سيكون التساؤل عن اسمه (!؟)، ناهيك عن كونه لا يلتقى إطلاقاً ولا حتى فونيطيقياً بالإله (إيل)، لذلك نجد موسى يتشكك في إمكان قبول بنى إسرائيل لذلك الإله في قوله ليهوه : "ولكن، هاهم لا يصدقوننى ولا يسمعون لقولى - خروج ٤ : ١"، فيعطيه يهوه دلائل إقناع إعجازية لم تظهر من قبل مع (إيل)، "فقال له الرب. ما هذه في يدك ؟ فقال عصا، فقال اطرحها للأرض، فطرحها إلى الأرض فصارت حية، فهرب موسى منها، ثم قال الرب لموسى: مد يدك وأمسك بذنبها، فمد يده وأمسك به فصارت عصا في يده.. ثم قال الرب أيضاً : أدخل يدك في عبك، فأدخل يده في عبه ثم أخرجها، وإذا يده برصاء مثل الثلج، ثم قال له : رد يدك إلى عبك فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هي عادت مثل جسده - خروج ٤ : ٢ ، ٧"، أما الفاصل في شأن يهوه كإله جديد، فيأتى في عبارة ملتوية للكاتب التوراتى تفصح بجلاء في قول يهوه لموسى : "أنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شئ، وأما باسمى يهوه فلم أعرف عندهم - خروج ٦ : ٢، ٣".

ويخبر يهوه كليمه أن الخطر في مصر قد زال عنه "لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك - خروج ٤ : ١٩"، ولما

احتج موسى لربه أنه لن يستطيع مجادلة الفرعون الجديد، فى أمر خروج بنى إسرائيل من مصر، لأنه «تقيل الفم واللسان - خروج ٤ : ١٠»، و «أغلف الشفتين - خروج ٦ : ١٢»، فإنه يدعمه بأخيه هارون ، ويتجه الأخوان للقاء الفرعون الذى لا تحدده الرواية.

« وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالوا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل : أطلق شعبى ليُعبد لى فى البرية، فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق اسرائيل؟ لا أعرف الرب، وإسرائيل لا أطلقه، فقالا له : إله العبرانيين. فنذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية، ونذبح للرب إلهنا، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف، فقال لهما ملك مصر : لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من أعمالهما؟ إذهبا إلى أئقالكما - خروج ٥ : ١ - ٤ ».

وكان رد رب موسى :

الآن تنتظر ما أنا فاعله بفرعون، فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه.. أنا أعطيهم أرض كنعان، أرض غربتهم التى تغربوا منها
خروج ٦ : ١ - ٤.

والواضح هنا محاولة ربط التوراة بين الوعد القديم لإبراهيم من الإله إيل، وبين قبيلة راحيل أو بنى إسرائيل المقيمين بمصر والإله الجديد يهوه، ولا تخفى على لبيب إشارة التوراة التأكيدية المتكررة، أن أرض فلسطين بالنسبة لبنى إسرائيل هي أرض غريبة لا أرضاً أصلية لهم.

ثم تتتالى الأحداث متمثلة فى معجزات متتالية، تفسرها حالة الانتقال البشرى من التعامل مع الطبيعة كآلهة إلى آلهة مفارقة ومنفصلة عن الظواهر، ومن صيغة الأسطورة إلى صيغة الدين، وحيث كان السحر هو منهج الفكر الأسطورى وأداته الفعالة للتعامل مع الظواهر، وحيث أنه ما كان ممكناً للدين أن يبدأ من لا شئ، فقد دخل السحر فى متن أدوات الدين والمنهج الجديد، وذلك قبل أن يتجاوز فيما بعد، ويحاول التخلص منه ويدينه ويستكره، ومن ثم استخدم الدين الطالع ذات الأدوات وذات المناهج السحرية القديمة، فأمر يهوه موسى أن يطرح عصاه أمام فرعون، لإثبات أن يهوه أشد سحراً وأقوى أنراً من سحرة الأساطير ومن الطبيعة، فتحول العصا إلى ثعبان، فيستدعى فرعون مصر حكماء بلاده وسحرتهم فيفعلون الأمر ذاته، لكن السحر الجديد، يتسم بقدرة سترفع الأمر من مجال السحر والأسطورة، إلى مجال السحر والدين، كمرحلة انتقالية بشعائر وطقوس تضع المطلوب كله بيد الرب المفارق المتجرد، لكن تثبتت

البداية الجديدة، تمت بذات الأسلوب القديم، فابتلعت عصا موسى
عِصِيّ المصريين (خروج ٧ : ٩ - ١٢).

ثم يلى ذلك مجموعة من الممارسات السحرية فى ثوب
إعجازى، يبدو صراعاً بين أسلوبين من الحياة، أو بين أدلوجيتين
مختلفتين، بل ومتافرتين، وتتحول العصا (عصا الراعى) إلى أداة
فعالة فى يد النهج الرعوي، لرأب صدع نفسى إزاء أهل الخصب،
تلك الحالة النفسية التى كثيراً ما غدتها حاجة البدو الدائمة للانتجاع
على حدود البلاد المستقرة حول الأنهار، طلباً للقوت، والإغارة فى
أحيان كثيرة على تلك الحدود، لسلب المحصول بعد جمعه، بشكل
دورى سجله لنا التاريخ، ومن هنا يقوم يهوه بتدمير كل مظاهر
الخصب والنماء، فى الضربة الأولى للمصريين:

قال الرب لموسى : قل لهارون : خذ عصاك ومد
يدك على مياه المصريين، وعلى سواقيهم، وعلى
آجامهم، وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً،
فيكون دم من كل أرض مصر فتحول كل الماء
الذى فى النهر دماً، ومات السمك الذى فى النهر
وكان الدم فى كل أرض مصر.. وحفر جميع
المصريين حوالى النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم
لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر

خروج ٧ : ١٩ - ٢٤.

وهكذا ينتقل الصراع إلى تدمير عصب الخصب ممثلاً في
النهر، وتتحول عن كونها محاولة للخروج والتمرد يقودها موسى أمام
فرعون، إلى عقاب جماعى يصيب كل شعب مصر، النقمة هنا
تتحول لكيان المجتمع كله، فتأتى الضربة الثانية من
يهوه لمصر :

ثم قال الرب لموسى: قل لهارون: مد يدك بعصاك
على الأنهار والسواقي والأجام، وأصعد الضفادع
على أرض مصر ... فصعدت الضفادع وغطت
أرض مصر

خروج ٨ : ٥ ، ٦ .

ويتبعها مباشرة بالضربة الثالثة :

ثم قال الرب لموسى قل لهارون: مد عصاك
واضرب تراب مصر ليصير بعوضاً فى جميع
أرض مصر

خروج ٨ : ١٦ .

كذلك تأتي الضربة الرابعة ضربة حشرية بدورها :

قال الرب لموسى : بكر فى الصباح وقف أمام
فرعون، إنه يخرج إلى الماء، وقل له : هكذا يقول
الرب : أطلق الشعب ليعبدونى، فإنه إن كنت
لا تطلق شعبى، ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك
وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان، فتمتلئ بيوت
المصريين، ذباباً.. ولكن أميز فى ذلك اليوم أرض
جاسان حيث شعبى مقيم، حتى لا يكون هناك ذبان،
لكى تعلم أنى أنا الرب فى أرض، وأجعل فرقاً بين
شعبى وشعبك

خروج ٨ : ٢٠ - ٢٤.

ثم ينقل يهوه ضرباته من الحرب الحشرية إلى الحرب
الجرثومية، بدءاً من الضربة الخامسة :

فها يد الرب تكون على مواشيك التى فى الحقل،
على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم، وبأء
ثقبلاً جداً، ويميز الرب بين مواشى إسرائيل ومواشى
المصريين .. فماتت جميع مواشى المصريين، وأما
مواشى بنى إسرائيل فلم يمت منها واحد

خروج ٩ : ٣٠ - ٦.

كذلك جاءت الضربة السادسة جرثومية بيولوجية بدورها:

ثم قال الرب لموسى وهارون : خذ ماء أيديكما من رماد الأتون، وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون، ليصير غباراً على كل أرض مصر، فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر

خروج ٩ : ٨ - ١٠.

وبضربته السابعة، يتحول يهوه نحو الطبيعة مرة أخرى،
ليجعل خيرها نقمة :

ثم قال الرب لموسى : مد يديك نحو السماء ليكون برداً في كل أرض مصر.. فأعطى الرب رعوداً وبرداً، وجرت نار على الأرض، وأمطر الرب برداً على أرض مصر، فكان برداً وناراً متواصلة وسط البرد، شيء عظيم جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر، منذ صارت أمة فضرب كل أرض مصر، جميع ما في الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل، إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل، فلم يكن فيها برد

خروج ٩ : ٢٢ - ٢٦.

ورغم كل ذلك الدمار والهلاك، يظل الفرعون مصرأً على
عدم إطلاق بنى إسرائيل، ويعود يهوهُ إلى الحرب الحشرية، ليقضى
تماماً على بقايا أى أثر للخصب فى أرض مصر، فبعد البرد الذى
قضى على الشجر ونبات الحقل، تأتى الضربة الثامنة فى
أمره لموسى :

مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد، ليصعد
على أرض مصر، ويأكل عشب الأرض، كل ما
تركه البرد، فمد موسى عصاه على أرض مصر،
فجلب الرب على الأرض ريحاً شرقية كل ذلك
النهار وكل الليل، ولما كان الصباح حملت الريح
الشرقية الجراد، فصعد الجراد على كل أرض
مصر، وحل فى جميع تخوم مصر، شئ ثقيل جداً،
لم يكن قبله جراد هكذا مثله، ولا يكون بعده كذلك
وغطى وجه الأرض حتى أظلمت الأرض، وأكل
جميع عشب الأرض، وجميع ثمر الشجر الذى
تركه البرد، حتى لم يبق شئ أخضر فى الشجر
ولا فى عشب الحقل، فى كل أرض مصر

خروج ١٠ : ١٢ - ١٥.

ولم يكتف يهوه بذلك مع إصرار الفرعون على موقفه، فعاد
يقلب ظواهر الطبيعة بضربته التاسعة :

ثم قال الرب لموسى : مد يدك نحو السماء، ليكون
ظلام على أرض مصر، حتى يلمس الظلام، فمد يده
نحو السماء، فكان ظلام دامس في كل أرض مصر،
ثلاثة أيام، لم يبصر أحد أخاه، ولا قام أحد من مكانه
ثلاثة أيام، ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور
في مساكنهم

خروج ١٠ : ٢١ - ٢٣.

وتبقى الضربة العاشرة، والقاضية، التي ستجبر فرعون على
إطلاق شعب الرب، وقبلها يقول لموسى :

ضربة واحدة أيضاً. بعد ذلك يطلقكم من هنا، وعندما
يطلقكم يطردكم طرداً من هنا بالتمام، تكلم في مسامع
الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه، وكل امرأة
من صاحبها، أمتعة فضة وأمتعة ذهب، وأعطى
الرب نعمة للشعب في عيون المصريين
خروج ١١ : ١ - ٣.

هنا نعلم أن الإسرائيليين كانوا يقيمون وسط المصريين، ولا نعلم كيف أصابت كل تلك الضربات المصريين دون الإسرائيليين، لكن الأهم هنا هو إيعاز الرب لموسى بأن الفرعون - مع الضربة القادمة - سيطلق بنى إسرائيل، لذلك كان عليهم رجالاً ونساء أن يطلبوا من أصدقائهم (اصحابهم) المصريين، ذهبهم وفضتهم، مما يشير في جانب آخر إلى مودة من المصريين للغرباء المقيمين بينهم، مما يجعل التساؤل عن ضرب شعب مصر بكل تلك الضربات ومبرراتها سؤالاً مشروعاً، أما أن يأمن المصريون للغربان، ويعطونهم ذهبهم وفضتهم إغارة فذلك يضع أمامنا موقفهم موقفاً نبيلاً، ويدعو للتشكك في قصة تلك الضربات جميعاً من أصلها.

وتأتى الضربة العاشرة، ويهبط يهو به نفسه ليقتل بيده كل بكر من أبناء مصر:

وقال موسى : هكذا يقول الرب : أنى نحو منتصف الليل، أخرج فى وسط مصر، فيموت كل بكر فى أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التى خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم فى كل أرض مصر

خروج ١١ : ٤ - ٦.

ويأمر يهوه شعبه أن يلطخ كل منهم عتبة بيته بدم الخراف،
ليميزوها عن بيوت المصريين، قبل وقوع ضربة قتل الأبقار، أما
السبب فهو كى :

يكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها،
فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة
للهلاك حين أضرب كل ارض مصر - خروج.

وهنا تأكيد آخر للتعشى فى السكنى للإسرائيليين بين
المصريين، أما الأهم، فهو أن يهوه يعلم هنا أنه سيصاب بلوثة القتل،
وأنه لن يميز فى تلك الحال بين بيوت جماعته وبين بيوت
المصريين، إلا إذا رأى دماً على البيوت، تلك الدماء التى ستوعز له
أنه قد أنهى من أمر سكانه وقتل أبقاره، فيعبر عن تلك البيوت
ولا يصيبها، وهو فى حالة التخطيط فى دماء المصريين، وفى تلك
الليلة، حيث « كان صراخ عظيم فى مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه
ميت - خروج ١٢ : ٣٠ » تقرر خروج بنى إسرائيل، دون عزاء
لأصحابهم من مصريين، لكنهم قبل تلك الضربة، التى مارس فيها
يهوه نزوته الدموية :

فعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من
المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهباً، وثياباً، وأعطى
الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى

اعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل إسرائيل
من رعسيس

خروج ١٢ : ٣٥ - ٣٧.

وتأتى الضربة الحادية عشر عندما قام ملك مصر وجيشه
يطارد الهاربين، حتى أدركوهم عند بحر سوف، وهنا كانت
المعجزة الكبرى:

ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح
شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة، وأنشق
الماء، فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على
اليابسة، والماء تنور لهم عن يمينهم وعن يسارهم،
وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم.. فمد موسى يده
على البحر، فرجع البخار عند إقبال الصبح إلى حاله
الدائمة.. فدفع الرب المصريين فى وسط البحر —
خروج ١٤ : ٢٧. (وبعد الخروج) كان الرب يسير
أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق،
وليلاً فى عمود نار ليضى لهم، لكى يمشوا
ليلاً ونهاراً

خروج ١٣ : ١١.

وعلى قصة الخروج تلك، بكل تفاصيلها، أقام الباحث الصهيوني إيمانويل فليكوفسكى عمله الهائل، الذى انتهى فيه إلى تأكيد كل الأحداث التى روتها التوراة، بكل تفاصيل ضربات يهوه ومعجزاته التى صاحبت الخروج، وهو الأمر الذى يرضى الجانب الإيماني ليس فقط عند أصحاب يهوه إنما لدى المسيحيين، بل والمسلمين بدورهم، فهو يشرح لهم عملية إنشقاق البحر وتاريخيته، وما رافقه من قبل ومن بعد، من أحداث كسرت قوانين الطبيعة وقواعد الكون الثابتة، لكنه يأخذ الجميع فى سلة واحدة، بعد تأسيس المقدمات العلمية للقواعد الإيمانية، إلى نتائج لا بد من التسليم بها إذا كانوا متسقين مع إيمانهم ومع أنفسهم، وهى نتائج أبعد ما تكون عن أمانينا الوطنية والقومية، وإذا كان ثمة شرخ أصيل فى الذات، ما بين بعض المقررات الإيمانية التى تتناول بنى إسرائيل، وما بين الأماني الوطنية والقومية، فإن فليكوفسكى لا يفعل شيئاً سوى وضع القواعد الإيمانية على محك العلمية، يثبت صدقها الكامل، ولا يبقى لدى قارئ طيب النوايا سوى الأخذ بالكفة الراجحة إيمانياً، وهو تسليم رسم له فليكوفسكى خطته ببراعة إلى محطة الوصول، بحيث يصادق الجميع من خلال عقائدهم على حق إسرائيل التاريخى، فى التاريخ، وفى الأرض، بل وفى صفتهم كشعب فضله الله على العالمين.

أما نحن، فلا بأس عندنا في البحث عن أسس تلك الأحداث التي روتها التوراة والتي اكتست بثوب الإبهار الإعجازي في التاريخ الإسرائيلي، ولا بأس لدينا، ولا علينا، إن وجدنا لها تبريراً لا يصادم العقائد الثابتة، لكن دون افتئات على حقائق التاريخ وعلمية المنهج، وبغرض وضع ذلك التاريخ وتلك الأحداث في حجمها الصحيح ومقامها الفعلي من التاريخ، وهو ما نسعى وراءه الآن في بحث بين أيدينا، ولا نعتقد أن الانتهاء منه يسير أو حتى قريب، وهو كما أشرنا بعنوان (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة)، ولا نستطيع هنا الإدلاء بشهادات حول الأجزاء التي انتهينا منها، لوضع فرضيات وقرائن نناطح بها فليكوفسكي، فالعمل لازال مشروعاً قابلاً للتعديل كل لحظة، فقط أردنا هنا القول : إنه بالإمكان حل إشكاليات التاريخ الإسرائيلي، ليس بنزوع عنصري، إنما بغرض علمي تاماً، لا يستطيع أحد أن يصادر عليه، وذلك بالتعامل مع الأحداث الإعجازية في ذلك التاريخ، باعتبارها مواداً قابلة للفحص، والإمساك بها، بحيث يمكن ضبطها ضبطاً دقيقاً، يضعها في حجمها، دون إهمال بعضها لصالح بعض، أو تضخيمها لتتحول إلى كتلة ضاغطة على ضميرنا الوطني وحسنا القومي، الذي ربما كان يبحث بعصبية وتوتر، عن مفاضلة قد تجرح بعد المقررات الإيمانية التي لا يصح جرحها، وتصادم في جانب آخر تطلعات وطنية وقومية مشروعة

بدورها ولا يصح التنازل عنها، كالمفاضلة بين شعب مصر القديم وتاريخه العريق وفراعنته، وبين جماعة إسرائيل التي اتسمت بالقداسة وامتلكت أنبياء ومعجزات ثابتة أقرتها الأديان التالية لهم كما حظيت بعلاقة خاصة بالإله، سمحت بمنحهم تلك المنح والأعطيات، أو المفاضلة بين ملوك إسرائيل وجماعتها، وبين ملوك كنعان وشعبها الفلسطيني، وهى المفاضلة التي يمكن أن تؤرق ضمير الوطنى، أو تجرح الحس العقائدى، فى حال لزوم الاختيار ما بين فرعون وموسى، أو المصريين والإسرائيليين، وكذلك ما بين جالوت وداود، أو الفلسطينيين والإسرائيليين، ومن ثم نسير بهدؤ فى بحثنا المشار إليه، دون استعجال قبل تحقق واستبانة، لنقرأ حقائق الأحداث التي جرت على أرض مصر، وتحولت من أحداث مجتمعية وسياسية، وصراعات طبقية وقومية، ورافقتها - ربما - ظواهر طبيعية، إلى ورم هائل يجثم على صدر تاريخ العالم وضميره، لكن ذلك كله شئ، وتأجيل التعامل مع كتاب فليكوفسكى شئ آخر، لا يقبل الإرجاء، وما على قارئنا إلا أن يشمر عن همته، لنتابع معاً تنظيرة بنى إسرائيل التاريخية، وممكانتنا فى التعامل معها، فى بابنا الثالث (التضليل).

الباب الثالث

التضليل

التأسيس

تأسيس - ١ -

ربما سمحت لى علاقة امتدت زمنياً بالتراث القديم للمنطقة أن أجازف بالزعم : أنه إذا كان النبى (موسى) - حسب المأثور التوراتى - هو المؤسس الحقيقى للديانة اليهودية، والعقدة الرابطة للقبائل التى ائتلفت فى كيان كونفودرالى عرف بعد ذلك بشعب اسرائيل، وأنه إذا كان (شاول) و (داود) و (وسليمان) هم أصحاب الفضل فى إقامة أول كيان سياسى مركزى لذلك الشعب، فإن (إيمانويل سيمون فليكوفسكى) هو صاحب أهم وأخطر وأثرى تنظيم تاريخى لما يسمينه هو (القومية الإسرائيلية)، فى كتابه الذى اكتسب شهرة عالمية فى الأوساط العلمية كافة، والموسوم بعنوان (عصور فى فوضى)، والذى انتهى من كتابته فى شهر فبراير من عام ١٩٥٢م^(١).

(١) إيمانويل فليكوفسكى: عصور فى فوضى، عن ترجمة مخطوطة قام بها الطبيب د. رفعت السيد.

ملحوظة : بعد طبع كتابنا هذا طبعة أولى تمكن المترجم رفعت السيد من العثور على دار نشر تقبل نشر مخطوطته، وصدر فعلاً عن دار سينما بالقاهرة سنة ١٩٩٥ .

وقبل قراءتى لذلك الكتاب، والتي جاءت متأخرة، بل ومتأخرة جداً فيما يبدو، قضيت وقتاً أحاول فيه البحث لفهم سر الادعاء الاسرائيلى، بأن أسلافهم الغواير هم بناء أهرام مصر، ومعظم أعلامها الآثارية، وأنهم أصحاب الاصل الرفيع لثقافات المنطقة الشامية منذ فجر التاريخ، ولما لم يهدنى البحث إلى تفسير أى من تلك المعانى، لم أجد سوى أن القوم قد استمروا زهوراً تاريخياً زائفاً، وأن الأمر لا يزيد عن كونه مثل كثير من السذاجات والأساطير والمبالغات المسطورة بكتابتهم المقدس، الذى هو كتاب لتاريخهم فى المقام الأول، حيث اكتست فيه أحداث التاريخ وتلبست بألوان عديدة من المبالغات المغرقة فى الأسطورة، واحتسبت ذلك الادعاء كلون من مغامرات يشوع وشمشون وداود وسليمان، لكنى عندما طالعت (عصور فى فوضى)، أكتشفت أن الأمر جد خطير، وأخطر بكثير من كتابات أسطورية قديمة كانت تلائم بنية التفكير فى عصرها، وأن احتساب دعواهم كبناء وكمادة أساسى لحضارة المنطقة فى عصرها القديم مجرد سذاجة، لهو موقف فى منتهى السذاجة، لأن فى الأمر أمراً، وللاذعاء حيثيات وقرائن وشواهد ودلائل وبراهين، قام على جمعها وتصنيفها بأسلوب عصرنا، وصياغتها بالمنهج العلمى الصارم، رجل من نوع نادر، وباحث من طراز فذ، هو (فليكوفسكى).

ورغم الواضح للوهلة الأولى، أن (عصور فى فوضى) كتاب يخدم غرضاً سياسياً وعنصرياً من ألفه إلى يائه، فإن الأوضح كان قدرة المؤلف على البحث الدؤوب الذى لا يكل، وامتلاكه جلدأ على التقصى المضنى لا يبارى، وسعياً لا يفتر - من أول كلمة خطها إلى الختام - وراء القرائن والبراهين التى تدعم فروضه وطروحاته لتحويلها إلى بناء راسخ القواعد، مع لهائه خلال حقبة زمنية طويلة مكتظة بالأحداث والمتغيرات، وفى مساحة شاسعة من أثرى مساحات العالم القديم بالراسب الثقافى الذى لم يزل فاعلاً إلى اليوم، وبين متغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية تلاحقت فى كافة الاتجاهات، وتركت بصماتها على نقوش ورسوم ودلالات حفريّة، وكتابات ذات طرائق مختلفة باختلاف الأصول اللغوية لمواطن متباينة، مما كان كفيلاً بجعل أى باحث يقبع وسط شرك من خيوط عنكبوتية متشابكة وكثيفة، يحتاج فكها وفحصها - وإعادة نظمها مرتبة - إلى صبر قدرة ووعى نفاذ، وربما كان البحث مع البدء عن طرف الخيط فيها، كان لا يزيدها إلا تشابكاً واضطراباً، وهنا سر عظمة الرجل، الكامن فى هذا القدر العجيب من الصبر، الذى لازمه طوال رحلته مع ذلك الرتل المختل بالأصول، فى سياق قصصى لين سهل، صيغ بلون روايات التحرى المباحثية، مما جعله - فى رأينا - بحق، صاحب أخطر تنظير معاصر لما يسمى القومية الإسرائيلية بحيث لا يتخلف

درجة عن موسى أو سليمان، وذلك بعينه ما جعله (النوتة) الأصلية لكل المعزوفات الصهيونية، التي لم تفعل أكثر من إعادة توزيع المعزوفة حسب المقامات المطلوبة، وهذا - أيضاً - ما جعله صاحب أخطر فكر يشكل قدراً هائلاً من الإقناع، حتى لدى الخصوم السياسيين، بل لدى الخصوم المصيريين، وهذا - أيضاً - ما جعله - بعقد المقارنات - يزيد في تفزيم مؤسساتنا الفكرية، التي لم تقدم على عراقتها وممكناتها عملاً على ذات المستوى، وربما جاز لتلك المؤسسات مراجعة مناهجها وطرائقها وأدواتها، التي أثبت هذا العمل مدى هشاشاتها وهزالها رغم منتجها الكمي الضخم.

ولا يجوز أن يفهم من كلامنا هنا، دعوة إلى رد من النوع ذاته، رد عنصرى أو قومى، فهذا أبعد ما يكون عما نريد، لكن ربما طلبنا عملاً على ذات الدرجة من الأصولية العلمية، وعلى ذات القدر من التمكن من أدوات العلم، والتي تمكن بها (فليكوفسكى) من تطويع مادته التاريخية، لخدمة أغراض أبعد ما تكون عن العلمية. مع رغبتنا فى تسجيل ملحوظة لابد منها فى حالة المقارنة بين عمل مثل (عصور فى فوضى) وبين أعمال أخرى ترحم أرفف مكتباتنا، ولا حول لها ولا قوة إلا بالله طبعاً، وتكاد تأخذنا الريب والظنون بشأن ذلك الرتل من الزحام فى المكتبة العربية، والذي يفصح - بتناوله - عن عمد للطرق السهلة، والابتعاد عن مكامن الإشكاليات الحقيقية فى التاريخ القديم، لما يحتاجه تناولها من جلد وصبر ودأب.

ذلك فى الوقت الذى نؤكد فيه أن (عصور فى فوضى) لا يمكن احتسابه نتائج باحث فرد هو (فليكوفسكى)، فلا ريب يراودنا أنه كان (المايسترو) الذى خطط وقاد ووجه فريقاً من المتخصصين بالمراكز الأكاديمية العالمية، والتى بدون معونتها ودعمها ما كان ممكناً إخراج مثل ذلك العمل.

ولا ريب لدينا أن تلك المؤسسات قد عملت لحساب ذلك العمل، وجمعت له المادة العلمية النادرة من الوثائق القديمة، وبحثت له بين قوالب الأجر وقطع الفخار ونقوش المعابد، وباللغات المسمارية سومرية أو سامية، أكادية أو كنعانية أو حثية أو آرامية أو عبرية، أو خطوط هيروغليفية متناثرة، تجد نصف البردية منها فى نيويورك، والنصف الآخر فى ليننجراد، وقامت على ترجمة كل تلك الوثائق للباحث الفذ، مع إيضاح إمكانات الاحتمال فيها، ما بين صدق نسبتها لعصرها أو لغيره، عبر مقارنات للنص بالعصور من حيث شكل الأسلوب والكتابة والبلاغات وما يحكيه من أحداث، وهل يوافق ذلك العصر الفلانى أم ذاك، مع بيان مواضع الثغرات التى يمكن للرجل أن يتسلل من خلالها لدعم توجهاته، وباختصار قدمت له جهداً كان يحتاج أى باحث آخر لإتمامه، أن يعيش قرنين من الزمان على أدنى تقدير، مما أهله فى النهاية للخروج بسفره هذا، الذى يصح لأصحابه أن يضعوه بفخر فى مقدمة أسفارهم، ليقف منتصباً بين التوراة والتلمود والهجادا والمشنا والمدراس.

وحُكِّمنا هذا، الذى نزع فيه دعم مؤسسات أكاديمية عالمية
 لصاحب هذا العمل، يتأسس على معرفتنا، وبحكم درايتنا، بتلك المادة
 الوثائقية القديمة، وعلمنا اليقيني بالحدود القصوى التى يمكن أن تصل
 إليها قدرات باحث فرد، لإنتاج مثل ذلك العمل، وعلى حكمنا هذا
 نراهن بسمعتنا العلمية. والعمل مطروح على السادة المتخصصين، بل
 وكان موجوداً لديهم من زمن بينما نحن الذين تأخرنا فى إعطائه
 أهمية تجعله جديراً بالقراءة، ولا شك أن بعضهم قد طالعه — مع
 شهرته العالمية. خلال الفترة ما بين ١٩٥٢ وحتى اليوم، ولا شك
 أيضاً أن هؤلاء البعض قد آثروا السلامة، لأنه إذا كان الكلام من
 فضة، فإن مع فليكوفسكى سيكون السكوت من ذهب.

تأسيس - ٢ -

ولأن الباحث كثيراً ما يقابل مدهشات لا يجد لها تفسيراً، فمن الطبيعي أن تقابلنا مثل تلك المدهشات، لكن أشد ما أثار عجبى من بينها، هو دأب الباحثين العرب، فى تنظيراتهم التاريخية للقومية العربية، الإشارة، والإشادة بمملكة عربية قديمة عظمى، بلغت سمات الإمبراطوريات^(١)، وأن هذه المملكة شملت شرقى المتوسط كاملاً (بلاد الشام والرافدين وجزيرة العرب ومصر وبعض جزر المتوسط الشرقية)، وأن عرب تلك الإمبراطورية هم من جاء ذكرهم عن المؤرخ المصرى (مانيتون Manithon) الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد، باسم (الهكسوس)، وهو الأسم الذى ترجمه لنا المؤرخ (يوسفوس Josphus) بمعنى الملوك الرعاة، بحسبان الكلمة (هكسوس) ملصقة من مقطعين: الأول (هك) بمعنى (ملك) فى اللغة المصرية المقدسة (الهيراطيقية) والثانى (سوس) وهى فى المصرية الدارجة - فيما زعم - تعنى (راعى).

(١) أنظر على سبيل المثال فقط : د. أحمد شلى : مقارنة الأديان، اليهودية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٤٤، ٥١، وما بعدها . أنظر أيضاً محمد حسين الفرح، أعداد مجلة المنابر من ٣٢ إلى ٤٠ (هذا ما وصلنا حتى كتابة هذه السطور)، بيروت، والموضوع بكامله بعنوان الحضارات العربية الكبرى فى العصور القديمة.

وكان مصدر دهشتنا من باحثينا القوميين آنذاك، هو إطلاقهم ذلك الزعم مرسلًا، دون شواهد أو بينات أو دلائل أركيولوجية، أو حتى مستخلصات من قراءة للنصوص القديمة، أو من عمليات تحليل وتركيب لنصوص بعينها مقارنة بأخرى، مما دفعنا لهاجس أن رجالنا قد أقاموا الأمر برمته على كون (الهكسوس) بدوًا رعاة، وأن العرب بدو رعاة، وكفانا بذلك دليلاً، لكن المأساة الحقيقية تكشفت لنا بعد قراءة (عصور في فوضى)، حيث اكتشفت أن ذلك الكتاب الذى يضع النظرية التاريخية للقومية الإسرائيلية، كان هو المدد الأول لأصحاب فكرة إمبراطورية الهكسوس العربية، وبذلك قدم باحثونا ردًا على ذات الدرجة من العنصرية، وإن لم يكن على ذات الدرجة من الكفاءة ولا الأمانة ونزاهة العلم، وهو الأمر الذى لا يتضح إلا بقراءة الكتاب، أو القسم الأول منه على الأقل، وهو الدعامة الأساسية للعمل بكامله.

ومن هنا تجدنا بحاجة إلى تقديم عجالة موجزة لذلك القسم الضخم من الكتاب، ولا شك أن أى عملية إيجاز له لن تؤدي ما يمكن أن تؤديه قراءة العمل ذاته، لأن كل كلمة فيه وضعت فى موضعها بمقاييس دقيقة، وكل عبارة فيه، وكل فقرة، كان عليها دور يجب أن تؤديه كما هو محسوب ومخطط له تماماً، وبدونها يفقد العمل بعض تأثيره وقدرته، لكننا هنا مضطرون لذلك، حتى يمكننا أن نقدم التحليل اللازم لذلك القسم من الكتاب، والذى قامت على أعمدته بقية فصول الكتاب التى جاءت فقط لدعم ومساندة القسم الأول منه.

تأسيس - ٣ -

من المستحسن هنا أن نبدأ بالإهداء الذى صدر به (فليكوفسكى) كتابه؛ والذى يستحق التسجيل كاملاً دون تدخل، لأنه يفصح بجلاء عن الرجل وهويته وأهدافه، والروح التى كتب بها كتابه. يقول:

هذا العمل مهدى إلى أبى، وأحب أن أوضح فى بضعة أسطر، من هو سيمون إيمانويل فليكوفسكى؟ منذ ذلك اليوم، وهو فى الثالثة عشرة من عمره، حين غادر منزل والديه، وذهب سيراً على الأقدام، إلى واحد من تلك المراكز المتخصصة فى تدريس التلمود بروسيا، وحتى يوم وافته المنية فى ديسمبر ١٩٣٧ على أرض إسرائيل، كل ذلك العمر، مع ثروته وراحة باله وكل ما يملك، كرسه لتحقيق ما كان يوماً مجرد فكرة، ألا وهى إعادة بناء نهضة الشعب اليهودى على أرضه القديمة، لقد أنجز الكثير لإحياء لغة الكتاب المقدس، وتطوير العبرية الحديثة، بإنجازه مع الدكتور ج كلوشنر كمحرر للأعمال العبرية القديمة المجمعة، كما ساهم فى إحياء الفكر العلمى اليهودى، بنشر كتابه المخطوطة العالمية، من

خلال المؤسسة التي سبق له إنشاؤها، وكانت تلك الأعمال بمثابة البنية التحتية، التي قامت عليها أعمدة الجامعة العبرية بالقدس بعد ذلك، كما كان من أوائل من استعادوا الأرض في النقب، أرض الأحبار، وأنشأ هناك أول مستعمرة تعاونية أطلق عليها اسم : ردحاما، وتعد اليوم من أكبر المنشآت الزراعية المتطورة شمالي النقب، ولا أعرف لمن أتوجه بالعرفان في إنجاز هذا العمل الفكري، في إعادة بناء التاريخ القديم، إن لم أتوجه به إلى أبي سيمون.

الأمر واضح من البداية، لكنه رغم وضوحه، وإمكان اتخاذ مواقف مناسبة من جانب القارئ إزاء ما سيطالع بعد الصدمة النفسية لذلك الإهداء فإن الرجل غامر وصدر به الكتاب وهو واثق تماماً من قدراته، ويعلم سلفاً إلى أي حد يمكن أن يؤثر في قارئه ويزحزحه عن موقفه، إن لم يجعله يتبنى في النهاية كل أطروحات الكتاب عن قناعة، وهنا قمة خطورة الرجل والكتاب.

ولعل الغرض الأساسي للكتاب قد وضح في الإهداء، في قوله: " هذا العمل الفكري في إعادة بناء التاريخ القديم "، وفي الفصل

لأول يشرح دوافع ذلك الغرض بقوله: « لقد تبني الكثير من الدارسين أيضاً خلاصته، أن إقامة الإسرائيليين بمصر واستعبادهم وخروجهم رحيلهم، مجرد تصورات دينية بحتة، وقد لقي هذا الرأي تعصيذاً وياً، في غياب أى دليل مباشر على وقوع تلك الأحداث في آثار المصرية القديمة، أو في المدونات البردية. وعلى العكس من تلك تبني آخرون وجهة نظر مضادة، فحواها أنه من العسير أن بخرع شعب أساطير عن العبودية، والتي لم يكن في الحسبان وقتها، نها ستحفز وتخلق كرامة قومية، وعليه فلا بد من وجود أسس تاريخية للقصة ». ولأن (فليكوفسكى) من أصحاب وجهة النظر لثانية، فقد كرر الحديث عن دوافع الكرامة القومية لشعب إسرائيل، كما في قوله: « إن الرجوع الدائم بالذكرى اليهودية لتجربة البحر، وحي بأن القصة كلها لم تكن من نسج الخيال... والغريب حقاً هو ثابرة الشعب اليهودى على التعلق بهذه القصة، جاعلاً منها بدايته حقيقية، وجاعلاً منها في الوقت ذاته، الحدث الأكبر في حياته تاريخه كامة ».

ومن ثم تصبح الكارثة التي صحبت الخروج، وانشقاق البحر، لركن الأساسى فى عمل (فليكوفسكى)، حتى أنه يذهب إلى أن الخروج اليهودى من مصر — لابد — قد حدث فى قمة فوران

الأحداث، وأن الكارثة بالذات، ربما يمكنها البرهنة على كونها كانت الحلقة الرابطة للتاريخ الإسرائيلي بالتاريخ المصري، القديم . ومن هنا يبدأ بتأسيس موطئ قدم لقبائل بنى إسرائيل فى التاريخ، ذلك التاريخ الذى لا يعرف شيئاً عنهم فى وثائقه، وذلك بدءاً من أحداث الخروج، تلك الأحداث الأكثر أسطورية فى الميثولوجيات القديمة، والتي ينجو فيها شعب إسرائيل ويغرق المصريون وفرعونهم، لكن لجعل تلك الأحداث بعد عدة فصول - وسط إثارة رائعة حقاً وأسلوب متميز وقرائن منتقاة - من أشد الأمور قبولاً واعتيادية، بحيث لا يجد القارئ بعدها مانعاً فى قبول ميثولوجيات أقل إدهاشاً بالكتاب المقدس، والتي سيعالجها فى بقية أقسام الكتاب، والتي لا ترقى إلى مستوى شق البحر إغرافاً فى الأسطورة، معتمداً على إثارة الدهشة وبأسلوب المياغنة، التي يتحول فيها الواقع إلى منظومة أسطورية. بينما تتحول أحداث الأسطورة إلى وقائع حية وفاعلة.

من تلك الحادثة (حادثة البحر) ينطلق (فليكوفسكى) ليؤسس فروضه، تلك الفروض التي تقف بدورها كأمر نافر عسير القبول، لكنه مدهش ومثير وجديد، ومع مخالفته لكل ما تم التعارف عليه حتى الآن، والفرضية الأساس عنده تبدأ من كون مدونات التاريخ القديم سواء فى مصر أو الشام أو الرافدين أو حتى فلسطين ذاتها، لا تعرف

شخصاً باسم (موسى) رغم أهميته القصوى فى التاريخ اليهودى وفى تاريخ الأديان الكبرى فى الشرق الأوسط عموماً، ولا تعرف ملكاً أسس مملكة لشعب إسرائيل بأسم (شاول)، ولا عظيماً باسم (داود)، ولا حكيماً حاز شهرة فلكية فى التاريخ الدينى باسم (سليمان)، كما لا يعلم علم التاريخ شيئاً البتة عن دخول قبائل بنى إسرائيل إلى مصر، ولا عن خروجها ولا عن بحر ينشق ويبتلع جيوش دولة عظمى آنذاك، وهو الحدث الذى كان جديراً بالتسجيل فى مدونات مصر والشام والرافدين وتركيا لأهميته وخطورته. بينما على الجانب الآخر نجد الكتاب المقدس فى الأسفار من الخروج إلى القضاة لا يذكر مصر إطلاقاً، ولا يحكى أحداثاً عنها كعادته، وهو زمن امتد زهاء أربعة قرون، رغم المفترض تاريخياً أن الخروج قد حدث زمن الأسرة الثامنة عشر الفرعونية، أولى أسرات الدولة الحديثة المعروف بدولة الإمبراطورية، وهو زمن كانت مصر تسيطر فيه على بلدان المتوسط الشرقية، وبضمنها فلسطين.

ومن هنا يتأسس العمل كله على فرضية تذهب إلى أن ثمة خطأ وقع فى تأريخ التاريخ المصرى القديم، حيث — وهذا رأى (فليكوفسكى) — توقف تاريخ مصر عند لحظة محددة مع نهاية الأسرة الثمانية عشرة فى الدولة الوسطى، مع دخول الهكسوس الى مصر، ولأن هؤلاء الغزاة كانوا بدواً بראية لايحترموا الحضارة،

ولا يعرفون حتى الكتابة، فقد حطموا حضارة مصر، ولم يحاولوا أن يتعلموا شيئاً من المصريين، لذلك لم يتم تدوين شئ ذى بال طوال فترة الاحتلال، هذا بينما كان بنو إسرائيل وقت دخول الهكسوس الى مصر، فى طريق الخروج لشبه جزيرة سيناء، ووقت فوران أحداث جسام لم تسمح بتدوين واضح كامل لتلك الأحداث، أما كون بنى إسرائيل كانوا فى مصر قبل دخول الهكسوس، وفى زمن أسبق سمح لهم بالتكاثر مدة طويلة فى أرض النيل، فإن ذلك سيعود بنا الى عهد بناء الأهرام فى الدول القديمة. وممكن الخطأ، يكمن فى أن المؤرخين قد قاموا بوصل نهاية الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة الوسطى (١٧٨٨ ق.م) ببداية الأسرة الثامنة عشرة أولى أسر الدولة الحديثة بعد التحرر من الهكسوس (١٥٨٠ ق.م)، ولم يتركوا الأسر من الثالثة عشرة الى السابعة عشرة سوى مئتى عام تزيد قليلاً، يتم تقسيمها على مجموعة الأسر المصرية والهكسوسية خلال خمس أسر كاملة، بينما يرى (فليكوفسكى) أنه قد سقط من ذلك التاريخ - بالإضافة الى المئتى عام المفترضة - مالا يقل عن أربعمائة عام كاملة، هى زمن قضاة إسرائيل، وزمن احتلال الهكسوس لمصر، وعليه فيجب أن تكون بداية الأسرة الثامنة عشرة التى أسسها (أحمس) الذى قضى على الهكسوس، واقعة فى تاريخ يبعد عما حدده

المؤرخون بأربعة قرون إضافية، أى يجب أن تكون بدايتها بين ١١٨٠ و ١١٠٠ ق.م على وجه التحديد.

والخطورة عند (فليكوفسكى) فى ذلك الخطأ، لا تكمن فى اختلال تاريخ مصر، أو فى سقوط ذكر بنى إسرائيل من التاريخ، إنما ينسحب الخطأ على عمليات التأريخ لحضارات المنطقة بكاملها، حيث كان التاريخ المصرى هو المعيار الذى قيست بالنسبة إليه عهود الحضارات الأخرى وتم ترمينها وفقه، ومن هنا جاز له القول : " إن تاريخ الآشوريين البابليين والفرس قد تم تشويبه وتخريبه، وتاريخ الإمبراطورية الحثية (تركيا القديمة) قد اخترع بأكمله، وكذلك التاريخ اليونانى فى عصره البرونزى لم يوضع فى موضعه الحقيقى من السياق الزمنى، كما تم تشويه التاريخ السابق للإسكندر الأكبر.. ومن ثم يتضح أن هناك ملوكاً قد وضعوا فى مواضع أحفاد أحفادهم، ووصفت إمبراطوريات وهمية، بينما كانت قطع الآثار نتاج قرون أخرى، وعصور تخالف ما نسبت إليه، وكان هذا هو الحال بالنسبة للإمبراطورية الحثية وفنونها، وكانت كذلك أيضاً بالنسبة للشعوب الحورية ولغاتهما، لأنها ببساطة لم توجد أصلاً"، ومن هنا كانت فوضى العصور فى حاجة إلى (فليكوفسكى).

تأسيس - ٤ -

وحتى لا يبدو الرجل كمن يلقي القول جزافاً، كان عليه أن يقوم بأمرين : الأمر الأول هو عرض ما انتهت إليه النظريات التاريخية التقليدية بشأن الخروج، ومناقشة مدى مصداقيتها، بحيث إذا ثبت بطلانها انتقل إلى الأمر الثاني، وهو تقديم الأدلة الكافية لتأكيد فروضه، تلك الأدلة التي استغرقت كتابه حتى آخر صفحة فيه، ومن هنا يبدأ مناقشة التاريخ ونظريات المؤرخين، ومحاكماتها محاكمة عادلة تماماً، وربما ساعده على تلك المحاكمات أن حيثيات إدانة أى نظرية منها، سبق وقدمتها نظرية أخرى بديلة.

ويبدأ بأقدم نظرية قدمت عن حدث الخروج، وقد وردت عند المؤرخ المصرى (مانيتون). وتقرن تلك النظرية بين ظهور الهكسوس وبين ظهور الإسرائيليين، كما تقرن الهكسوس بخروج الإسرائيليين، حيث سجل (مانيتون) أن الهكسوس بعد طردهم من مصر اتجهوا إلى فلسطين، حيث أنشأوا هناك مملكة (أورشليم)، وقد أخذ المؤرخ اليهودى (يوسفوس) بكلام (مانيتون). وذهب المذهب نفسه - من القدماء - الأب (يوليوس الأفريقى)، الذى روى أن اليهود تمردوا فى مصر بقيادة (موسى)، على ملك باسم (احمس)، وحتى

الآن، وبعد مضي أكثر من تسعة عشر قرناً على تلك النظرية، لم يزل هناك من يأخذ بها إلى اليوم.

لكن على الجانب الآخر نجد من يرفض تلك النظرية تأسيساً على مقدمة منطقية تماماً، وهي كيف يقع اليهود تحت نير العبودية في مصر إذا كانوا هم الذين حكموها باسم الهكسوس، إضافة إلى المقدمة الثانية في ذلك القياس وهي أن حكام مصر بعد (أحمس) قائد التحرير، كانوا من الحكام الأقوياء الذين فرضوا هيمنتهم على شرقي المتوسط بما فيه فلسطين، مما يستحيل معه أن يخرج بنو إسرائيل رغماً عن إرادة مصر، بل ويقومون بغزو فلسطين المفترض أنها خاضعة للحكم المصري آنذاك، بل ويتمكن الإسرائيليون من إنشاء دولة في فلسطين!! لذلك لجأ آخرون إلى البحث عن فترات ضعف إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة، يمكن أن تسمح بالخروج وبقيام الدولة، ومن ثم ذهبوا إلى احتمال حدوث ذلك بعد انتكاسة (إخناتون) فرعون التوحيد، لكن ما يدحض ذلك المذهب بدوره، أسانيد وثائقية تم العثور عليها بين وثائق مدينة (إخناتون) في تل العمارنة، في شكل رسائل من حاكم أورشليم، يحذر فيها الفرعون من مهاجمة قبائل بربرية لحدوده من عبر الأردن باسم (الخابيرو)، والتي تنطق أيضاً (عابيرو)، ويمكن أن تكون مسمى للعبريين اليهود، لذلك لا بد أن

يكون الخروج قد حدث قبل إخناتون بفترة كافية، وتسقط بذلك تلك النظرية بدورها.

ومن هنا ذهبت نظرية الثالثة إلى أن بنى إسرائيل قد غادروا مصر زمن (أحمس)، إبان طرده للعناصر الأجنبية مع الهكسوس، ووصلوا فلسطين زمن (إخناتون) باسم (الخابيرو)، لكن العقبة في قبول تلك النظرية، أنها تهمل منتهى عام بين زمن أحمس وزمن إخناتون، وتعنى أمراً غير مقبول، هو أن يكون زمن التيه الإسرائيلي في سيناء قد استغرق منتهى عام بدلاً من أربعين عاماً قرررتها التوراة، وتعد بذاتها زمناً طويلاً جداً استغرقه الخارجون من مصر إلى فلسطين.

لذلك طرحت النظرية الرابعة رأياً مخالفاً تماماً، وهو أن يكون الخروج قد حدث — لأبد — زمن الفرعون (مرنبتاح) بن الفرعون (رمسيس الثاني) حوالي ١٢٢٠ ق.م في الأسرة التاسعة عشرة، بعد العثور على غطاء تابوته الذى يعدد عليه البلاد التى أخضعها، وبينها عبارة تقول : "أبيدت إسرائيل ولم يبق لها بذر"، وهو أول ذكر لإسرائيل فى أى وثيقة مصرية على الإطلاق، مما يؤكد أن (مرنبتاح) هو فرعون الخروج، بينما كان أبوه (رمسيس الثانى) هو فرعون الاضطهاد، لكن تلك النظرية بدورها تبدو غير كاملة الإقناع،

لأن نص مرنبتاح يشير لإسرائيل ضمن إشارته لدول خارج مصر، وليس لقوم داخل مصر، بما يعنى حديثه عن دولة كانت قائمة بالفعل قبل أن يشن هجومه عليها، إضافة لعدم ذكر فرعون دمر إسرائيل باسم (مرنبتاح) ضمن الأسماء الواردة فى المآثور التوراتى لأعداء اسرائيل، كما لا يتفق ذلك مع أى محاولة لتزمينه مع أحداث التوراة وزمنها، حيث لا بد أن يكون الاسرائيليون قد دخلوا فلسطين بعد خروجهم من مصر، ولكن بمئة عام أى حوالى ١٩٠٠ ق.م، وبذلك لا يتبقى لعصر القضاة سوى قرن واحد، وهو ما يخالف بشدة الزمن المفترض، والذي يحتسب ثلاثة قرون كاملة على الأقل لذلك العصر، وربما أربعة، لذلك اعتبر عصر (مرنبتاح) كموعدا للخروج موعداً متأخراً جداً وأكثر مما ينبغى، ورغم ذلك تعد هذه النظرية من أشيع النظريات حتى اليوم.

وبين النظريات التى حازت ذيوعاً أيضاً، تلك التى اعتبرت حدثى الدخول والخروج مسألة اعتيادية فى تاريخ مصر، باعتبار دخول البدو إلى مصر وخروجهم منها فى عصور متباعدة، كان أمراً دورياً ومعتاداً، لذلك كان دخول بنى إسرائيل وخروجهم أمراً هامشياً فى اهتمامات المصريين، إلى الحد الذى لم يجدوا معه أى دأ للأهتمام بتسجيله، لكن ذلك لا يتفق مع إصرار التوراة على تفصيل الأحداث وهولها وشدتها، ومن هنا لجأ أصحاب نظرية مشابهة إلى

الاعتراف بما قالت التوراة، لكن مع النزوع إلى تأويل النصوص التوراتية لتبدو مقبولة، وذلك باللباس الأساطير التي سبقت الخروج وصحبته ثوباً يظهرها كأمر اعتيادي، ومن هنا قامت تفسر الضربات التي أنزلها رب موسى بالمصريين من قمل وطفادع وبعوض وذباب، باعتبارها أموراً اعتيادية تماماً عند المصريين، بالنظر إلى أرض مصر الشديدة الخصب، والتي تسمح بكافة أنواع الحياة، بينما بدا ذلك غريباً على بدو رعاة، كذلك رياح الخماسين التي تهب من الصحراء الليبية محملة بالرمال والأتربة، مع ما تجلبه معها أحياناً من أسراب الجراد، يمكن أن تفسر ضربة الإله اليهودي (يهوه) لمصر بالظلام والجراد، أما مسألة انشقاق البحر فهي أسطورة متكررة في الميثولوجيات القديمة عند مختلف الشعوب، وإذا كان لأبد من الاعتراف بانشقاق البحر وانطباقه، فلن يكون له تفسير سوى موجة مد عالية ضاعفها إعصار مفاجئ. ثم تستكمل النظرية مسوغاتها بالميل الإسرائيلي المعهود، والواضح في كتابهم المقدس، للصياغات الإعجازية والميل الشديد للخوارق، حتى أن شعلة بيد قائد الخروج، تتحول في نص التوراة إلى إله يسير أمامهم في عمود دخان ونار.

وقد ذهب أحد هؤلاء، وهو (تسالزبيك) إلى أن جبل سيناء الذي عبروا إليه كان بركناً، والبركان هو الظاهرة الوحيدة التي

تعطى صورة عمود دخان بالنهار ونار بالليل، ولأنه عادة ما تصاحب ثورات البراكين النشطة ضربات زلزالية، فإن زلزالاً قد سحب الماء ليلة الخروج بعيداً عن الشاطئ، ثم ارتدت المياه لتحطم كل ما جاور البحر وتبتلعه، وهو ما يفسر معجزة البحر الموسوية، لكن المشكلة الكبرى التي واجهت هذا التفسير.. رغم براعته.. أن منطقة سيناء لم تكن منطقة بركانية، إضافة إلى أن المنطقة الواقعة ما بين البحر المتوسط وخليج السويس والعقبة تفتقد تماماً ظاهرة المد الإعصاري، ناهيك على كون (بيك) اضطر في النهاية، وفي نهاية حياته، إلى الاعتراف بخطئه، وسحب نظريته.

الوثائق والأدلة

وهكذا أصبح الميدان خالياً من نظرية تامة الصدق تفسر حدث الخروج وزمانه، ومرة أخرى تبين الحاجة ماسة إلى (فليكوفسكى)؟!، ولا يبقى سوى أن ندخل مع الرجل إلى عالمه، بادئين بقوله : «سنجد أنفسنا مضطرين للإقرار باعتراف مباشر وصريح، أن الكلمات (يقصد كلمات الكتاب المقدس) تعنى ما نقوله تماماً، وأن مدى الكارثة كان يفوق بدرجة كبيرة أية نتائج أخرى يمكن أن تتجم عن ثورة بركان لقد ساهمت الأرض والبحر والسماء فى الثورة المفاجئة، البحر غمر الأرض، والحمم الساخنة تدفقت من أرض ممزقة، وقد وصفت النصوص المقدسة فوضى العناصر التى انطلقت من عقالها:

إرتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال .. تحركت
واهتزت .. دخان و نار .. ظهرت أعماق المياه،
وانكشفت أسس المسكونة. هو المزحزح الجبال،
ولا تعلم الذى يقبلها فى غضبه .. هو المزعزع
الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها » .

لكن قبل تلك الأحداث الهائلة، وقبل حدث انفلاق البحر، فإن «النص التوراتي يصّر على حدوث البلاء بمصر قبل رحيل الإسرائيليين عنها، وكانت نذيراً سابقاً للدمار الذى سببته عناصر الطبيعة التى أفلتت من عقابها.. إن الأسئلة المنطقية التى تفرض نفسها فى هذا الموضع هى: هل هذه الشهادة مزيفة بأكملها؟.. هل من الممكن ألا يكون المصريون قد لاحظوا شيئاً من تلك الأحداث؟.. هل هناك أى زلزال على الإطلاق تم ذكره فى السجلات المصرية القديمة؟ إن التسجيلات المصرية التقليدية لا تحتوى على أى ذكر لهزة أرضية، ولا تحتوى على أى أثر لكوارث، ولكننا نصر.. فقد نحصل على مفتاح هام لمشكلة مستعصية، اختلف الكثيرون بشأنها واختصموا، وظلت حتى الآن ما يقرت من ألفى عام دون إجابة قاطعة «وبالفعل، ولأول مرة فى التاريخ، يقدم لنا (فليكوفسكى) ما عثر عليه من وثائق وأدلة.

الوثيقة الأولى :

بردية ليدن :

تحت عنوان «شاهد عيان مصرى يشهد بحدوث البلاء»، وبأسلوبه المتميز، يقدم لنا (فليكوفسكى) فيما يبدو أنه كشف خاص

وخطير، بردية (إيبور) المعروفة ببردية ليدن، فى قالب لا يخلو من ملابسات الغموض، وضبابية الماضى السحيق، ودخان ما قبل الكشف عن اللغز وغموض الأمر، بحيث يبدو كما لو كان يقلب البردية بين يديه، ويصفها وصفاً دقيقاً، بادئاً بالقول : « ليس من المعروف تحت أية ظروف، تم العثور على البردية التى تحتوى كلمات (أبيور)، وطبقاً لرواية (أنستاسى) مالکها الأول، فقد عثر عليها فى منف، وهو ما يشير للمنطقة المحيطة بهرم سقارة، ثم انتقلت ملكيتها فى عام ١٨٢٨م إلى متحف ليدن بهولندا، وأدرجت بقائمة محتويات المتحف تحت رقم ٣٤٤ ليدن.. إلخ »، وفى عجالات سريعة يشير إلى ما قدمه المتخصصون من تفسيرات بشأنها، فهناك من اعتبرها عملاً فلسفياً، وآخر لم يجد فيها سوى مجموعة أحاجى وألغاز، وذهب ثالث إلى أنها نبوءة بأوقعات شدة كانت مقبلة على مصر، لكن الوثيقة — فيما يرى (فليكوفسكى) — تنطق بلسان مبین لشاهد عيان مصرى عاصر الأحداث التى سبقت الخروج بأيام أو بأسابيع، وبتطابق مبهر مع نصوص التوراة بذات الخصوص، ويبدأ بأخطر النصوص دلالة، والتى تشير بوضوح إلى كارثة أصابت الأرض، مصحوبة باصوات الطبيعة الهادرة :

٢ : ٨: أنظروا الأرض تدور حول نفسها كما تدور عجلة صانع الفخار.

٢ : ١١: المدن دمرت .. وصعيد مصر أصبح يباباً.

٣ : ١١: الكل خراب.

٤ : ٧: انقلب المسكن فى لحظة.

٢ : ٤: سنوات من الضجيج ولا نهاية للضجيج.

٦ : ١: آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج وتتقطع الجلبة.

ويعقب على مدلول (الضجيج) فى البردية، بأنها " الأصوات التى تصم الآذان وعادة ما تصاحب الزلازل، ويبدو أن الهزات كانت متتابعة الحدوث مرة بعد أخرى، حتى تحولت البلاد إلى حطام وانهار نظام الدولة فجأة، وأصبحت الحياة لا يمكن احتمالها ".

ثم يذلف مباشرة إلى المقارنة بين مقاطع من البردية، وبين مقاطع من سفر الخروج التوراتى،، وهى تفصح بوضوح عن ضربات (يهوه) رب التوراة لأرض مصر قبل الخروج مباشرة:

بلاء تحويل ماء النهر إلى دماء :

الخروج ٧ : ٢٠ فتحول كل الماء الذى فى النهر دماً.

البردية ٢ : ٦٥ النهر دم.

الخروج ٧ : ٢١ وكان الدم فى كل أرض مصر.

البردية ٢ : ٦٥ البلاء انتشر ففى كل أنحاء البلاد .. الدماء فى كل مكان.

الخروج ٧ : ٢٤ وحفر جميع المصريين حول النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم لم يقدرُوا أن يشربوا من ماء النهر.

البردية ٢ : ١٠ عاف الناس شرب الماء.

الخروج ٧ : ٢١ مات السمك الذى فى النهر وأنتن النهر.

البردية ٣ : ١٠ - ١٣ هذه مياهنا، وهذه سعادتنا، فماذا سنفعل بعد الآن؟..الكل حطام.

بلاء البرد والنار:

الخروج ٩ : ٢٥ فضرب البرد فى كل أرض مصر، جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل.

البردية ٦ : ١ لا فاكهة ولا محاصيل موجودة.

الخروج ٩ : ٢٣ ، ٢٤ وجرت نار على الأرض، وأمطر
الرب برداً على أرض مصر، فكان برداً وناراً متواصلة وسط البرد.
البردية ٢ : ١٠ التهمت النار البوابات والاعمدة والحوائط.
والنار التى أهلكت الأرض لم تنتشرها ايد بشرية، لكنها سقطت
من السماء.

الخروج ١٠ : ١٥ لم يبق شئ أخضر فى الشجر، ولا فى
عشب الحقل فى كل أرض مصر.

البردية ٦ : ٣ أحقا اختفت الحبوب فى كل مكان؟

البردية ٥ : ١٢ أحقا.. اختفى ما كان بالأمس مرئياً؟

فليكوفسكى : يعقب هنا بأن حصر زمن تدمير المحاصيل بيوم
واحد، يستبعد الجفاف كسبب تقليدى لقلة المحاصيل، فقط النار
والصقيع والجراد هى التى كان بإمكانها ذلك.

بلاء وباء الطاعون :

الخروج ٩ : ٣، ١٩ يد الرب تكون على مواشيهم التى فى
الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم.. سيفتك بها
طاعون .. جميع الناس والبهائم الذين يوجدون فى الحقل.. ينزل
عليهم البرد فيموتون.

البردية ٥ : ٥ كل الحيوانات قلوبها تتنحب ... والماشية تنن.

البردية ٩ : ٢ - ٣ انظروا تركت الماشية شاردة ولا يوجد من يجمعها، كل إنسان انشغل بنفسه.

بلاء الظلام :

الخروج ١٠ : ٢٢ فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام.

البردية ٩ : ١١ لم تكن الأرض نوراً.

بلاء ضربة البكر :

الخروج ١٢ : ٣٠ فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين وكان صراخ عظيم فى مصر، لأنه لم يكن بيت إلا فيه ميت.

الخروج ١٢ : ٢٧ الرب الذى عبر عن بيوت بنى إسرائيل فى مصر لما ضرب المصريين وخلص بيوتنا.

الخروج ١٢ : ٢٩ فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر، وبكر فرعون الجالس على كرسیه، إلى بكر الاسير الذى فى السجن، وكل بهيمة.

البردية : انهار المسكن فى لحظة

البردية ٤ : ٣ أحقاً كل أبناء الأمراء سحقتم أجسادهم
فى الحوائط؟

البردية ٦ : ١٢ أحقاً تشرد أبناء الأمراء فى الطرقات؟

البردية ٣ : ١٤ النواح فى كل أنحاء البلاد يختلط بالنعيب.

(فليكوفسكى) يعقب: إن موت كل هذا العدد فى ليلة واحدة،
وفى ذات الساعة من منتصف الليل لا يمكن تفسيره بوباء كالطاعون،
إنما بكارثة أرضية ضربت كل أرض مصر.

تكسير آلهة المصريين :

الخروج ١٢ : ١٢ وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين،
أنا الرب.

البردية ٣ : ١٤ وسقطت تماثيل الآلهة مهشمة إلى أجزاء.

خروج كفن يوسف من قبره :

النص من الهجاء: عندما سحقتم الأرض فى مصر آخر ليلة
وجد الأسرائيليون كفن يوسف على سطح الأرض فحملوه معهم.

(فليكوفسكى) يعقب : ولم تكن الأرض أكثر رحمة بجثث الموتى فى قبورهم فالمقابر لفظت، موتاهم وتمزقت الأكفان.
البردية ٤ : ٤ أمة أولئك الذين كانوا محنطين فى أكفانهم، صاروا ملفوظين على سطح الأرض؟

ويشرح (فليكوفسكى) أن البردية قد تضمنت : تمرد السكان وفرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية، واختفاء الملك فى ظروف غامضة.. والحقيقة الثانية هنا، هى أن زلازل متتالية صاحبته ظواهر طبيعية أخرى، قد اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء، سبب هلاك الإنسان والحيوان والنبات، وأتلف كل مصادر الحياة.. ونظر المصريون إلى ذلك كله على أنه من فعل رب العبيد.. وأسرع العبيد الفارون باتجاه حدود الدولة، يسبقهم نهراً عمود سحاب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار.

الخروج ١٣ : ١١ وكان الرب يسير أمامهم نهراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضى لهم، لكى يمشوا نهراً وليلاً.

البردية ٧ : ١١ يا ويلاه، النار ارتفعت إلى الأعلى وامتد لهيبها أمام أعداء البلاد.

.. مع ما سجلته البردية ٧ : ١ - ٢ أن الفرعون قد فقد في ظروف غير عادية، وأن ذلك لم يحدث من قبل قط لأى فرعون آخر.

ثم يبرز (فليكوفسكى) حدث دخول الهكسوس البلاد « البردية ٣ : ١ أحقاً صارت الدولة خراباً كالصحراء، وأصبحت الأقاليم يباباً، واقتحمت البلاد قبائل غريبة من وراء الحدود؟ إن الكارثة التى حولت مصر إلى دمار شامل بلا قوة متماسكة تدافع عن أرضها، أغرت الغرباء، وكانت حافزاً لقبائل الصحراء العربية لينقضوا عليها. البردية ١٥ : ١ ماذا حدث؟ لقد علم الآسيويون بحال البلاد ».

الوثيقة الثانية :

حجر العريش :

وحجر العريش كتلة جرانيت سوداء، حفرت عليها نصوص هيروغليفية ورغم أهميته فإنه لم يحظ باهتمام كاف، ولم يعد يذكره أحد إلا لمأماً، رغم احتوائه على أسماء ملوك ومدن وأماكن جغرافية، وغزو غرباء للبلاد فى عصر ملك يدعى (توم)، ونص الكتابة فى

رأى (فليكوفسكى) يتطابق كلية مع نص التوراة بشأن الأحداث التي
 صحبت الخروج من البحر، ومما اقتبسه (فليكوفسكى) من تلك
 النصوص: "لقد مرت البلاد بلوى عظيمة، سقط الشر على أرضها،
 وثارَت الأرض ثورة عنيفة شملت عاصمة البلاد، ولم يغادر أحد
 القصر الملكى لمدة تسعة أيام كاملة، وأثناء هذه الأيام التسعة من
 جيشان الأرض، كانت هناك عاصفة بلغت قوتها حداً لا يستطيع معه
 الإنسان ولا الإله أن يرى وجوه الآخرين".

وحجر العريش ليس — عند (فليكوفسكى) — سوى تسجيل
 للقصة الكاملة للبلاء العاشر، الذى أنزله الرب الإسرائيلى بمصر فى
 شكل ظلام وعواصف برية، فالحجر يتابع "وفى خضم المحنة،
 وتقلبات الطبيعة الوحشية، جمع الملك جيشه وأمرهم باتباعه إلى
 مناطق، وعدهم أنهم سيرون فيها النور من جديد (سنرى أباناً رع حر
 أختى فى منطقة باخيت المضيفة).. وفى هدأة الليل، وتحت ستار
 الظلام، إقتربت جافل الغرباء من حدود مصر ثم إجتازتها (وذهب
 صاحب الجلالة لمحاربة أبوبى وزمرته.. وحين قاتل جلالة الملك رع
 حرماكيس، حين قاتل إله الشر بالقرب من البحر فى مكان الدوامة،
 فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته، ولكن جلالته هو الذى اندفع إلى
 دوامات البحر).

وبعد شروح يعود الكاتب إلى المكان الذى انتهت إليه مسيرة الملك قبل غرقه فى البحر، وأنها محددة بالاسم فى النص "ووصل جلالته إلى مكان يسمى بى خاروتى"، ثم يأتى بنص التوراة "فسعى المصريون وراءهم، وأدركهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسان جيشه، وهم نازلون عند البحر، عند قم الحيروث — خروج ١٤ : ٩"، ثم يوضح "وبى خاروتى فى المصدر المصرى هى (بى حيروث) أو (قم الحيروث) فى المصدر العبرى، إنه المكان نفسه والمطاردة نفسها.. وبعد انقضاء فترة من الزمن خرج ابن الفرعون (صاحب السموجب) باحثاً عن أبيه (وقد أخبره شهود العيان بكل ما حدث لرع فى يات نيببىس، والصراع الذى خاضه الملك توم)، ويحكى النقش أن كل من رافقوا الأمير فى رحلته للبحث عن أبيه قد ماتوا حرقاً، أما الأمير نفسه صاحب السموجب، فقد أصيب بحروق شديدة قبل أن يعود من رحلة البحث وهو يائس من العثور على أبيه الذى لقي حتفه، ومن غيرة الصحراء فى طريق يات نيببىس وصل الغزاة واحتلوا مصر (أتى أبناء أبوى المتمردون الذين كانوا يعيشون فى أوشيرو.. وساروا على طريق يات نيببىس، وحلوا على مصر مع حلول الظلام، لقد غزوا البلاد ليحطموها ويدمروها)، وبمرور الوقت برد الجوفى مصر وجفت الأرض، ولم يعرف ماذا حدث بعد ذلك

للأمير التمس، ولكن نهايته كانت بائسة بالتأكيد (لقد دمرت مصر بالإعصار فأكلتها النيران، أما العاصمة فقد احتلها الأمو).. إن النقش الموجود على حجر العريش يحدد اسم الفرعون الذى هلك فى دوامة البحر، كان توم أو تووم، ومن المثير ان اسم (بى توم) تعنى مسكن أو مقر توم، و(بى توم) كانت إحدى المدينتين اللتين شيدهما العبيد الإسرائيليون للفرعون الطاغية وبأمر منه، وطبقاً لمائيتون فإن الفرعون الذى حل غضب السماء على مصر عهده قبل غزو الهكسوس، كان يدعى تورتيماوس أو تيمايوس ."

الوثيقة الثالثة :

بردية الارميتاج :

وهى بردية الحكيم (نفروحو) المحفوظة بمتحف الأرميتاج ببلينجراد بروسيا ويرى فيها (فليكوفسكى) ترديداً لذات نص بردية ليدن، وإن اختلفت فى كونها نبوءة ألقاها صاحبها أمام أحد الفراعين، وأهم ما يريده (فليكوفسكى) منها قولها فى مقاطع :

ملء قلبى رثاء لهذه الأرض التى نبع منها الفن..

ستهلك هذه البلاد وما عليها ولن يبقى سوى الشر

فانية هذه البلاد

ستحتجب الشمس ولن يرى إنسان النور

لن يبقى أحد حيا

النهر جاف

ستهب الرياح الجنوبية ضد الرياح الشمالية

وتكابد الأرض بؤساً لم تعرفه

ويحتل البلاد البدو حين يأتون من الشرق

سينزل الآسيويون أرض مصر

ستشرب وحوش الصحراء وحيواناتها من نهر مصر

أرى هناك الأرض مقلوبة رأساً على عقب

ويردف (فليكوفسكى) : " إن الرأى نفرحو يتنبأ بعد ذلك

بتحرير مصر على أيدى ملك مصرى، يولد من أم نوبية، ويسمى

(أمينى)، وهو الذى سيقتل الآمو (البدو) بسيفه، وبعدها سوف يبنى

سور الحاكم حتى لا تتكرر عودة الآمو إلى مصر.. واسم (آمنى)

يشير إلى (آمن حوتب) الأول، وهو واحد من الملوك الذين حكموا

مصر بعد أن تم تحريرها من الهكسوس، وكان وقت بداية حروب

التحرير مازال أميراً، وكانت صورته على الجدران المعابد تشير إلى

لون بشرته الأسود، وهو ما يتفق مع مقولة أنه سيولد لأم نوبية، وقد تم تبجيله فيما تلا ذلك من عصوره .

الوثيقة الرابعة :

نبوءة الخزاف :

وهي أثر أدبي مماثل في مضمونه للوثائق السالفة، لخزاف عاش في عهد (أمينحوتب) يقول : " إن نهر النيل سيمتلئ بالمياه، ويعود موسم الشتاء إلى موقعه الصحيح من العام، وتستعيد الشمس مجراها الطبيعي"، مما يشير إلى خلل قد أصاب النظام الطبيعي الكوني.

الوثيقة الخامسة :

مقياس سمنة :

" ولاحظ (البيبيسيوس) أن مقياس النيل عند (سمنة) الموجود منذ عصر الدولة الوسطى، يظهر ارتفاعاً عظيماً لمستوى الماء في ذلك المكان، حيث يجري النهرى فوق أرض صخرية، ومقدار الارتفاع يزيد عن أعلى ارتفاع للمياه مسجل في العصر الحديث بمقدار ٢٢ قدماً، ونظرياً فإن هبوط مستوى الماء في ذلك المكان بعد ذلك بمقدار اثنين وعشرين قدماً قد يعزى إلى واحد من احتمالين: فإما إلى تغير

كمية المياه المتدفقة من نهر النيل، أو إلى تغير في التركيب الصخري والطبقي للأرض، ولو كان النهر يحمل هذا القدر العظيم من الماء قبل الكارثة، فإن العديد من المعابد والمساكن كان من المفترض أن تغطي تماماً بالمياه بانتظام كل عام مع الفيضان، لكن الواضح أن التغيير المرصود عند مقياس سمئة، يدل على حدوث تغيرات ضخمة في التكوين الصخري وفي طبقات الأرض بمصر، في أواخر الدولة الوسطى أو بعدها .»

الوثيقة السادسة :

نقش حتشبسوت :

وهو نقش حجري في عهد الملكة (حتشبسوت) التي حكمت بعد جيلين أو ثلاثة من طرد الهكسوس، وتقول فيه الملكة: « إن مقربة كيس قد تحول إلى انقاض، وابتلعت الأرض حرمها المقدس، ولعب الأطفال فوق معبدها، وقد أزلت عنه ما تراكم، وأعادت بناءه.. فقد كان هناك مقر ربه في وسط الدلتا، وفي حاوار (حواريس عاصمة الهكسوس)، وكانوا هم من دمورا كل المباني القديمة، وحكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع «، ويعقب (فليكوفسكى) : « إن السطور السابقة تحمل الدليل على أن تلك المعابد قد ابتلعتها الأرض.. وصحيح أن

الهكسوس قد دمروا المباني، لكنهم لم يدفنوها في الأرض"، وهو بذلك إنما يشير إلى كارثة طبيعية ليست في رأيه شيئاً آخر سوى كارثة الخروج.

وينهى الباب الأول من القسم الأول بعبارة تلخص نظريته تماماً، ونقول: «لو كانت كل المقارنات السابقة، والنتائج المترتبة عليها، صحيحة، فإن خروج الإسرائيليين يكون قد سبق غزو الهكسوس لمصر بأسابيع أو بأيام قليلة».

امبراطورية الهكسوس العربية

وربما الأمر هنا لا يشبه مجموعة الوثائق التي جمعها (فليكوفسكى) للتدليل على صدق أحداث الخروج كما وردت بالكتاب المقدس، إنما هي مجموعة شهادات عربية على القسم الثانى من نظريته، والذي يذهب إلى أن الهكسوس كانوا من عرب شبه الجزيرة العربية، وليسوا كما ذهب المؤرخون إلى احتسابهم من منطقة أرمينيا. فهو يلتقط طرف الخيط من (مانيتون) فى شذرة تقول: " البعض قالوا أنهم كانوا عرباً "، وهم من أطلق عليهم المصريون اسم (آمو). وكان الهكسوس من الشعوب التى تشربت حتى النخاع بروح التدمير والتحطيم، وعلى قدر ما هو معروف، لم يترك الهكسوس أثراً أو نصباً تذكاريّاً ذا قيمة تاريخية أو فنية طوال فترة حكمهم، وأن هؤلاء الهكسوس ليسوا سوى التسمية المصرية لمن ذكرهم سفر الخروج باسم العمالقة، حيث " أتى عماليق وقاتلوا إسرائيل عند رفيديم " فى طريق الخروج بسيناء، لذلك قال الرب لموسى: " أكتب هذا تذكراً فى الكتاب وضعه فى مسامع يشوع، فإننى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ١٧ : ١٤ " .

وإن هؤلاء العماليق فى هجرتهم انقسموا خطين عظيمين:
الأول احتل كل منطقة شرقى المتوسط، بينما احتل الثانى مصر،
وعند خروج بنى إسرائيل من مصر وقت انهمار سيول العمالة على
المنطقة، « وبسبب وجود العماليق فى جنوب فلسطين، اضطر
الإسرائيليون للبقاء فى الصحراء على مدى جيل كامل »، وبذلك يفسر
(فليكوفسكى) مسألة التيه أربعين عاماً فى سيناء.

ولتأكيد فروضه حول كون الهكسوس هم ذاتهم العمالة، وأنهم
كانوا من غرب شبه الجزيرة، فإنه يؤكد أن ما حدث للطبيعة من
هياج مفاجئ فى مصر، قد حدث أيضاً على الضفة الأخرى من البحر
الأحمر فى جزيرة العرب.

وبصبر غريب ينقب الرجل عن كل ما يدعمه فى كتب التراث
الإسلامية، وما جاء فيها من تاريخ جزيرة العرب فى عصورها
الأولى. ومعلوم أن حديث العماليق من الأحاديث المتواترة فى كتبنا
الإخبارية بحسبان العماليق من أشهر قبائل العرب البائدة، وأنهم بادوا
كما جاء فى مستندات (فليكوفسكى) بنصوص من (المسعودى) وصف
فيها الغضب الإلهى الذى حاق بهم، وكيف أرسل عليهم الله سيلاً
هربوا على إثره من البلاد متتبعين سحباً قادتهم إلى أماكن دمارها
أشدّ هولاً. يقول المسعودى : « ودمرت مكة فى ليلة واحدة بضجيج

يصم الآذان، وتحولت كل المنطقة إلى صحراء بلقع، وأصبحت كل الأرض من الحجون إلى الصفا صحراء قفرا .. وصل العماليق إلى سوريا ومصر وامتلكوا البلاد، وكان طغاة سورية وفراعنة مصر من أولئك العماليق، .. وقدم ملك العماليق الوليد بن دوما من سوريا وغزا مصر وقهرها واستولى على العرش.. وغزا العماليق مصر بعد أن عبروا حدودها وبدأوا في نهب البلاد، وحطموا أعمالها الفنية وخرّبوا كل آثارها (ويلفت فليكو فسكى نظرنا إلى تشابه تعبيرات المسعودى مع نص حتشبسوت)، كذلك طعم مستنداته بأسانيد من شهادة الطبرى "ثم مات ملك مصر، وارتقى ملك آخر عرش البلاد وكان من العماليق، كان يدعى قابوس بن مصعب بن مويّا بن نمير بن سلواز بن عمرو بن عماليق"، ومن شهادة أبى الفدا "كان هناك فراعنة مصريون من أصل عماليقى"، ومن شهادة أبى الفرج الأصبهاني "إن العماليق انتهكوا حدود الحرم فطلت عليهم نقمة الله، فتركوا مكة.. وساقهم الله إلى منشئهم حيث أغرقهم بالطوفان".

وحسب (مانيتون)، فقد أنشأ الهكسوس لهم عاصمة شرقى الدلتا باسم (حواريس)، وكان أول ستة ملوك منهم يشكلون الأسرة الأولى من الفراعنة الهكسوس، وأشهرهم الملك الرابع فى هذه الأسرة (أبو فيس)، وهنا يصدر فليكو فسكى بعض الأحكام من قبيل "وكان

حكم الهكسوس قاسياً، ولم تدرك قلوبهم شفقة ولا رحمة"، ثم يضيف "ولم تقتصر هيمنة الأمو الهكسوس على مصر وحدها فقد وجدت جعارين وأختام رسمية في العديد من البلدان تحمل اسم الملك المصري (أبوب = أبو فيس) والملك (خيان)، كما وجد اسم خيان أيضاً على تمثال لأبى الهول اكتشف في (بغداد)، وعلى غطاء آنية في (كونسوس) بجزيرة (كريت)، كما وجد نقش يعود للملك (أبوب) ذكر فيه "أن أبوب الملك، ست رب حواريس، قد أخضع كل البلاد تحت قدميه .. ووجد بعض المؤرخين أنفسهم مجبرين على قبول حقيقة أن الهكسوس كانوا أصحاب إمبراطورية كبرى، ولو لفترة محددة من الزمن .. وطبقاً لمانيتون .. كان آخر ملوك الفراعنة الهكسوس ملكاً قوياً يدعى أبوب الثانى " .

ولأن الإسرائيليين غادروا مصر وقت دخول الهكسوس، ولأنهم لقوهم في سيناء، ولأن تلك النظرية لاتجد نصاً توراتياً واضحاً بشأنها، فإن (فليكوفسكى) يعثر على ذلك النص، ويكتشف أن الإسرائيليين قد عرفوا بالفعل الكارثة الحادية عشرة التى حلت بمصر ممثلة فى غزو الهكسوس، والنص فى سفر المزامير، ويقول : "أرسل الله عليهم حمو غضبه سخطاً ورجزاً وضيقاً، جيش ملائكة

أشرار - ٧٨ : ٤٩ « ، ويكتشف أن تعبير (ملائكة أشرار) خطأ فى القراءة والترجمة، حيث (ملائكة) و (ملوك) تتشابهان فى العبرية، ثم تأتى زيادة حرف (ألف) إلى كلمة (رعاة) فتحولها إلى كلمة (أشرار)، ومن ثم فقد كان الأصل: أرسل الله عليهم جيش ملوك رعاة، وهو الأصلاح المأخوذ من كلمة (هكسوس) » .

وتأسيساً على كل تلك القرائن، وإعمالاً لتلك الشواهد الغزيرة، ينتهى (فليكوفسكى) إلى إعادة التزامن الصحيح للتاريخ، ويعيد إليه أربعمئة سنة مفقودة بين نهاية الدولة الوسطى وبداية الدولة الحديثة، إضافة للمئتى عام المفترضة من قبل المؤرخين لتلك الفترة الزمنية وهو الفرض غير المقبول منطقياً. ليصبح الزمن ما بين سقوط الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة القديمة، وبين الأسرة الثامنة عشرة أولى أسر الدولة الحديثة، ستة قرون كاملة، ومن ثم يكون زمن التيه، ويشوع، والقضاة، الذى استغرق فى تاريخ إسرائيل أربعة قرون، يقع فى توقيت واحد مع حكم الهكسوس العماليق لمصر، وتبقى المئتى سنة الأولى لأسر مصر متهاكة فيها يعرف بالعصر المتوسط الثانى.

ومن هنا يستمر (فليكوفسكى) فى دعم فرضيته ليسوق المزيد من الأدلة على صدقها، ويقف مع نص العراف (بلعام) بالتوراة،

والذى يمتدح فيه إسرائيل ويقول : "يجرى ماء من دلائه، ويكون زرعه على مياه كثيرة، ويتسامى فى ملكه على أجاج وترتفع مملكته.. ثم رأى عماليق فنطق بمثله وقال : عماليق أول الشعوب وأما آخرته فإلى هلاك - عدد ٢٤ : ٢٠،٧، ويستتطق (فليكوفسكى) ذلك النص مالم يخطر ببال أحد حتى اليوم، فعماليق أول الشعوب تشير أن العمالقة كانوا أصحاب إمبراطورية عظيمة، لكن آخرته ستكون الهلاك على يد بنى إسرائيل، و(أجاج) الملك بالنص ليس سوى (ابوب الثانى) آخر ملوك تلك الإمبراطورية، حيث كانت العبرية القديمة تحمل تشابهاً يؤدى إلى اللبس بين حرفى (ج) و (ب). ومن بردية ساليه يخرج (فليكوفسكى) بمدى الازدراء والاحتقار الذى كان يعامل به الهكسوس أمراء الولايات المصرية، وكيف حكمت تلك البردية عن رسالة مهينة من (أبوب الثانى) إلى (سقنن رع) أمير طيبة، وكيف "ظل أمير المدينة الجنوبية صامتاً، ثم بكى لوقت طويل، ولم يدر بم يجب على رسالة الملك أبو فيس" ومن ثم "قبض على الأمير المصرى، وساقه رسول الملك أبوب الثانى إلى حواريس، ونهاية البردية مفقود".

لكن الأمير (كاموس) ابن الملك الطيبى (سقننرع) قاد أولى عمليات المقاومة ضد الهكسوس العرب، بمعاونة قوات أجنبية، كما هو مسجل بلوح كارنارفون، كما أن قصة طرد الهكسوس محفورة على جدران مقبرة الضابط (أحمس)، وكان ضابطاً فى جيش الملك (أحمس) الذى حمل الاسم ذاته، أخى الملك (كاموس)، وقد قاد الكفاح ضد الهكسوس بعد أخيه، وهنا يقول (فليكوفسكى): " إن الأمراء المصريين المتمردين على حكم الهكسوس، لم يكونوا هم من حرر مصر، لكن مقاتلين أجنبى من خارج مصر هم المحررون الحقيقيون لها، فالنقش بمقبرة الضابط أحمس يقول : تابعت الملك سيراً على أقدامى فى حين ركب عجلته الحربية، فى طريقه إلى خارج الولاية.. كانوا هم يحاصرون مدينة حواريس، أظهرت بسالة فى القتال مترجلاً أمام سموه.. كانوا هم يحاربون من جهة قناة المياه فى حواريس، ثم نشب قتال جديد فى ذلك المكان.. وشاركت فى القتال مرة أخرى.. حاربواهم فى مصر هذه جنوب تلك المدينة.. ثم استطعت اقتياد أسير حى.. استولوا هم على حواريس وهم حاصروا شاروهين لاربعة أعوام، ثم أخذها جلالته " .

ويتوقف (فليكوفسكى) مع أولئك الأجانب المشار إليهم بإشار الغائب (كانوا هم) فى النص، ليشير إلى أنهم أصحاب الفضل الحقيقى

فى تحرير مصر من العرب العمالقة الهكسوس، ليقرنه مباشرة بنص الكتاب المقدس، حيث يقول (صموئيل) آخر قضاة إسرائيل، (شاول) أول ملوك إسرائيل: « هكذا يقول رب الجنوب : إني قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل، حيث وقف له فى الطريق عند صعوده من مصر، فالآن اذهب واضرب عماليق، واحرموا كل ماله (أحرموا اصطلاح توراةى بمعنى أبعدوا، والإشارة من عندنا) ، ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، وطفلاً ورضيعاً، بقرأً وغنماً، حملاً وحمراً... ثم جاء شاول إلى مدينة عماليق وكمن فى الوادى .. وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التى مقابل مصر وأمسك أجاج ملك عماليق حياً - صموئيل أول ١٥ : ٢ - ٨ »، ويعقب « كانت عبارة مدينة عماليق عقبة دائمة أمام دارسى التوراة.. فقد كانوا يفترضون أن العماليق ليسوا سوى قبيلة صغيرة.. والأدلة الوحيدة على موقع تلك المدينة هى العلامات الطبوغرافية لموقعها، فالمدينة حوصرت من جهة مجرى قناة للمياه، أو نهر - ناخال .. ولا يوجد فى كل تلك المنطقة سوى نهر وادى العريش ... حيث تجرى مياهه غزيرة بالشتاء، ويجف مجراه صيفاً » .

ونكتشف أن مدينة العماليق ليست سوى (حواريس)، وأن أجاج هو (أبوب)، وأن (هم) ليسوا سوى بنى إسرائيل بقيادة الملك (شاول)،

ومن ثم وجد (فليكوفسكى) أن من واجبه إعلان « أن هناك ديناً تاريخياً يدين به الشرق الأدنى لنيله حريته، وتخليصه من نير عبودية الهكسوس على يد شاول، لكن أعماله العظيمة لم تقدر، بل حتى لم يعترف بها، لقد كان سقوط حواريس وتدمير جيوش العماليق، تغييراً حاسماً لمسار التاريخ، ومن جديد نهضت مصر لتبنى قوتها مرة أخرى، وتستعيد إشراقها بعد أن تحررت من العبودية التي دامت مئات السنين، وكان محررها واحد من بين أحفاد اليهود الذين كانوا عبيداً بمصر » .

بل أن حصار (شاروهين) بعد ذلك حيث انسحب الهكسوس، والذي دام ثلاث سنوات لم ينته على يد المصريين كما يظن علم التاريخ التقليدي، لكن على يد أحد قادة جند الملك (داود) خليفة (شاول) والمعروف باسم (يؤاب)، والذي تتواتر عنه أسطورة تقول أنه اخترق بمفرده أسوار عاصمة العماليق، وقد كتب الضابط (أحمس) : « لقد حاصر هو شاروهين لمدة ثلاثة أعوام ثم أخذها جلالته » .

وقبل أن يصل (فليكوفسكى) إلى إغلاق القسم الأول والأساس الصلب لنظريته لايفوته القول : « لم يستطع الإسرائيليون أبداً أن

ينسوا معاناتهم في مصر، ولكنهم لم يحملوا أبداً أية كراهية للمصريين، أو للشعوب الأخرى في تلك المنطقة القديمة، لكن العماليق وحدهم هم الذين أصبحوا رمز الشر في نظرهم، ومن ثم هدفاً لكراهيتهم.. إن الشر الهائل في ذلك الشعب ظل يتكرر حتى الملل في آداب الفكر القديم، وكيف كانوا يمتصون دماء الشعب المرهق في تيه الصحراء (يقصد بذلك الشعب المرهق اليهود)، وكيف كانوا ينصبون الكمائن بكل خسة وجبن، ويستولون على الأقوات القليلة، وكيف كانت حقارتهم ووضاعتهم ووحشيتهم تظهر في مهاجمتهم للضعفاء في مؤخرة القافلة، وكانوا يبترون أعضاء وأطراف الجرحى ويمثلون بهم ويهرطقون ويجدفون بكفر صارخ، بقذف الأعضاء المبتورة من الجرحى نحو السماء، ويسخرون من الرب .. لقد خلف الهكسوس ذات الكراهية في نفوس المصريين، فقسوتهم البالغة، ووحشيتهم التي لا تعرف رحمة، تركت آثاراً من المستحيل محوها من ذاكرة الشعوب.. لقد كان قدر شاول أن يحمل مهمة تحرير إسرائيل ومصر على عاتقه، ولم يذكر المصريون إسرائيل بالتقدير المناسب، وأشار إليهم المصريون بـ(هو) و(هم) وكان ذلك بعض الظلم، وكانت مكافأتهم للإسرائيليين ما قام به المؤرخون المصريون بجمعهم الإسرائيليين مع المخربين الهكسوس في سلة واحدة، مع أن الإسرائيليين هم من طردوا الهكسوس من

مصر ومن حواريس.. وفى عالم الإغريق وإمبراطوريتهم لم توجد إشارة واحدة إلى كراهية عنصرية لليهود، حتى بدأت قصص المصرى (مانيتون) فى الانتشار والذئوع .. وحين عرف اليهود كسلالة منحدره من العمالق الغزاة المتوحشين .. وكانت هناك كراهية موازية لا تقل عنها ومتأججة على الدوام من نفوس اليهود وذاكرتهم نحو العمالق. إن الكراهية من الممكن أن تدوم وتمتد عبر الزمن حتى ولو لم يعد المستهدف بالكره موجوداً على ظهر الأرض. وكم كان يصبح عليه مقدار هذا الكره، إن لم يكن المكروهون قد ذابوا بشخصيتهم القومية من آلاف السنين فى شعوب شبه الجزيرة العربية .. لقد رأى المؤرخ المصرى مانيتون أن اليهود هم البذرة الخسيسة للطغاة المتوحشين.. وتسلفت تلك الكراهية إلى كل الأجيال.. إن اللعنة التى وجهت إلى العمالق تحولت لتتصب على بنى إسرائيل .. ومحيت ذكرى العمالق حتى لم يعد هناك من يعرف أن العمالق كانوا هم الهكسوس، واستمر الإسرائيليون يعانون أشد المعاناة بسبب تشويه حقائق التاريخ، وحملوا آلام إدراجهم فى سلالة العمالق، وبدأ ذلك العقاب التاريخى حين أطلق مانيتو أحكامه الخاطئة، مانيتو المصرى الذى تحررت أمته من الهكسوس على يد اليهود؟ ..

ومن هنا يبدأ (فليكوفسكى) مشواره الطويل لإعادة كتابة تاريخ العالم وترتيب فوضى العصور، مع الإصرار على معالجة ذلك التشويه الظالم الذى لحق بنى جلداته، وإلى هنا نوقفه، لنبدأ رحلتنا معه مرة أخرى من البداية، ورغم اعترافنا بقدرته العظيمة على البحث، واحترامنا لجهد الهائل، ووصفنا له بأنه رجل من نوع نادر وفذ. فإن ذلك لا يمنعنا من وصفه الآن بأنه أبرع رجل علم، تمكن من استخدام أدوات البحث العلمى لإجراء أروع بل وأمتع عملية تزيف وتلفيق وتزوير، فى تاريخ العلم والعالم.

التحدى

وعود على بدء، ومع مقدمة (عصور فى فوضى)، تلك المقدمة الهادئة المغلفة داخل طرح علمى لأهم الإشكاليات التى سيتناولها ذلك التنظير التاريخى للقومية الإسرائيلية، دون أن تبدو أية ملامح لتلك النعمة الشديد على التاريخ الذى أهمل شأن شعب إسرائيل، ورماهم بكل ما فى قاموسه من اصطلاحات عدائية فى كتاباته المتأخرة من بعد الميلاد، - لذلك استحق أن يعاد النظر فيه، لأنه بخطيئته كان خاطئاً - يوحى كاتبنا بمدى ما أصيب به من عسر ومشقة وهو يبحث فى مدونات العالم القديم، وهو لا شك محق فى ذلك تماماً. لكن الإيحاء يتوسع فى دلالاته، حيث يصف الكاتب نفسه بأنه سيكون كرجل المباحث، الذى لا يهمل فى بحثه وراء الجريمة شيئاً مهما بدا تافهاً و " حتى لو كان شعرة على عتبة نافذة "، لكن ما وضح لنا بعد أن أتممنا قراءة العمل، وسعينا وراء مصادر، وفى ضوء معرفتنا بالتراث، أن الرجل فعلاً لم يهمل شعرة على عتبة نافذة، ولا خطأ عفويًا على حائط، ولا كومة قمامة ملقاة فى ركن غرفة، لكنه أهمل عن قصد مبيت وعن رغبة، عوارض خشبية تسد الطريق، وألواحاً من حديد لا يمكن النفاذ من خلالها، وهنا مكن خطورة الكتاب على قارئ ذى اهتمام عام بشؤون التراث، لا يمتلك

أدوات كافية للتعامل مع الكتاب ومؤسساته، وإمكانيات اللعب بنصوص ذلك التراث لعبة تليفقية، ذات أغراض سياسية عنصرية، مغلفة بأردية شديدة الكثافة، ومُخاطبة بقدر عظيم من الذكاء، مادتها عقلانية ساطعة وعلم باهر. لذلك كان الرجل فخوراً بعمله إلى حد وصفه في مقدمته أنه «إنجازه الأعظم على الإطلاق»، ثم لا يلبث أن يقدم تحديه للجميع سافراً: «وأنا أقدم هنا معركة كبرى للتاريخيين والمؤرخين» ورغم أن الرجل يطلب عراكاً، ويقفز على الحلبة طول الوقت دون أن يستقر ودون أن يلهث، مستفزاً الجميع داعياً إياهم للنزال. فإننا فيما نعلم، وفي حدود بلادنا على الأقل، لم نجد من قبل النزال، إنما ما بدا حتى الآن هو القبول بقفازه المرمي على الوجوه، ثم يقول عن عمله «إعادة بناء التاريخ القديم للعالم من جذوره» إنه عمل «غير مسبوق بمحاولات مثيلة» بل «إنه ليست هناك أية فرضيات قوية، ولا أدلة ولا براهين، يمكنها أن تواجهه أو تدحض إعادة صياغة التاريخ التي أوردناها».

لكن؛ وفق أى معيار يقوم بإعادة كتابة التاريخ وإعادة تزيينه، مادام الأصل المصري فاقداً السلامة؟ إنه كما عرضنا سار بنا مع وثائق وبرديات وحفائر وأحداث وكوارث، لكن كان يلقي بنا كل مرة في قبضة التاريخ الإسرائيلي، حيث ينتهي إلى قياس كل شئ بمعيار

التاريخ اليهودى وحده، والكتاب الذى دون ذلك التاريخ، الكتاب اليهودى المقدس وحده، والعقل الذى صاغه، العقل اليهودى وحده. لكنك لا تلمس بطول كتابه نزوعاً إيمانياً حقيقياً، ولا يبدو الرجل كحبر من الأحبار، ولا حتى ذا ميول دينية، بل إنك تلمس رغبة الرجل فى ألا يبدو رجل دين تقليدى، بل يكاد يفصح أحياناً بإلحاده. لكن لأن قيام الدولة الإسرائيلية حالياً، لا يجد أى دعائم من مقومات الكيانات السياسية، ولا يجمع عقدها المتنافرة سوى الدين وتلك الذكريات التاريخية، كأسس للقومية الإسرائيلية. فإن (فليكوفسكى) بكتابه هذا. سجل أعظم نقطة فى رصد القوميات العنصرية، بقراءة موثقة، وتنظير قل أن يوجد مثيلاً له لتاريخ إسرائيل المقدس، وبحيث تطابق ما كنا نظنه خرافة وميثولوجيا، مع وثائق أخرى رصدت ما بدا أنه حدث موضوعى واقعى، سحبت مصداقيتها على النصوص التوراتية فى أدق تفاصيله، وفى منمنات تلك التفاصيل وفسيفسائها، حتى بدا كتاباً لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وربما من باب التحدى لمن يفكر فى النزال، قام الرجل يرونا بمغامراته التى صاحبت نشر كتابه الأسبق (عوالم فى تصادم)، ويقول :

"إن مجموعة العلماء التى هاجمت عوالم فى تصادم وأدانت مؤلفه، ولعدم قدرتهم على إثبات أن الكتاب أو حتى جزءاً منه قد جانبه الصواب، أو أن إحدى الوثائق الواردة به مزيفة، فإن تلك المجموعة

من العلماء انزلت إلى موجة من التعصب الأعمى، بلا أدنى أسس علمية، وحاولوا وأد الكتاب في مهده، وهو بين يدي أول ناشر، بالتهديد بمقاطعة كل ما تنتجه تلك الدار من كتب ومراجع.. وبلغ الأمر حدته حيث أجبروا عالماً وكاتباً صحفياً على الاستقالة من عملهما، لكونهما اتخذاً موقفاً موضوعياً علنياً من الكتاب، مما حدا بكثير من المفكرين الأكاديميين بالجامعات، إلى السعي لقراءة كتاب عوالم في تصادم سرأ، والاتصال بكاتبه في الخفاء ..

نحن إذن بإزاء كاتب ألجأ علماء الدنيا للتخلي عن موضوعيتهم وحيادهم ووقارهم العلمي، والتحول إلى استخدام أساليب قمعية إزاءه، عندما لم يجدوا لديه تزييفاً في الوثائق، أما نحن، فنعقب " كاد المريب يقول خذوني " لأننا رغم كوننا غير محسوبين على علماء العرب، ناهيك عن علماء الدنيا، قد كشفنا في كتابه (عوالم في فوضى) تزييفاً، لكن من نوع جديد وخطير.

أما لماذا كل ذلك الهجوم الذي تعرض له كاتبنا؟ فيرجع - فيما يوعز به للقارئ - إلى أن كتابه احتسب مروقاً على الدين، وتجديفاً على الملة اليهودية، وهو ما يتضح بقوله في المقدمة : "لقد كان حراس العقيدة، وما زالوا، متحفزين دوماً لمهاجمة أى جديد وإدانتهم بأساليب رجعية، بعيدة عن الحجة الموضوعية وعن النقاش، فضلاً

عن تحقيق صاحب كل فكر جديد في أعين الرأي العام .. وفي مسح من يريدون إظهاركم هي خطأ تلك الأفكار المتمردة والمنشقة عن الدين «، وهكذا فالكاتب يطمئن القارئ على أمرين : الأول : أن الذين يهاجمونه رجال دين تقليديون متعنفون يترصدون لكل جديد بعقلية متخلفة، وبذلك يكسب اشد القوى استنارة، لأن معنى ذلك اتخاذه موقفاً، علمياً موضوعياً لا ينحاز لرأى أو عقيدة. أما الثانى، فهو أنه سيقول ما يعتبر تجديفاً في عرف بنى ملته، وأنه قد قبل بذلك الموقف التزاماً من جانبه لوجه الحق بغض النظر عما سيعضب ومن سيرضى.

وبين المقدمة والتمهيد، يعمد إلى فصل يبدو كنتوء مقصود تحت عنوان (اعتراف بالفضل)، وهو ما اعتدنا كباحثين إدراجه بالمقدمات لتقديم التقدير لمن ساهم في إنجاز البحث وقدم العون للباحث، لكن (فليكوفسكى) قصد ما هو أكثر من تقديم الامتنان، حيث أورد مجموعة أسماء لعلماء ومتخصصين في صيغة الشكر على المعاونة، لكنها ملتبسة بما يشير إلى موافقتهم على عمله واقتناعهم بفروضة ونتائجه، وبشكل لحظنا فيه ما لا يبدو واضحاً من التواء يعسر مواخذته عليه، وخرجنا بنتيجة مفادها أنه لا العلماء المذكورون وافقوا وأيدوا... ولا هم - في ضوء الأسلوب الملتوى - بقادرين على

الاحتجاج، ولا القارئ سيلتفت إلى الخدعة المبيتة، ونضرب لذلك أمثلة لأهميتها كنموذج لأسلوبه الذى احتذاه بطول كتابه :

يقول " أشعر بامتنان أيضاً للدكتور (والتر فيديون) بمعهد دراسات آسيا بنيويورك، الذى لم يتوان عن مد يد العون بمعلوماته الغزيرة عن الأدب القديم، ويزيد من إحساسى بالعرفان أنه لم يحاول أبداً أن يقحم نفسه بأى شكل على فرضياتى الخاصة بالكتاب، ولقد اقتضى الأمر ما يزيد على ستة أعوام، حتى اقتنع وأقر بأن التاريخ التقليدى كما نعرفه، غير مبنى على أسس ثابتة. "، ولا أخفى القارئ سراً، أنى رغم اهتمامى الواسع بالتراث القديم، فلم يصادفنى إطلاقاً عالم باسم (والتر فيديون)، واحتسبت ذلك للوهلة الأولى تقصيراً ينبغى تلافيه. أما كلام فليكوفسكى فيشير إلى اقتناع (د. فيديون) أخيراً برأى (فليكوفسكى) وموافقته على إعادة صياغة التاريخ المبنى على أسس غير ثابتة، ومع قراءة متأنية تكتشف أن (فيديون) كان لديه تحفظات وآراء ترفع بها عن الإقحام فى عمل (فليكوفسكى) ، لكن الأهم هو أن فيديون احتاج ست سنوات ليقتنع أن التاريخ القديم يقوم على (أسس غير ثابتة)، أما التعبير الأصدق (غير يقينية أو قاطعة)، وهو أمر معلوم لدى جميع العارفين بذلك التاريخ، ويعلمون أيضاً أن ذلك ليس لعيب فيه أو خلل ينتظر (فليكوفسكى) ليصلحه، إنما هو ناتج

حلقات مفقودة لم تقدمها لنا الحفائر الأركيولوجية حتى الآن، والتي تقدم كل يوم جديداً يملأ مثل تلك الثغرات. والقول باحتياج (فيديون) لست سنوات للاقتناع بفرضية الكتاب -، أسلوب فيه التواء يسمح بتسرب المعنى الآخر للذهن، لكن إن كان حقاً، قد احتاج (فيديون) ست سنوات ليقتنع بأمر معلوم، فربما فسر لنا ذلك أننا لم نسمع به من قبل بين العلماء المتخصصين.

ثم يقول : " كما أدين أيضاً للدكتور روبرت هـ. فايفر المرجع الفذ لدراسات الكتاب المقدس، ومدير بعثة التاريخ القديم بجامعة بوسطن، ومحرر جريدة الكتاب المقدس، ومؤلف العمل المميز عن العهد القديم (لاحظ الألقاب التي يعدها فليكوفسكى للمرجع الفذ، محذراً فيما يبدو أى متواضع مثلى لا يحمل مثلها من محاولة التعرض له)، وهو من الشخصيات التي يركن إلى آرائها.. إن فايفر اقترح على أن أحاول إثبات فرضياتى على أسس من الوثائق الأثرية، وهو ما أخذت به "، وهنا واضح من رؤية فايفر ما يشير إلى خلل تلك الفرضيات، وعدم قناعته بما قدم كاتبنا، مع رفضه التورط بالتأييد لفليكوفسكى.

وللأختصار نصل مباشرة إلى قوله : " كما قرأ أيضاً البروفيسور ج. جارستانج المنقب فى آثار جيركو، النسخة الأولية

للقسم الأول (الذى نحن بصددده)، وأقر بأن وصف الوثائق المصرية القديمة للكارثة التى صاحبت الخروج، يتطابق تماماً مع وصف الكتاب المقدس، مما يثبت أنهما وصفان لحدث واحد"، وهنا أرى من واجبى الإشارة إلى أن (جارستانج) هذا هو صاحب كشف لجعران فى (جيركو) المزعوم أنها (أريحا)، وأن هذا الجعران المصرى عليه كتابة تشير بالقطع وباليقين أن النبى موسى هو ابن الفرعونة (حتشبسوت). بينما نرى نحن من جانبنا أن تلك كانت أكبر تلفيقة فى تاريخ علم الآثار، وكارثة علمية حقيقية، ولا يمكن أن تتفق بأية حال مع بقية الشواهد والقرائن التى جمعناها لكتابنا (النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة). ولأن عملنا هذا مازال قيد البحث، فمن الأفضل تأجيل نشر الفصائح الآن، ومؤقتاً، لأننا مع (فليكوفسكى) مع ما هو أكثر من فضحية. وعليه يبدو أننا قد غامرنا بنزول الساحة أمام (فليكوفسكى)، وقبلنا التحدى، الذى لا نقدم فيه الآن بديلاً لفروض وطروحات فليكوفسكى، قدر ما سنثبت أن تلك الفروض والطروحات قامت على تلفيق وتزوير، إحتاج كشفها صبراً وجلداً، ربما لا يصل إلى صبر (فليكوفسكى) وجلده على البحث بطول كتابه، لكنه كان كافياً لتقويض كل ما قدمه لتأسيس خرسانته المسلحة، بحيث إذا نجحنا فى مهمتنا تلك فإن ذلك سيكون كفيلاً بسقوط كامل التنظيرة التاريخية للقومية الإسرائيلية، فى كتابها (عصور فى فوضى)، التى تم وضعها

أصلاً لشعب إسرائيل ودولته الحديثة، وللجميع لا شك. لكن في المقام الثاني بعد إسرائيل فهي موجهة بشكل خاص للمصريين، الذين يجب عليهم أن يلحظوا في ضوء ما قدمه، أن أنهيارهم، وتحولهم من دولة عظمى وحضارة كبرى قديمة، إلى دولة من دول العالم الثالث الآن، يجب أن يقارن فيه الحال بالماضي، وإن صورة اليوم طبق أصل ماض، وأن ذلك السقوط لم يكن إلا ناتج سيطرة بدوية عربية متخلفة، تلقى بمرآتها في مرآة القرون الخوالي، أيام احتلال أسلافهم الهكسوس لمصر. وأنه كما تحالف (شاول) أو ملوك إسرائيل مع الفرعون (أحمس) للقضاء عليهم، فلا خلاص إلا بتحالف مماثل للقضاء على هكسوس العصر، بما يعيد للمملكتين : الإسرائيلية والمصرية ماضيهما التليد، وكان هذا قمة أهداف العمل غير المعلنة. لكننا قبل البدء في التعامل مع (فليكوفسكى)، نؤكد مرة أخرى أنه عقل من نوع نادر، ولا يصح بحال مقارنته بالمضحكات المبكيات فيما قدمه باحثونا بذات السبيل عن تاريخ بنى إسرائيل وعقائدهم، وهي أعمال تنضج بالعنصرية وتدعى العلمية، لكنها بجوار عمل كهذا تصبح لوناً من خطب أيام الجمعة، وصفحات الإنشاء القلقشندى، الذى لا يؤثر إلا منفراً، ناهيك عن سطحيته وسذاجته، وما يتركه من انطباعات أن تلك الأعمال كانت لديهم اهتماماً جانبياً، لأنه لا يصح – إيمانياً – إلا الصحيح، وأن عقائد بنى إسرائيل وتاريخهم لا يحتاج

لأكثر من جرة قلم وينتهي الأمر^(١)،. هذا بينما كرس (فليكوفسكى) عمره كله من أجل عمله هذا، فأين نحن من ذاك؟ استفسار - لا شك - أشد سذاجة من أعمال باحثينا.

لقد بدأ (فليكوفسكى) من حدث الخروج، والأحداث التى صاحبت ذلك الحدث، وبنى كل عمله على التاريخ لزمن الخروج، الذى استدعى بدوره إعادة النظر فى تاريخ المنطقة برمتها، بعد كشفه لخطأ هائل، سببه ذهاب التاريخ التقليدى إلى كون ذلك الخروج قد حدث فى عصر الدولة الحديثة (الإمبراطورية) بينما هو حسب إعادة الصياغة والتزمين، ينبغى الرجوع به إلى العصر المتوسط الثانى، مع نهاية الاسرة الثانية عشرة فى الدولة الوسطى، مما يشير إلى أن دخول بنى إسرائيل إلى مصر يجب أن يكون قد سبق ذلك الزمن بفترة مناسبة، معتمداً خلال ذلك كله على قياس تلك الفترة الزمنية مقارنة بالكتاب المقدس، الذى أثبت صدقاً مذهلاً، وتطابقاً يفوق الوصف مع الوثائق التى أكتشف (فليكوفسكى) أنها تشهد بأحداث الخروج.

(١) انظر مثلاً : د. صابر طعيمة، التاريخ اليهودى العام (فى مجلدين فاخرين ومذهبيين)،

دار الجيل ، بيروت ، ط ٢، ١٩٨٣.

لكن ماذا عن الدخول ؟

إن (فليكوفسكى) لا يتعرض لهذا الأمر بالمرة ولا مرة؟! وهو الأمر الذى يضع عدداً من علامات الاستفهام، ودونه لا يمكن البدء فى التعامل مع حدث الخروج وباقى عمل (فليكوفسكى) المثير. وحدث الدخول يبدأ من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر، وأبيهم (يعقوب) الملقب بإسرائيل، ومع بداية الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين، حيث يلقى الأسباط المكرمين بأخيهم المميز (يوسف) فى بئر، حيث تلتقطه قافلة تجار (إسماعيليين) أو (مديانيين) - يتضارب الكتاب المقدس هنا - يبيعونه لقوطيفار رئيس شرطة مصر إلى أن يعلم الفرعون بقدرات يوسف على التبصير وقراءة الطالع فى الأحلام فيقربه منه. وبمهارة يوسفية يتمكن ابن إسرائيل ذو الجمال الأخاذ من الوصول إلى كرسى وزارة خزانة مصر، ويرسل فى طلب أبيه وأخوته ليقيموا معه فى بلاد النيل، ويستقر الرعاة فى مصر، وكانت "جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون ٤٦ - ٣٧". و "سكن إسرائيل فى مصر فى أرض جاسان ٤٧ : ٢٧" ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشرة سنين فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر ٥٠ : ٢٦ .

ثم يستكمل سفر الخروج قصة الدخول، فيقول 'وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً، وامتألت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هل نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأقوالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس ١ : ٧ - ١١"، ثم يلي ذلك سرد الاحداث المعروفة مع ظهور (موسى) من نسل يعقوب (إسرائيل) حتى الخروج الإعجازي، وحسب النص التوراتي اليوناني المعروف بالسبتواجت (السبعيني)، فإن مدة بقاء بنى إسرائيل فى مصر كانت ٢١٥ سنة، أما النص العبرانى المازورى وهو الأصل الذى ترجمت عنه النسخة العربية المتداولة الآن، فيذهب إلى أن مدة بقاء بنى إسرائيل فى مصر استغرقت ٤٣٠ سنة وتشهد على ذلك عدة نصوص توراتية، منها بالنص العبرانى : "ودور ربيعى يشبوا هنا" وتعنى "فى الجيل الرابع يرجعون إلى هنا"، وقد احتسبت كلمة (دور) بمعنى مئة سنة كاملة، بدليل نص آخر يقول فيه الرب لإبراهيم، "إعلم يقينا أن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم فيذلّونهم أربع مئة سنة —

تكوين ١٥ - ١٣"، وبالاستناد إلى نص آخر واضح تماماً يقول:
 "وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر، فكانت أربع مئة سنة
 وثلاثين - خروج ١٢ - ٤٠"، هذا بينما يحدد لنا الإصحاح السادس
 من سفر الخروج أسماء لأربعة أجيال فقط من نسل يعقوب عاشت فى
 مصر إلى زمن الخروج، فقد أنجب (لاوى) أخو يوسف وابن يعقوب
 (كوجات)، وأنجب كوجات (عمران) وأنجب عمران (موسى) الذى
 قاد رحلة الخروج، ولو افترضنا أن كلاً منهم قد أنجب ابنه وله من
 العمر خمس وعشرون عاماً، فإنهم يكونون قد لبثوا فى مصر حوالى
 مئة سنة ربما تزيد قليلاً، وليس اربعمائة سنة، ذلك الزمن المعمول به
 لدى الباحثين التوراتيين لمدة بقاء الاسرائيليين بمصر، وهو رقم
 (أى الاربعمائة سنة) بجمعه لستمائة ساقطة من تاريخ (فليكوفسكى) ،
 يذهب بنا إلى عصر بناء الأهرام، ويكون بنو إسرائيل اليوم، هم فعلاً
 أحقاد بناء الأهرام، الذين استعبدوا فى مصر.

هذا بينما على الجانب الآخر، يعطى لنا سفر الخروج عدد
 الخارجين من بنى إسرائيل فى قوله: "فارتحل بنو إسرائيل .. نحو
 ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد ١٢ : ٣٧"، وبإضافة
 الأولاد والنساء ربما ارتفع الرقم إلى أكثر من مليون، وربما ارتفع
 إلى مليونين إذا أخذنا بالاعتبار بقية النص "وصعد معهم لفيف كثير

جداً أيضاً - ١٢ : ٣٨، وإن كان لا يحدد جنس هؤلاء اللقيف الذين لن يكونوا بالطبع جنساً آخر غير المصريين، بما يشير إلى خروج أعداد من المصريين مع الخارجين.

وهكذا فإن (فليكوفسكى) لا يتعرض بالمرّة لهذه الإشكالية، التي دفعت المؤرخين إلى قرن بنى إسرائيل بالهكسوس بالنظر إلى عدد الخارجين الهائل، وهو ما كان مناط احتجاجه ورفضه، وقد أسس هؤلاء المؤرخون رأيهم بالإضافة إلى عدد الخارجين، على الزمن الذى استغرقوه بمصر وهو أربعة قرون، مع الأخذ بالحسبان أن رقم الخارجين لا يتناسب بحال مع سبعين فرداً دخلوا مصر وعاشوا فيها لأربعة أجيال فقط. هذا بينما أهمل (فليكوفسكى) مسألة الدخول بالمرّة، حتى لا يتعرض لإشكالية : كيف ينجب سبعون شخصاً ما يزيد عن مليون شخص خلال أربعة أجيال فقط، وهو ما كان ممكناً أن يضطره إلى الأخذ بأحد احتماليين، لا بد أن يكون الكتاب المقدس بموجبه كاذباً فى الاحتمال الآخر.

- فإما أن يأخذ بكون الخارجين نسلًا لأربعة أجيال فقط، وفى هذه الحال لن يزيّدوا بحال عن خمسمائة شخص، مع افتراض فحولة لا تبارى فى الرجال، وخصوبة عظيمة فى النساء، وهو - أساساً - ما لن يلتقى مع فروضه ونتائج، حيث أنتهى إلى أن

(شاول) ملك اليهود، مع مئات الألوف من جنوده، وهم من دمروا عاصمة الهكسوس (حواريس) وحرروا مصر.

- وإما أن يأخذ بالاحتمال الثانى الذى يؤيد فروضه، وهو أنهم عاشوا فى مصر أربعمئة سنة ليتيسر لهم إيجاب هذا العدد الهائل، لكنه فى هذا الحال كان لابد أن يقر بنظرية أنهم كانوا هم ذات عين الهكسوس.

وحتى لا يقع بين شقى الرجا، فقد أهمل تماماً الإشارة إلى حدث الدخول، وهو الأمر الذى ربما غرب على بال القارئ، وسط زحمة الإثارة وكم الإدهاش، لكنه بتعمده هذا أثبت غرضية واضحة بعيدة عن روح العلم، وأول شروط العلم هو الأمانة فيما نعلم، وهذا أول الغيث الفليكوفسكى، كان لابد من الإشارة إليه، قبل البدء فى مناقشة فروضه وطروحاته ووثائقه وبراهينه واحداً واحداً.

ونعود الآن لكلامه «إننا سنجد أنفسنا مضطرين للإقرار وباعتراف صريح مباشر، أن الكلمات - فى الكتاب المقدس - تعنى ما نقوله تماماً» لنجدها حسب ما أوردنا الآن لا تعنى ما تقول، ولا تلتقى مع أى فروض، وكان كلامه تمهيداً للاستشهاد بالنص الذى أورده هكذا «ارتجت الأرض.. وارتعشت أسس الجبال.. تحركت

واهتزت.. دخان ونار.. فظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة « (أسقط هنا الإشارة إلى موضع النص بالكتاب المقدس؟) ».

هنا عمد (فليكوفسكى) مباشرة إلى النص التوراتى الذى رآه أهلاً لتصوير الكارثة التى صاحبت الخروج، وربما مر القارئ على النقاط الأفقية بين العبارات مرور الكرام، وهى فى عرف الباحثين مواضع لجمل أو فقرات تم الاستغناء عنها لعدم صلتها بالموضوع، وحتى لا تصرف ذهن القارئ عن جوهر الموضوع، وهى إحدى أدوات البحث العلمى ولا أعترض، لكن كل الاعتراض يكون عندما نعلم أن للكاتب مقاصد غير أمينة، وأنه قد عمد إلى الإسقاط والحذف لأن المحذوف كان ممكناً أن يتعارض مع فروض الكاتب وما يريد الوصول إليه، باختصار هى انتقائية وعدم أمانة واضحة، وللتأكد إليك النص الأصلى من الكتاب المقدس :

« وفى ضيقى دعوت ربى، وإلى إلهى صرخت،
فسمع من هيكله صوتى، وصراخى قدامه دخل أذنيه،
فارتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال، ارتعدت
وارتجفت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من
فمه، أكلت جمرأ، اشتعلت فيه، طأطأ السماوات
ونزل وضباب تحت رجليه، ركب على كروبو

وطار، وهف على أجنحة الرياح، جعل الظلمة ستره،
 حول مظلته ضباب المياه وظلال الغمام، من الشعاع
 قدماه عبرت سحبه، برد وجمر ونار، أرعد الرب
 من السماوات والعلی، أعطى صوته برداً وجمراً
 وناراً، أرسل سهامه فشتتهم، وبرقاً كثيرة فازعجهم،
 فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة من
 زجرك يارب، من نسمة ريح أنفك، أرسل من العلی
 فأخذنى .. المزامير ١٨ : ٦ - ١٦ .

هذا هو النص، وقد عمدنا إلى إبراز ما انتقاه (فليكوفسكى)
 ببنت مميز، انظر مثلاً " صعد دخان من أنفه ونار من فمه "، أصبحت
 فى النص الذى استشهد به " دخان ونار " حتى تشير إلى صورة
 الكارثة التى صاحبت الخروج كما صورها، ولا بأس علينا إن لفق
 الرجل فى نصوص الكتاب المقدس، لأن بنى ملته أدرى بالنصوص
 الأصلية، لكن البأس أن زور علينا وعلى العالمين!!

واضح أن الرب (يهوه) هنا استجاب لدعوة الداعى بغضب،
 ولغضبه اهتزت الأرض والجبال، وفى حنقه ترك عرشه السماوى
 وركب كروباً (الكروب نوع من الثيران المجنحة، وهى بالقلب
 اللسانى - الميتاتيز- تصبح بروكاً أو براقاً)، وهبط ينفث غيظه دخاناً

من أنفه وناراً من فمه. وهى صفات اعتيادية لرب التوراة يعرفها جيداً المعتاد على التعامل مع المقدس الإسرائيلى، فعادة ما يظهر الإله فى صورة الثنانيين، وهى الصورة التى دفعت الباحثين، ودفعتنا (فى كتاب : منابع سفر التكوين) إلى جمع الأدلة لتأكيد أنه ليس أكثر من رمز لقوى بركانية، لكن فليكوفسكى الذى انتوى أن يجد لكل كلمة بالتوراة نظيرها فى الواقع وفى التاريخ وما يتبع ذلك بالضرورة من موضوعة النص التوراتى وعقلنته، فقد قام من البداية باستبعاد كل ما يمكن أن يعطى دلالات أسطورية، هذا ناهيك عن كون هذا النص تحديداً من النصوص التى كتبت متأخرة عن كتابات أخرى بالكتاب المقدس، ويذهب الباحثون إلى احتمال كتابتها إبان أسر اليهود فى بابل أو ربما قبله بقليل، أى أنها لا ترقى أصلاً لعصر قائلها النبى (داود) فى الألف الأولى قبل الميلاد. وحتى (لو) كانت نسبتها لداود صحيحة، وحتى (لو) كانت نسبتها للألف الأولى قبل الميلاد، وما قبلها بقليل صحيحة، وحتى (لو) دونت وقتها فوراً (بالفرض)، وفى كل (لو) كسر لحقيقة علمية، فإن النص يبعد عن زمن الخروج، وحسب تزمينه هو للعصور حوالى ستة قرون كاملة، فهل يصلح للشهادة على واقعة مضى عليها ستمائة سنة؟ مع ملاحظة إن كاتبنا لم يشر بالمرّة إلى كل تلك الملابس المحيطة بالنص، وإنما أورده كما لو كان شهادة شاهد عيان على الكارثة، أما الأجدر من كل هذا،

ويدفعنا لنصح القارئ بإلقاء تلك الشهادة فى أول صندوق قمامة يقابله، فهو ماجاء فى مقدمة ذلك النص ويشرح الظروف التى قيل فيها، حيث يقول : « المزمور الثامن عشر لإمام المغنين، لعبد الرب داود، الذى كلم الرب بكلام هذا النشيد، فى اليوم الذى أنقذه فيه الرب من أيدي كل أعدائه، ومن يد شاوول » .

ولإيضاح المقصود فى تلك المقدمة التى سبقت النص، نورد قصة من أطرف القصص التوراتية المقدسة، بإيجاز: بعد أن هزم الفلسطينيون بنى إسرائيل أيام القضاة، اجتمعت قبائل إسرائيل وطلبت من القاضى الكاهن (صموئيل) أن يختار لهم ملكاً كبقية الشعوب، يجمع صفوفهم وينظمهم ويقودهم بأسلوب الجيوش النظامية لحرب الفلسطينيين، « فالآن أجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب — صموئيل أول ٨ : ٥ »، فاختار لهم (شاوول) كأول ملك لإسرائيل، وكان أهم صفاته التى أهلته للملك، أنه كان « شاب، وحسن الصورة، ولم يكن رجل فى بنى إسرائيل احسن منه، من كتفه فما فوق كان أطول من جميع الشعب — ٩ : ٢ »، ودخل (شاوول) عدة حروب منها حربه مع العمالقة التى أهتم بها (فليكوفسكى)، لكن شاوول أبقى على الغنائم من الأطفال والبهائم، وأطلق سراح زعيمهم (أجاج) بعد إذلاله وكسر شوكرته، فغضب يهوه على (شاوول)، لأن أوامر الرب كانت:

«أذهب واضرب عماليق، وحرّموا (أى أبعدوا، وهو اصطلاح تواراتى معروف ومتواتر) كل ماله، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقرأ وغنماً، جملاً وحماراً - صموئيل أول ١٥ : ٣، ٢» (لاحظ أن فليكوفسكى لا يأتى أبداً على ذكر بريرية بنى إسرائيل الوحشية تلك بالمرّة بطول كتابه، ولا يذكر شيئاً عن إبداتهم للرجال والنساء والاطفال حتى البهائم، لأى شعب يوقعه سوء الحظ فى أيديهم، لكنه ينعى وينعب طوال كتابه على العرب الهكسوس، دونما دليل واضح على وحشية مشابهة اتسم بها الهكسوس تشابه وحشية وقسوة بنى إسرائيل وربهم يهوه).

المهم أن الرب يغضب على (شاول) لرحمته بملك العماليق (أجاج)، ويسلط عليه عفريةً يلبسه، لذلك احتاج شاول إلى إقامة حفلات الزار بالطبول والزمور لتصرف عنه العفاريت، وكان رجل الزار هو (داود بن يسي إمام المغنين والزمارين)، الذى دخل البلاط ولمس حلاوته فطمح إلى الاستيلاء على العرش، بالتعاون مع الكاهن (صموئيل)، وبدأ الصراع الذى انتهى بمقتل (شاول) وتسلق (داود) سدة الحكم، ومن هنا قام (داود) يغنى على مزمارة تلك الأنشودة، التى يقدم فيها الشكر للرب عرفاناً، ولا علاقة لهذه التزميرة البتة بحدث الخروج، وقد أرفق (فليكوفسكى) معها شهادات أخرى،

كالاستشهاد بمقاطع من سفر (أيوب) المتأخر بدوره عن الأحداث بما لا يقل عن ألف عام، من قبيل "وهو المزعزع الجبال .. إلخ"، وهى عبارات تجدها فى التوراة بطوله، أو فى أى نص دينى فى أى دين آخر لتمجيد عظمة الإله، أى إله، وتصوير قدراته على اللعب بأركان الطبيعة الثابتة.

وهكذا يعزف (فليكوفسكى) مع داود على مزماره مرة، وينوح مع بكائيات (أيوب) على حاله المتهور وتوقعه تدخل الغضب الإلهى مرة أخرى، بنزوع غير خاف لنزع النصوص من سياقها، وتفرغها من دلالاتها الأصلية، لتشهد معه على حدث الخروج الأسطورى.

مناقشة الوثائق

١ - تزييف دلالات بردية ليدن :

من المعروف أن بردية ليدن (إيبور) قد نسخت من قبل شخص عاش في الأسرة الثامنة عشرة أو بعدها، عن أصل يعود إلى بداية العصر المتوسط الأول بعد الدولة القديمة، وقد انتهى إلى هذا الرأي - بقرائن لاتهم تفاصيلها إلا المصروولوجيين - السير آلن هنرى جاردنر)، ووافقة عليها بعد نشرة الترجمة كاملة جمهرة العلماء. والبردية على حالها الراهن تتكون من أربع عشرة صفحة، تشمل فقرات نثرية، وست قصائد شعرية طويلة، وربما كان من الأفضل هنا استحضار كلام (جاردنر) نفسه حول تلك البردية حيث يقول " أن الفوضى التي ظلت قائمة بصفة مستمرة أو متقطعة حتى الأسرة الحادية عشرة، إنما هي صورة لثورة حقيقية انطبعت في أعجب وأهم بردية من الأدب المصرى، الذى استطاع أن يبقى رغم مخاطر الأيام، ولا ترجع هذه البردية المحفوظة في مجموعة ليدن إلى ما قبل الأسرة الثامنة عشرة، ولكن حالة البلاد التي تناولتها بالوصف، لا يمكن أن تكون من وصف خيال قصاص أو راوية، ولاهى تصلح لأن توضع فى أى مكان من التاريخ المصرى، سوى الفترة اللاحقة

لنهاية الدولة القديمة، أما المقدمة فضائعة لسوء الحظ، وقد فقد معها كذلك تسجيل الظروف التي دفعت المتحدث لإلقاء موعظته، وهناك أول الأمر مجموعة كبيرة من الفقرات المختصرة تصور حالة الدمار والغزو، التي سقطت البلاد فريسة لها نتيجة عدوان مغامرين منحطى الأصول، وآسيويين يشقون طريقهم إلى الدلتا.. إنها تعكس صورة لما آلت إليه الارستقراطية المنهارة.. أما الملك الذى يهيل إيبور اللوم على رأسه من جراء ضعفه وتراخيه، فربما كان من آخر فرع بين الملوك المنفيين (آخرهم هو آخر ملوك الأسرة السادسة بيوى الثانى، والإضافة من عندنا) ومهما كان من أمر، فإنه لا نزاع فى أصالة بردية ليدن وصدقها، من حيث هى وصف لمصر فى العهد الوسيط الأول^(١).

وكان حرياً بأى باحث غير مختصص فى المصريات وأركيولوجيتها، أن يترك الأمر لأهل مكة فهم أدرى بشعابها، وربما جازله أن يأخذ بأرجح الشهادات، ليبنى بعد ذلك عمله أو كشوفه، لكن (فليكوفسكى) ليس باحثاً عادياً، لذلك رفض كل ما قيل بشأن تلك البردية وركن إلى احتمال ضعيف قدمه (زيته)، ومن ثم رفض نسبتها

(١) جاردنر (آلن هنرى) : مصر الفرعنة، ترجمة نجيب ميخائيل الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٧، القاهرة، ص ١٣٠، ١٣١.

للعصر المتوسط الأول، وألحقها بالعصر المتوسط الثانى، لأنها فى هذه الحال ستوافق ما ذهب إليه، بينما نحن سبق أن أقمنا عملاً كاملاً تأسس على إشارات لجاردنر وبيت وبرستد وإرمان وسليم حسن ونجيب ميخائيل وعبد العزيز صالح.. إلخ)، وهى شذرات تشير إلى تصوير البردية لحال يبدو كلون من ألوان الثورة، ثم أقمنا عمد العمل وجمعنا له الدلائل والشواهد مع مالحقها من استنتاجات، بحيث أثبتنا فى كتابنا (أوزيريس عقيدة الخلود فى مصر القديمة)^(١)، أن الظلم الذى حاق بالجماهير فى عصر بناء الأهرام، والفوارق الطبقيّة الهائلة التى اكتمل نضجها فى ذلك العصر، أدت إلى ثورة شعبية عارمة، كانت هى السبب فى سقوط الأسرة السادسة والدولة القديمة، وأن بردية (إيبور) ليست سوى واحدة من رجع الصدى الأدبى لتلك الأحداث الجسام.

وهنا أجدنى مضطراً لتقديم اعتراف متواضع، مضمونه أنى ما كدت أنتهى فى قراءتى الثالثة لكتاب عصور فى فوضى حتى كان (فليكوفسكى) قد أنشأ كل إمكاناته وبراعته فى دماغى، حتى وصلت إلى لحظة كادت تكون هى التسليم له بكل ما ذهب إليه، ومن ثم كان لابد أن أعيد النظر فيما سبق أن وصلت إليه فى أعمالى المنشورة

(١) د. سيد محمود القمنى: دار الفكر، القاهرة ط١، ١٩٨٨.

لى على الأقل، وأن أعلن فى أقرب مناسبة تراجعى الكامل عن كل ما وصلت إليه فى أبحاثى من باب أمانة واجبة علمياً، كما كان ينبغى إذا أردت الاستمرار أن أبدأ من نقطة الصفر مرة أخرى، واعيد النظر فى كل ما وصلت إليه حتى الآن فى قرأتى للتراث، وهذا طبعاً عدا كم المعاناة التى عشتها ما بين انتماءاتى الوطنية والقومية، وبين إصرارى على التزام نتائج العلم الصادق - وهى ما تصورت (فليكوفسكى) قد انتهت إليها - حتى لو خالفت أشد الأمور حميمية، وكان الحل هو العروف الكامل عن البحث والدرس بشكل نهائى.

ولولا محاولة أخيرة فى قراءة رابعة لعصور فى فوضى، تسعى للاطمئنان اليأس قبل أن أنفض يدى من شؤون البحث، قصدت منها مراجعة أخيرة لمكمن سقطاتى البحثية قياساً على نتائج (فليكوفسكى)، لأضعها بين يدى باحث صديق أطمئن لإخلاصه ليأخذ الخطوة المناسبة أقول: لولا تلك القراءة ما كان ممكناً أن أكتب هذه الصفحات، فسرعان ما بدأت تتالى اكتشافاتى لمكامن الشراك والفاخ، وبدأ التليفق يظهر ثم تزييف الدلالات آخذاً بعضه برقاب بعض، تلك الشراك التى تمت صياغتها وتربيتها بحرفية عالية الجودة، وبإتقان غاية فى الكفاءة.

وهنا لا أجد مندوحة من إطلاع قارئى على فكرة أساسية تتعلق بذات الوثائق التى استشهد بها (فليكوفسكى) من نصوص مصر القديمة، وأدت فيها تلك الوثائق - عندنا - دوراً يختلف تماماً، وسنكتفى بتلك الفكرة الأس فى عملنا (أوزيريس..) والتى استغرقتها ثلاث أسر فى الدولة المصرية القديمة (الرابعة والخامسة والسادسة)، وما أفرزته تلك الأحداث من بنى فكرية، مع عدد من القرائن والبراهين التى تشير إلى ثورة جماهيرية شعبية حقيقية، صاحبها حركة فكرية نشطة أفرزت للثورة تنظيرها ووضعت لها أيديولوجيتها، تلك الأيديولوجيا التى تمثلت فى ديانة جديدة، ورب جديد، يهتم بشؤون المستضعفين، ويضع أسس النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى طمح إليه الثوار، وقد تمثلت الأدلوجة فى ديانة الإله (أوزيريس)، وهو ما دفعنا لجمع عدد آخر من البراهين لدعم فكرة محورية، هى حداثة ذلك الإله بالنسبة للآلهة الرسمية وشبه الرسمية، وأن ظهوره وافق مقدمات تلك الثورة، مما استدعانا للرجوع إلى ما تركه العصر من تراث أدبى ينطق بما حدث، وكان على راس تلك الأدبيات (بردية ليدن).

ولا يبقى الآن سوى موقفين يجب أن يثبت أحدهما صدقه الموضوعى: الأول: أن تكون الأحداث التى سجلتها البردية تصويراً حقيقياً لكارثة الخروج كما رواها الكتاب المقدس، والثانى: أن تكون تلك الأحداث تصويراً لثورة شعبية، واعية لأهدافها الطبقية، دلت

عليها - فى رأينا - روح ثورية فى أشعارها، متضمنة مطالب بالعدل الاجتماعى، والتقريب بين الطبقات، مع بعض المحافظة التقليدية الطبيعية تماماً، من شاعر حكيم، أتاحت له ظروفه الاجتماعية ذلك القدر من التعليم.

وحتى لا نفعل فعل (فليكوفسكى)، فسندم الوثيقة كما ترجمها المتخصصون من علماء المصريات عن الهيروغليفية، ولن نتدخل فى النص إطلاقاً، فقط سنسقط الأبيات التى يعاد تكرارها نصياً، مع الاستعانة الأساسية بـ (سليم حسن)، مع التدخل بالاستعانة بترجمة (جاردنر) فى بعض المواضع لم نجده غير واضح أو مفهوم لتيسيره على القارئ، كذلك سنستعين بترجمة (هنرى برستد) لذات الغرض فى أحيان أخرى، وللمدقق أن يراجع وراعنا.

ويقول الحكيم (إيبور):

حقاً فإن (.. تالف)، وملأى بالعصابات، ويذهب الرجل ليحرث
ومعه درعه.. وحامل القوس أصبح مستعداً، والمجرمون فى
كل مكان.

حقاً إن النيل فى وقت الفيضان، ولكن لا أحد يحرث
من أجله ..

حقاً لقد أصبح المعوزون يمتلكون - الآن - أشياء جميلة، ومن
كان يرقع نعليه أصبح صاحب ثروة.

حقاً إن القلب لثائر، والوباء قد أنبث في كل الأراضى، والدم
صار فى كل مكان، ولفائف المومياوات تتكلم.

حقاً لقد أصبح الحزن يملأ أصحاب الأصل الرفيع، أما الفقراء
فقد امتلأوا سروراً، وأضحت كل قرية تقول : دعونا نقصى العتاه
من بيننا.

حقاً لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار، وصار
اللس صاحب ثروة ..

حقاً لقد تحول النهر دماً فهل يشرب الإنسان منه؟
حقاً إن (... تالف) والعمد والجدران قد التهمت النيران ... حقاً
إن حجرة الملك لا تزال باقية وتقف ثابتة ..

حقاً لقد أصبحت التماسيح متخمة بما تقتصه بعد أن ذهب إليها
الناس عن طيب خاطر ..

حقاً لقد أصبح ابن الأصل التليد مجهولاً، وأصبح ابن زوجته
ابن خادمته ...

ونزل اقوام من الخارج إلى أرض مصر ..

حقاً إن الذهب والفضة والياقوت والكرنيليان والبرونز
و المرمر (..تألف). تحلى جيد الجوارى، والنبيلات مشردات فى
الشوارع، وربات الخدور. يقلن : ليت عندنا شيئاً نأكله.

حقاً فإن (..تألف) أعضاء النبيلات فى حالة يرثى لها إذ
يرتدين الخرق الممزقة ..

حقاً إن صناديق الأبانوس تتكسر وخشب سسمن الثمين يقطع
لصنع الأسرة..

حقاً إن (الفنتن) و (طينة) لا تؤديان الضرائب بسبب الحروب
الداخلية.. فما فائدة وجود خزانة للدولة بدون دخل؟.. هذا ماؤنا وهذه
سعادتنا ولكن ما العمل؟ وكل شئ ينحدر إلى دماء .. حقاً إن الأموات
أصبحوا كالأحياء .. وأصبح لا يميز بين ابن رفيع الأصل وبين من
لا أب له، والجلبة لم تكن بهذه الشدة فى سنى الجلبة، ولا نهاية
للموضاء..

حقاً لقد أصبح أولاد الأمراء يضرب بهم عرض الحائط،
وأطفال الشهوة يلقون على قارعة الطريق، وأصبح الإله خنوم
يئن تعباً..

حقاً هؤلاء الذين يرتدون الكتان الراقى أصبحوا يضربون،
واللاتى لم يسبق أن شاهدن نور النهار قد خرجن، واللاتى كن على

أسرة أزواجهن بتن ينمن على مضاجع مقضّة، وأصبحت السيدات يتألّمن كالإماء...

حقاً لقد أصبحت الخادّات يوجهن ألّسنتهن حيث، شئن، وعندما تتكلم السيدات فإنهن يبيدين الملل..

حقاً لقد أصبح الولاية بئسين جباعاً.

حقاً لقد أصبح الأحق يقول : « لو عرفت أين الإله؟ قدمت له القرابين!.. حقاً إن قلوب الماشية تبكى والقطعان تندب حال البلاد...
حقاً لقد عمت الوقاحة كل الناس.

حقاً لقد دمر ماكان بالأمس مرثياً..

حقاً لقد أصبح القوم يأكلون الحشائش ويشربون الماء..
وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير... وجرّد الملاء من الملابس والعطر والزيت.

حقاً لقد ذبح الموظفون الرسميون وسلّبت منهم سجلاتهم،
ودمرت دفاتر كاتب الضرائب، وأصبحت غلال مصر مشاعاً.

حقاً لقد وضعت قوانين الحكم في الساحات، وأخذ العوام يدوسونها بالأقدام في الطرقات والفقراء يمزقونها في الأزقة.

حقاً لقد وصل الفقير إلى مرتبة الآلهة التسع.. وازدحمت
قاعات المحاكم العليا بالغوغاء، وأخذ الفقراء يروحون ويجيئون في
البيوت العظيمة.

حقاً لقد أصبح أولاد ولاية الأقاليم يلقون في الشوارع...

انظر إن النار قد اشتعل لهيبها عالياً ضد أعداء البلاد.

انظر لقد حدثت أمور لم تحدث من عهد بعيد فقد أختطف
الفقراء الملك.

انظر إن الذى دفن كصقر يرقد الآن على نعش وما أخفاه
الهرم بات خاوياً..

انظر إن الناس يظهرون العداء لليوريس (ثعبان التاج الملكى،
التوضيح من عندنا) حامى الدرع، الذى جعل الأرضين فى سلام..

أنظر إن الأرض ملأى بالعصابات.. والثاوين فى المقابر ألقوا
على قارعة الطريق، ومن لم يكن بمقدوره الحصول على كفن أصبح
يملك ثروة.. ومن لم يملك حجرة صار يمتلك فناء مسوراً.

انظر إن كبار القساسة قد طردوا ليهيموا فى الأرض...

أنظر إن النبيلات يرقدن على الفراش الخشن.. ومن لم يكن
ينام على مصطبة حجرية بات يمتلك سريراً..

انظر إن الرجل الغنى يمضى ليلة عطشان، ومن كان يتلقى فضلاته أصبح يمتلك الجعة الفاخرة..

انظر إن أولئك الذين كانوا يملكون الملابس الكتانية أصبحوا فى خرق بالية، ومن كان لا ينسج لنفسه يلبس الكتان الرقيق..

انظر إن الذى ما كان يستطيع صنع قارب لنفسه أصبح يمتلك سفينة بينما صاحبها ينظر إليها بعد أن سلبت منه...

انظر إن من كان يجهل الضرب على العود أصبح يملك الهارب البديع، ومن كان لا يغنى له أحد بات تغنيه آلهة الطرب..

انظر إن من كان ينام بلا امرأة لفقره أصبح يجد الأميرات أنظر إن الفقير أصبح يمتلك ثروة تجلب له مديح العظماء.

أنظر إن من كانوا يملكون خوى وفاضهم..

أنظر إن الأصلع الذى لا يعرف الزيت أصبح يمتلك أوانى العطور الزكية

أنظر إن التى كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت تملك مرآة

أنظر إن أبناء البلاط فى ملابس ممزقة وماشيتهم منهوبة.

انظر إلى القصابين يذبحون الماشية للفقراء.

أنظر أن القصابين يذبحون الأوز ويقدمونه للآلهة على أنه ثيران(؟)

أنظر أن من كانوا ينامون على أسرة ينامون اليوم على الأرض، وذلك الذى كان ينام فى الأوساخ يتدثر فى سرير.

أنظر أن من كان لا يمتلك أتباعاً أصبح صاحب عبيد، ومن كان من السادة أصبح ينفذ الأوامر. إن الفقراء يستيقظون وهم لا يخشون نور النهار، وأنها لخيام صنعوها مثل المتوحشين.

أنظر أين هو ليحاسب الناس؟.. إنه يطفئ اللهيب، يقال عنه راعى كل الناس، ولا يحمل فى قلبه شراً، وحينما تكن قليلة العدد، فإنه يصرف يومه فى جمعها إلى بعضها وقلوبها محمولة.. فأين هو اليوم؟ هل هو بالمصادفة نائم؟ إن بأسه لا يرى (تلفيات شديدة).

إن القيادة معك والفتنة وأسباب العدالة، لكنك نشرت الفوضى فى البلاد مع الفتن، الغوغاء يحدثون الضوضاء. بينما نتلى عليك الأكاذيب والبلاد كالقش الملتهب.. لبيتك تذوقت بعض هذه المصائب بنفسك.. (بعد ذلك تلفيات لا تسمح بتكوين فكرة صحيحة أو جملة مفيدة)^(١).

(١) أدرجت تلك البردية فى متحف ليدن تحت إسم ورقم Leyden Papyrus, No.

344 وقد اعتمدنا هنا ترجمة د. سليم حسن : الأدب المصرى القديم، كتاب اليوم،

١٩٩٠، ج١، ص٣١٠، ٣٣٢.

وتأسيساً على تلك المعانى، اعتمدنا بردية ليدن كوثيقة دالة على الثورة، التى بدأت عملياً وفعلياً بانتشار الكفر بالآلهة الرسمية للدولة، حتى صار الرجل الاحمق يقول: إذا عرفت أين الآلة قدمت له القرابين، و(الاحمق) هنا تترجم أيضاً (المنفعل، ما هو ضد الرزانة والتصرف الكيس عموماً). وبينما كان القصابون مشغولين بذبح الثيران للجوعى، كانوا يقدمون للآلهة الأوز على أنه ثيران، إشارة وسخرية من آلهة لا تميز فى توزيع الأرزاق، ثم الأحداث التى تلت ذلك لإقصاء العتاة وتدمير مبانى القضاء الظالم وسجلاتها، ونهب ثروات مقابر الأغنياء والملوك، وبدا أن كل شئ ينقلب رأساً على عقب، فالأرض «تدور حول نفسها كعجلة صانع الفخار»، والشطر الثانى من البيت يشرح مباشرة «وصار اللص صاحب ثروة»، وتمكن الثوار من القبض على الملك الذى لم توضح البردية مصيره، وهو معلوم على أية حال، وانفلتت الجماهير من عقابها لتدمر بدون تمييز حتى صار نهر النيل بلون الدم لكثرة القتلى وما كانت تلتهمه التماسيح، مع إشارات نادرة وبتيمة لتسلل أغراب للدلتا، بحيث بدا الحدث هامشياً بجور الأحداث الأخرى الجسام، وهو التسلل الذى تم القضاء عليه مع استقرار ملك أسرة أناسيا الإقليمية إبان العصر إلمتوسط الأول، حتى يقول أحد ملوكها (خيتى) لولده (مرى كارع):

« لا تزعج نفسك بالآسيوى التعس، إن هو إلا آسيوى »، ثم تابع حكام الأسرة الحادية عشرة تطهير البلاد منهم، ولم يأت زمن الاسرة الثامنة عشر ونجد أى ذكر لوجود آسيوى على أرض مصر، وإن كان المعلوم أن ذلك التسلل قد تكرر لكن فى شكل غزو كبير للهكسوس جاء بعد سقوط الدولة الوسطى، ولعل إشارة (إيبور) إلى أن الفقراء إبان الثورة، قد أقاموا لأنفسهم خياماً فى الشوارع مثل المتوحشين، إشارة ساطعة تقطع بأن هؤلاء كانوا ثواراً مصريين يأتون تصرفات تشبه المتوحشين، وهى الوصف المصرى للبدو، أما أن تذكر البردية الإله رع والإله خنوم، ولا ذكر إطلاقاً للإله آمون، فذلك فى رأينا يشير إلى وجوب نسبة البردية للعصر المتوسط الأول وليس إلى العصر المتوسط الثانى كما يريد فليكوفسكى، حيث لم يكن آمون قد ظهر بعد، لأنه ظهر مع الملك امنمحات الأول فى الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى.

هذا ما كان عن بردية ليدن ودلالاتها، فماذا عن تلك الدلالات عند (فليكوفسكى)؟ مع الانتقاء، وملء الثغرات من عنده، لا يجد المرء نفسه إلا أمام حدث كبرى عظيم « الأرض تدور حول نفسها، المدن دمرت، الكل خراب، سنوات من الضجيج »، هذا مع المقاطع التوراتية مع كل مقطع مقتطع من البردية، مع كلام من لون « إن تلك

الزهات كانت متتابعة الحدوث مرة بعد أخرى، حتى تحولت البلاد إلى أنقاض، وانهار نظام الدولة فجأة واصبحت الحياة لا تطاق، فيقول إيبور : آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج، إن بردية إيبور تحتوى على دلالة على حدوث كارثة أرضية مصحوبة بزلزال .

ولا يفوت المدقق هنا أن تصدير هذه الفصول بعنوان (أرض مصر فى جيشان) أو (فى ضجيج)، عمد واضح لتزييف الدلالات فى البردية، حيث عمد إلى الكلمة المصرية (هرو) التى تعنى عدداً من المعانى مثل (الركض، الثورة، أصوات الشغب والجدل والصراخ، الزمجرة، نفثات الغضب، الصراع)، ليأخذ منها فقط بمعنى زمجرة الأرض القاصرة على جيشان الزلازل، وغنى عن البيان هنا، أن أسلوب المصرى القديم فى التدوين، له سمات خاصة، وتعبيرات خاصة، ويقصد إلى دلالات يجب الاعتياد عليها مرتبطة ببلاغات العبارة وتراكيبها، وهو اعتياد من لزوم ما يلزم للفهم السليم لتلك الدلالات، فمثلاً عندما كان المصرى القديم يقول (الأرض) نفهم فوراً أنه يقصد مصر تحديداً دون العالم أجمع، وعندما يقول (الناس) يقصد الشعب المصرى وحده دون الناس، حتى أنه فى البرديات المتأخرة وفى عصور الانحطاط كان المصرى يبدى أسفه لأن الأجانب قد

مرت عليها أجيال. أما انتخاب الماشية على أحوال البلاد، وهو تعبير شائع فى الكتابات المصرية، فيتحول بقدرة قادر ليلتقى مع قول التوراة : " يد الله تكون على مواشيهم التى فى الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم.. سيفتك بها طاعون "، والمثير أن مصر لم تعرف فى تاريخها القديم ولا نقوشه ولا ألفاظه ما يشير إلى معرفتها بالجمال، أما الأكثر إشارة فهو أن فليكوفسكى قد فاته المصريين لم يعرفوا الحصان والعجلة التى تجرها الخيل إطلاقاً والقطع، قبل قدومهما مع الهكسوس الغزاة. وحسب نظريته هو، فإن بنى إسرائيل خرجوا من مصر قبل دخول الهكسوس إليها!؟.

ولأن التوراة تتحدث عن ضربة البرد، ولا يرد فى البردية، فإن (فليكوفسكى) يتقصى حتى يجد معلومة يتيمة من كتاب وضعه (أرتبانوس) عن أحداث غير معلومة المصدر، نقلها عن (إيسابيوس) يحكى فيها عن صقيع وزلازل أثناء ليلة البلاء الأخير " حتى أن أولئك الذين فروا من بيوتهم خوفاً من الزلازل قتلهم البرد "، والمعلوم أن (إيسابيوس) راوية مرتبط بروايات التوراة فى كثير من تخريجاته، أما الكتاب الأصيل الذى وضعه (ارتبانوس) ونقل عنه (إيسابيوس) فهو كتاب مجهول، ولم تُكتشف منه نسخة واحدة إلى اليوم !.

وكان معنى أن يسقط (فليكوفسكى) من اعتباراته الإشارات الكثيفة والواضحة والمتكررة إلى الثورة الطاحنة، أن يلحق الشك عمله بكامله، ولأنه أدكى من ذلك، فقد خصص فصلاً بعنوان (البكر أو المختار) ليفرغ فيه المحتوى الثورى ودلالاته، ليصب في دلالات أخرى توافق التوراة، ولأنه من جانب آخر لم يجد في التوراة ذاتها ما يشير إلى تلك الثورة الشعبية الطبقية، فقد جعل من فصله متاهة للقارئ بعقريه يحسد عليها، مهد له بفصل (الليلة الأخيرة)، وألحقه بملاط لاصق جيد التماسك في فصل (تمرد وفرار)، بحيث أصبحت كل نصوص البردية التى تتحدث عما لحق الأغنياء والفقراء من تحولات، ومآل إليه أبناء النبلاء من مصير بالقتل أو التشرد، إنما حديث واضح عن الضربة الأخيرة في الليلة الأخيرة، حيث سفك الرب دم المصريين في تلك الليلة، ولم يعد قانعاً بقمله وذبابه وبعوضه وجراده وطفاده، فنزل تقتيلاً لكل بكر في كل بيت، إنسان أو بهيمة، مع الأخذ بالحسبان أن تلك الضربة لم تلحق أيّاً من بنى إسرائيل أو مواشيهم، بعد أن ميزوا بيوتهم للرب الذى هبط يتخبط كرهاً وفضاضة، والتأثت روحه برائحة الدماء، وذلك بأن قام بنو إسرائيل يرشون دماء الحيوانات على أبواب بيوتهم كعلامات للرب الهائج، كى يظن أنه قد سفك دم أهلها فيعبر عنها^(١).

(١) انظر : سفر الخروج، الإصحاح الثانى عشر

ويؤكد الرجل وجهة نظره في مقتل المختارين من مصر بنص البردية «إنهار المسكن في لحظة»، بحيث إن الزلزال قتل سكان المنازل الفخمة، والبيت الملكي تحديداً (رغم نص البردية على سلامته)، لكن السؤال المشروع هنا هو : كيف أمكن لزلزال بهذه الشدة أن ينتقى إنتقاءين متميزين: الأول: أن يصيب المصريين ولا يصيب الإسرائيليين (ولا يمكن في هذه الحال قبول حجة أن الإسرائيليين كانوا يسكنون بعيداً عن المصريين في مصر، وإلا ما ميزوا بيوتهم بالدم، وما تيسر لنسائهم استعارة ذهب المصريات الساكنات معن ونزيلات بيوتهن لسلبه ليلة الخروج حسب نصيحة موسى لهن وحسب نص التوراة)^(١)، أما الانتقاء الثاني غير المفهوم، فهو كيف أمكن زلزال أن ينتقى أغنياء مصر ويميز أمراءها ويصيبهم دون الفقراء؟ إن الكارثة الوحيدة والوباء الوحيد الذي يمكن أن يفرز هذا الفرز هو ثورة طبقية واعية، وهو ما يفسر لنا بقاء المعابد الضخمة والأهرام وغيرها من آثار سبق بناؤها العصر الذي نحن بصددده، ولم يشر إليه (فليكوفسكى) إزاء زلزاله العظيم.

ويلاحظ القارئ هنا أن كاتبنا - وهو بسبيل التغلب على العقبة الكداء بالبردية، وما تحمله من أحداث تشير إلى ثورة الجماهير

(١) انظر : سفر الخروج : الإصحاح ٣ : ١٨-٢٢.

المصرية ضد طغيان النبلاء والملك - يروح ويجئ قبل إلقاء ما فى جعبته فيقلب أكثر من حقيقة رأساً على عقب. فهو يحول الحديث عن السجن الذى حطمه الثوار لإطلاق المعتقلين، إلى حديث آخر يقول: "لقد حرك مشهد أبناء الأمراء المسحوقين على أرض الشوارع الصخرية المظلمة (لا توجد فى مصر شوارع صخرية بالمناسبة)، والجرحى والموتى بين الأنقاض، حرك لوحة وأسى الشاهد المصرى، ولم ير أحد ما حدث فى أقبية السجن، تلك الأقبية التى حفرت تحت الأرض وأغلقت أبوابها على السجناء (الرجل هنا يصور لنا مصر كما لو كانت أوروبا العصور الوسطى)، ولم ير أحد العذاب الذى تعرضوا له حين انهارت تلك الأقبية فوق رؤوسهم ودفنتهم أحياء تحت الأرض"، وكل ذلك جاء فيما يرى فى العبارة اليتيمة، التى بحثنا عنها عبثاً، وتقول "السجن حطام"، وأبدأ لم نجد لها .

أما كفر الناس بالآلهة الرسمية وتطاولهم عليها، فهو ما يشير إلى قول التوراة "وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين"، ونبش قبول الموتى الأثرياء أصبح عنده "ولم تكن الأرض أكثر رحمة بجثث الموتى فى قبورهم، فالمقابر لفظت موتاهم وتمزقت الأكفان" أم الدليل فمن الهجاء التى كتبت بعد ذلك بما يصل إلى ألفى عام.

كل هذا وورطة الأحداث الثورية قائمة، لكن الآن قد خفت حدتها في ذهن القارئ، ويسهل عندئذ أن يسوق تخريجه الضعيف المتكلف والمبتسر، في كون إصرار البردية على تعرض أبناء الأمراء والحكام فقط للقتل والتشريد، هو موافقة تامة للتوراة، التي قررت قتل الرب لأبكار المصريين. والأبكار في تفسيره ليست سوى أبناء النخبة والطبقة البكر المصطفاة، ولأنه لا يمكن - عقلاً - قبول أن يكون يهوه قد أمضى ليلته يمارس نزوته الشاذة في قتل أطفال الأغنياء، فلم يبق أمام (فليكوفسكى) سوى مزج فكرة الثورة - التي يعترف بها بسرعة وبألفاظ غير حاسمة - بإرادة الرب (يهوه) - وينتهى إلى أن ربه انتقم من المصريين بقتل المختارين المميزين من النبلاء والمترفين. ثم يردف فوراً بما يشعر القارئ بمدى موضوعيته ونزاهته فيقول: «وبرغم أن البردية الماهرة لم تحتو على أى ذكر للإسرائيليين صراحة أو تلميحاً، ولم تشر إلى أى من قادتهم (١٩)، فإن ثلاثاً من الحقائق ظهرت بوضوح تام كنتيجة للكارثة، أو مجموعة الكوارث المتتالية، وهى : تمرد السكان، فرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية، واختفاء الملك فى ظروف غامضة، وبالرغم من التطابق الوصفى للكوارث بين ما ذكرته البردية، وما سرده أحداث الكتاب المقدس، فإننى إن حاولت أن أستخرج من البردية أكثر من الحقائق، فقد أعرض نفسى للريب والظنون، بمحاولة

استغلال الحالة السيئة التي وجدت عليها البردية، لإثبات نتائج مسبقه بتضمينها مالم تتضمنه، لكن الإشارة للكارثة، والجماهير التي تمردت وفرت ليست غامضة، ومعناها واضح وليس فيها أى مجال للبس أو غموض.. وهى زلازل متتابعة صاحبت ظواهر طبيعية أخرى اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء سبب هلاك الإنسان والحيوان والنبات، واتلاف كل مصادر المياه .

والرجل هنا، وهو يلبس ثوب العالم النزيه والأمين، يقوم بأكثر من تلقيق، وأكثر من تزوير لدلالات الوثيقة، فإذا كان السكان قد تمردوا فهذه حقيقة، وأن يكون المعتلقون قد فروا من الحبس فهى حقيقة أخرى، لكنها لا تشير بالمرّة إلى فرار بنى إسرائيل من عبودية مصر إلى فلسطين، أما ما يسميه اختفاء الملك فى ظروف غامضة، فهو إشارة ذات تخابث واضح على عقل القارئ، وتذهب به فوراً إلى فكرة الغرق فى البحر.

أما أن يطابق بين النص البردى " انظروا أن النار قد اشتعل لهيبها عالياً ضد أعداء البلاد " وترجمها هو " أمام أعداء البلاد " ، وبين نص التوراة " وكان الرب يسير أمامهم نهراً فى عمود سحب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضى لهم " فهو افتئات

واضح على اللفظة المصرية التي تفيد معنى (مقابل) والتي ترجمها (سليم حسن) بمعنى (ضد)، والتي تحمل ضمناً معنى أن لهيب الثورة كان إشارة للبدو بتجاوز حدود مصر وهي في حالتها المتردية، وهو ما توضحه البردية دون لبس في قولها — حسب ترجمته هو — "ماذا حدث؟ لقد علم الآسيويون بحال البلاد " .

وعن قول (إيبور) في النص الفليكوفسكى " إن ذلك لم يحدث لأى فرعون آخر قط " فهو ليس إشارة لغرق جلالته إنما لخطف الفقراء لجلالته، وربما محاكمة جلالته، وربما إعدام جلالته.

إننا نقرر مع التاريخ التقليدى، الذى لم يعجب (فليكوفسكى)، والذى لم يذكر بنى إسرائيل بالمرّة إلا فى نص مرنبتاح المعروف، أن البدو الذين تسللوا إلى البلاد إثر الثورة، فى العصر المتوسط كانوا شيئاً يختلف تماماً عن غزو الهكسوس الذى دخل بجحافله فى العصر المتوسط الثانى، وأن الغزو الأول كان تسلاً غير ذى بال و" لا تزعج به نفسك، إن هو إلا آسيوى " وإن أصحاب الغزو الاول أطلق عليهم اللسان المصرى " العاموحريشع " أى البدو فوق الرمال، أما الغزو الثانى فكان باللسان المصرى " حقاو — خاسوت " التى

نطقت عند (مانيتون) « هكسوس »، ولم يخلط التاريخ في وثائقه بينهما ولا مرة واحدة.

٢ - تزييف دلالات حجر العريش :

من سيهتم - حقاً - بالبحث وراء رجل بهذا القدر من الاجترار؟ أو من سيشك أصلاً في قرائن تركب بعضها فوق ذهن قارئ أسلم قيادته لمفكر يبدو بهذا القدر من النزاهة؟ وعليه من سيهتم مع الصدمة النفسية والوجدانية بالبحث والاهتمام؟ أو من سيجد نفعاً يرجى بمراجعة نصوص قديمة بعد الصدمة العقلية لكل ما تعارف عليه التاريخ والمؤرخون؟ أو من سيجد في ذاته بواعث تدفعه للسعى وراء نص لا تجد له ذكراً في أغلب المصنفات التي تناولت مصر القديمة؟ وربما كان على الباحث المصرى على التأكد أن يذهب بنفسه إلى متحف الإسماعيلية ليستفسر عن (حجر العريش) ومصيره، وعن ترجمته الصادقة، وربما عاد بعد ذلك يائساً من كل شئ، بعد كم اللامبالاة والاستهانة والاستخفاف التي سيلقاها من مؤسقد جاء مدونا على حجر العريش سائنا العتيدة.

فما هو حجر العريش؟

لقد حكى لنا (فليكوفسكى) قصة العثور عليه بكثير من الصدق، ثم حكى لنا القصة المدونة عليه بما هو أكثر من الإفك، فحمل النص

فوق ما يحتمل، وأنطقه بدلالات لم يقصد إليها ولا خطرت ببال الرجل الذى قضى ينقره بالإزميل زمناً. فالنص عند (فليكوفسكى) يحكى بلسان مبين عن بلوى عظيمة تعرضت لها مصر القديمة، من عواصف، وجيشان للأرض، ودمار، مما حدا بالفرعون المدعو (توم) - والذى أكد كونه كان ملكاً أن اسمه قد جاء مدونا على حجر العريش فى خرطوش ملكى - إلى جمع جيوشه، ووعد جنوده فى ظل الظلام الذى حل بالبلاد، أنهم سيرون النور من جديد بقول "سنرى أباناً رع حر أختى فى منطقة باخيت المضيفة"، و(رع) هو إله الشمس المصرى كما هو معلوم، هذا بينما الملك قد أضمر غرضاً آخر، فقد "ذهب صاحب الجلالة لمحاربة أبوبى وزمرته"، لكن النتيجة كانت وخيمة على الفرعون وجنده، لأنه "حين قاتل جلالة الملك رع حرماكيس (نظراً للتضارب بين حر أختى، وبين حرماكيس، يضع فليكوفسكى هنا علامة استفهام وعلامة تعجب)، حيث قاتل إله الشر بالقرب من البحر مكان الدوامة، فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته، ولكن جلالته هو الذى اندفع إلى دوامات البحر".

وإذا كانت المنطقة المضيفة اسمها (باخيت) فإن (فليكوفسكى) بعد صفحتين، وبعد مرور كثير من الأسماء الغريبة الكفيلة بنسيان

الاسم الأصلي، يعود لذات النص ولكن الكلمة تصبح هذه المرة (بى خاروتى)، وذلك كى تتلقى مع كلمة (بى هحيروث) العبرية، التى تشير للموقع الذى توقف فيه الإسرائيليون قبل عبور البحر مباشرة والمترجمة فى التوراة العربية إلى (فم الحيروث)، ولأن (باخيت) بعيدة فيلولوجيا عن (بى هحيروث) فإنه يضع بينهما متوسطاً مزوراً لم يرد بحجر العريش هو (بى - خاروتى).

ونستمر مع (فليكوفسكى) : « خرج ابن الفرعون صاحب السموجب لبحث عن أبيه، وقد أخبره شهود العيان بكل ما حدث لرع فى بات نيبس .. والصراع الذى خاضه الملك توم »، ولا شك ان المدقق سيتوه هنا وهو يحاول معرفة اسم ذاك الذى خاض الصراع وغرق فى دومات البحر، هل هو ملك باسم (رع) أم باسم (توم)، لكنه يعلمنا بعد ذلك أن أبناء (أوبى) قد غزوا البلاد ليحطموها، و سلبوا الإبن (جب) عرشه، بينما اعتزل هو فى مسكن ناء، ربما كان منفى اختيارياً أو إجبارياً.

وبينما يهمل (فليكوفسكى) الاسم (رع) تماماً كما لو كان غير موجود، وركز على (توم)، لأنه الاسم الذى سيلتقى مع الاسم الوارد فى التوراة، للمدينة التى استبعد الإسرائيليون فى بنائها لفرعون الخروج، واسمها (فيثوم)، ويمكن نطقها (فيتوم) و (بى توم)، وفى

هذه الحالة يصبح معناها (منزل توم). ولا ينسى أن يربط ببراعة، بين إشارة (مانيتون) — الذى سبق أن هاجمه وسفه آراءه وتاريخه لكنه احتاجه الآن — إلى فرعون الخروج باسم (توتيماس)، ويرى أن الاسم يحوى فى تركيبه شقاً هو (توم).

لكن أى مهتم بالتاريخ الدينى لمصر القديمة، سيعرف كم كان (فليكوفسكى) ملفقاً؟ وكم كان بارعاً؟ لأن القصة المنقوشة على حجر العريش ليست سوى ترديد لأسطورة دينية قديمة، اعتقد فيها المصرى منذ فجر التاريخ، وأن الأسطورة قد صيغت فى أسلوب التعاويذ السحرية، التى يتم ترديدها فى زمن محدد، لدرء خطر عظيم سيلحق بإله الشمس المصرى، وبالتالي بمصر جميعاً. وكان إله الشمس ذاك يحمل الاسم المركب (رع أتوم) أو (أتوم رع). ومنذ استقرار الإنسان فى الوادى، أدرك أهمية الشمس فى تجفيف التربة والمستنقعات، وفى نضوج النباتات، لذلك حظيت بأهمية بلغت بالشمس سمت السيادة بين الآلهة، وبحيث أصبحت الرب الرسمى للدولة، وقد ارتبطت الشمس بعناصر أخرى لازمة لحياة الإنسان و النبات، هى حسب أهميتها : الهواء، والرطوبة أو الندى، والتربة أو الأرض، والسماء التى هى مقر (رع أتوم). وفى واحدة من الصياغات الدينية لمدينة (أون) المقدسة، نجد إله الشمس يخلق من ذاته بالاستمناء - إيغالا فى توحيده وحتى لا تكون له شريكة - إلهاً ذكراً هو (شو) إله الهواء، وإلهة أنثى هى (تفنوت) إلهة الندى أو الرطوبة. ويتزوج (شو) و (تفنوت) لينجبا

إله الارض (جب) الذى يحتسب وفق تلك الصياغة حفيداً لرع آتوم،
وابناً لـ (شو) و (تفوت)، بينما فى صياغة أخرى يأتى (جب) كأب
لإله الشمس (رع).

ولأن أهم وسيلة نقل للمصريين هى الإبحار فى النيل، فقد
تصوروا أن هناك نيلاً آخر فى السماء، هو الذى يؤدي إلى سقوط
الأمطار أحياناً^(١)، وأن دورة الشمس اليومية تتم بإبحار (رع) فى
النيل السماوى، فى مركب اسموه (مركب الشمس)، تجوب به السماء
من الشرق إلى الغرب نهاراً، لتنتقل إلى زورق آخر مع الغروب
لتعبر به سماء سفلى أثناء الليل من الغرب إلى الشرق، وهكذا
دواليك. أما تلك اللحظة التى يتم فيها الانتقال فكانت أخطر اللحظات
إطلاقاً، حيث كانت غالباً ما تدور حرب هائلة ودموية يظهر أثرها
فى لون الغسق النارى وفى لون الشفق، فالرحلة الإلهية لم تكن تتم
دوماً فى بهاء وسلام، لأن هناك إلهاً للشر هو الأفعى الضخمة
الإفغوانية (أبو فيس) وجنوده، يكمن فى لحظة الظلام ليدهم زورق
الشمس ويبتلع إله النور، لذلك كان يحرس الإله فى مركبه بحارة
وجنود وحاشية عظيمة، تخوض معارك شرسة ضد إله الظلام والشر
(أبو فيس)^(٢)، حتى لا تسمح له بابتلاع الشمس الذى يعنى خراب

(١) جون ولسن : ما قبل الفلسفة .. سبق ذكره، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق : ص ٦٣.

الزرع والضرع، وتحول البلاد إلى بادية جرداء، لذلك الحق المصريون باسم (أبو فيس) العلامة الهيروغليفية الدالة على الصحراء والجذب، وهى ذات العلامة المستخدمة لكل ما يمت للصحراء والشر والجفاف بصلة.

ومن هنا لا بد من وجود جيوش الخير بصحبة (آتوم رع) لقهر التتين (أبو فيس) وجنوده، وهو اعتقاد مرده إلى اعتقاد آخر شاع فى أقطار الشرق القديم - ولم يزل - وهو أن خسوف الشمس أو خسوف القمر، ناجم عن ابتلاع ثعبان ضخمة أو شيطان أو مجموعة من الجن للجرم السماوى. وما زال الأهلون فى قرانا يخرجون بالطبول والعصى والسيوف فى جماعات منظمة تمثل جنود الخير تهلل وتكبر لمساعدة الجرم عند ظهور حالة الخسوف، لتخويف الثعبان ليطلق الجرم السماوى. ومن هذا اعتقد المصرى القديم فى تعرض (آتوم رع) أحياناً، بل وفى أى وقت، للاثهام أثناء إبحاره فى دوامات النيل السماوى، لذلك وضعوا تلك الترتيلة السحرية المعوذة لمساعدة إله الشمس على الهروب من (أبو فيس) والإبحار السريع فى مياه السماوات العظيمة، حيث لا يتمكن (أبو فيس) من اللحاق به أمام جحافل جيش الخير التى تعطله دوماً عن غايته الشريرة. وقد صيغت ترتيلة (فشل التتين) عدة صياغات متواترة فى نقوش متعددة فى مواضع مختلفة بالوادى، وليس على حجر العريش وحده، وتستخدم

التعويذة خاصة عند الغروب حيث تختفى الشمس فى الظلام وتكون أكثر تعرضاً للابتلاع، وربما لا تعود للظهور فى اليوم التالى، وإن الشمس ما كانت تتأخر فى الظهور شتاء (هو فصل الجذب) إلا لأنها كانت تخوض حرباً مريرة مع جيشها كل ليلة ضد الشيطان (أبو فيس)، الذى لا يستقوى إلا فى فصول الجذب الباردة.

ومطلع النص معنون بـ "فاتحة قهر أبو فيس عدو رع وعدو الملك أون نفر (اصطلاح ملكى يشير لآى فرعون بمعنى له الحياة)، له الحياة والفلاح والصحة .. كتاب معرفة الخلق لرع وقهر (أبو فيس)، الكلام الذى يتلى "، ثم يبدأ المقطع الأول بترديد عظمة آتوم رع باعتبار الخالق "قال إله الجميع بعد أن جاء إلى الوجود .. (هنا حديث طويل عن خلقه للآلهة من أبنائه وأحفاده ومنهم (جب رب الأرض).. أمرتهم بإبادة أعدائى بواسطة السحر الفعال لحديثهم، وأخرجت هؤلاء الذين جاؤوا إلى الوجود من جسمى أن تصب عليه لعنة.. ينتصر رع عليك.. هكذا تكون فى مركبك، ستعبر السمايين فى سلام... الخ" (١).

(١) برينشارد (جيمس): نصوص الشرق الأدنى القديم المتعلقة بالمعهد القديم، ترجمة وتعليق: د. عبد الحميد زايد، نشر هيئة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٨٧، ص ٤١، ٤٣.

وهكذا يهمل (فليكوفسكى) اسم (رع) تماماً من النص، ويفصل عنه (آتوم)، ويحذف الهمزة ليصبح (توم) حتى يلتقى باسم الموضع التوراتى للخروج (بى توم). ثم تصبح المعركة ضد ظلام الكسوف، معركة الفرعون (توم) الملك الهكسوسى (أبوب) عند موضع عبور بنى إسرائيل الميامين (بى حيروث)، ويتحول إسراع (آتوم رع) بالهرب من أبو فيس (حيث كانت مهمته الهرب دوماً والحفاظ على ذاته بينما يحارب جنوده عنه ليهرب) إلى خضم الماء السماوى، يتحول إلى فرعون يندفع من جيشه إلى دوامات البحر (وعليه نفهم أنه غرق رغم أن القصة ليس فيها أى غرق)، وبكل براعة يطابق بين اسم التنتين (أبو فيس) اسم الملك الهكسوسى (أبوب) مع استثمار عدم معرفة القارئ غير المتخصص لمعنى (خرطوش)، فيشير إلى أن وجود اسم (توم) محفوراً على خرطوش يشير إلى كونه كان ملكاً لأنها الصيغة المصرية المتبعة لكتابة أسماء الملوك. بينما المعلوم لدى أى مهتم بالمصريات أن الخرطوش كان لتدوين أسماء الآلهة، فى المقام الأول، ثم لتدوين أسماء الملوك المؤلهين، أو الحاكمين بحق النسل الإلهى فى المقام الثانى. لذلك كان طبيعياً أن ينقش أسم (رع آتوم) داخل خرطوش، أما اسم حالة ما بين النور والظلام المضئية بين ذهاب النهار الذى أظلم، وبين قدوم ظلمة الليل، فيتحول من التسمية (باخيت) التى تدل على الخوف من الظلام وماقد يحيق برب الشمس، ولم يزل يقولها المصرى اليوم تخويفا (بخ)، تتحول إلى (بى حيروث).

ثم إن (فليكوفسكى) يضع علامة استفهام وعلامة تعجب من تلقب (رع) مرة بلقب (حر أختى) ومرة بلقب (حرماكيس)، وهو ما يشير إلى أنه يوحى لقارئه، أنه قد لمس خطأ فى النص ربما يرجع لجهل من كاتبه. لكن معنا ربما انصرف الذهن الآن إلى جهل فى (فليكوفسكى) ذاته. لكن الرجل حتى الآن أثبت براعة تجعلنا ننأى به عن صفة الجهل، لكنها لا تتأى به عن العمد إلى الستورير، لأن (حر أختى) هو اسم الشمس أو لقبها فى حالة الشروق، أما (حرماكيس) فهو عندما تكون فى حالة الغروب ويمثلها أبو الهول، واللقب الحورى لإله الشمس (رع آتوم) يشبه الشمس بالحر أو (حور) الصقر، إنها تطير كالصقر، إضافة لما يحمله لفظ (حر) من معنى الحرارة.

و (فليكوفسكى) وهو يقوم بهذه التلقيق الكبرى، يعتمد إلى ترجمة (نتر) ومرادفاتنا بالقصة إلى ملك، وهى إن صلحت للدالتين إله وملك، فإنها تستعمل عادة للإشارة للآلهة، أما (جب) إله الأرض، وحفيد (رع آتوم) فيصبح عند (فليكوفسكى) الأمير الملكى الذى فقد عرشه بعد غرق أبيه بمعجزة البحر المفلوق بالعصا السحرية، ولأن حجر العريش فيما يبدو كان تسجيلاً لحالة هامة من حالات الكسوف، فقد قام جب بالدور المطلوب منه حسب نص التعويذة والذى من أجله وجد أصلاً هو وأشقائه من آلهة، فخلقهم كان بغرض حماية (رع آتوم) من (أبو فيس).

لكن من المهم هنا أن نسجل للعالم البار (فليكوفسكى) سقطة لا تليق به، فالسرد هنا جميعه يتناول حرباً خاضها الفرعون - حسبما يقول - ضد الملك الهكسوسى (أبو فيس)، إذن لم تكن مطاردة ضد الإسرائيليين - حتى لو أخذنا بتزويره -، وحتى يلتقى النص مع الزمن الذى حدده لدخول الهكسوس، وهو ذات الوقت الذى خرج فيه بنو إسرائيل، فلا بد أن يكون الملك الهكسوسى ليس (أبو فيس)، إنما يجب أن يكون (سالاتيس) أول ملوك الهكسوس على مصر، لأن (أبو فيس) الأول وليس الثانى أو (أبواب الأول) هو الملك الرابع من ملوك الهكسوس الفعليين على مصر، وليس ملك الغزو، ولو ذهبنا إلى كونه ربما كان (أبو فيس) أو (أبواب الثانى)، فإن ذلك يعنى أن تلك الحرب قد حدثت فى آخر عصر الهكسوس، وهو ما يبعد أربعة قرون عن عصر خروج بنى إسرائيل حسب تاريخه هو وتزمينه للأحداث.

الحقيقة أن الرجل رغم براعته، ورغم أنه أمتعنا فعلاً بأكبر عملية تزوير وتلفيق، فإنه كبا حتى الآن أكثر من كبوة، أما هذه فكانت سقطة شديدة.

٣ - تزيف دلالات بردية الارميتاج :

اكتشف بردية الأرميتاج المصرولوجى (جولنشيف)، وقام بترجمتها ودرسها وتحقيقها وتحليلها كل من (بيت وبرستد وإرمان

وجن وجاردينر)، وهى محفوظة الآن بمتحف (الينجراد)، وتحوى نبوءات الكاهن المرتل (نفرحو). وتدعى البردية أنها أُلقيت فى حضرة الفرعون (سنفرو) أحد أوائل ملوك الأسرة الرابعة من الدولة القديمة. وفى رأينا أنه قد دخلها على حالتها التى وصلتنا أكثر من خدعة: الأولى فى كونها تحكى عن أحداث تخص عصرًا، وكتبت فى عصر آخر ونسبت إليه، وقد ذهبنا فى كتاب (أوزيريس..) إنها كتبت فى عصر الثورة فى العصر المتوسط الأول، وأعطيت قيمة تقليدية - حيث القديم يكتسى القداسة والتبجيل - بنسبتها إلى عصر موغل فى القدم، عصر (سنفرو) قبل عصر الثورة بقرون طوال.

أما الخدعة الثانية فهى فى نسبتها لعصر موغل فى القدم قبل الأحداث التى تروج لها بالفعل، مما يكسبها قدرة أعظم على التنبؤ.

والخدعة الثالثة التى ربما جازت على كثير من الباحثين، فهى أنها استُمرت مرة ثالثة فى عصر يخالف العصرين السابقين : عصر (سنفرو) وعصر الثورة، بأن أضيف إلى متنها الأصلية نصاً إضافياً ألحق بآخرها، وهو النص الذى - بعد سرد أحداث الصراع الاجتماعى، وتسلل الآسيويين إلى البلاد - يضيف نبوءة بملك منقذ يأتى ويخلص البلاد من كبوتها، أشارت إليه باسمه المختصر (أمينى)، وذهب المؤرخون إلى أنه هو (أمنمحات الأول) مؤسس

الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى، مما حدا بهم إلى تزيينها
بإثبات تاريخها في عصر ذلك الفرعون، وأنها كتبت في عهده ثم
نسيت إلى أيام (سنفرو)، كي تتحول إلى لون من ألوان الدعاية
لأمنمحات كملك عادل منقذ، وهو ما نوافق عليه تماماً، لكننا سقنا في
المقابل عدداً من القرائن التي تشير إلى أن الجزء الأخير الذي يتنبأ
بالمك المنقذ (آميني) هو فقط الذي تصح نسبته لعصر (أمنمحات)،
وأنة أضيف بالفعل أيامه أو قبل صعوده سدة العرض بزمان يسير،
وكان معلوماً باليقين للكاتب الذي اضاف تلك النبوة أن (أمنمحات)
لابد سيصبح ملكاً للبلاد، أما بقية متن الوثيقة فكان بالفعل يسبق
عصر (أمنمحات) بزمان، وأن ذلك الأصل قد تم تدوينه زمن الثورة،
وبالتحديد أيام فوضى العصر المتوسط الأول، وهكذا أصبحت الوثيقة
تبدو بكاملها كروية تنبؤية بقنوم (أمنمحات).

أما السر في عدم اليقين من التاريخ الصادق لزمن الأحداث
الواردة بها، أنها لم تدون بالفعل على النسخة التي وصلتنا إلا في عهد
الدولة الحديثة، من قبل كاتب عاش في القرن ١٥٠٠ ق.م، حيث
ظهرت له أهمية النص الأصلي الذي بدا موشكاً على التلف، فقرر
نسخة والاحتفاظ به، ولما لم يجد بردية خالية عنده قام بنسخها على
ظهر بردية كان يستخدمها لإجراء حساباته الخاصة، وبذلك وصلتنا
نبوءة (نفرحو) بالصدفة البحتة، بما تحويه من غموض ومن أغلاط

كثيرة حدثت نتيجة النسخ عن نص قديم يختلف فى أسلوبه عن أسلوب عصر الناسخ.

وترجع أهمية الوثيقة لكونها - فى رأينا - دونت لأول مرة فى عصر الثورة بالعصر المتوسط الأول، لكنها بعكس (إيبور) الذى ركز اهتمامه على أحداث الثورة، فإنها ركزت اهتمامها على تسلل الآسيويين للبلاد، فألقت الضوء على ما أهمله (إيبور) وساقه فى شذرات لا تعطى تفصيلاً عن ذلك التسلل بشكل واف، وهنا يجدر بنا أن نضيف أنه ليست فقط مؤخرة البردية هى التى أضيفت إليها فى عهد (أمنمحات)، بل إن بالمدخل شواهد واضحة على كونها بدورها تمت إضافتها فى عهد (أمنمحات).

الوثيقة تبدأ بالملك (سنفرو) جالساً وسط حاشيته : "وقال لهم جلالتة: يا إخوتى لقد أمرت بطلبكم لتبحثوا لى .. عن أى شخص يتحدث بكلام جميل وألفاظ منتقاة، عندما أسمعها أجد فيها تسلية، عندئذ سجدوا.. وقالوا .. يوجد مرتل عظيم للإلهة باست يا أيها الملك، اسمه نفررحو، وهو رجل شعبى قوى الساعد وكاتب حاذق الأنامل... فقال جلالتة : اذهبوا وأتوني به.. فقال المرتل نفررحو: هل تريد كلماتى عما حدث أو ما سيحدث يا مولاي الملك؟ فقال جلالتة: لا، مما سيحدث، لأن الحاضر قد أتى إلى الوجود يمر بنا، ثم

مد يده إلى صندوق مواد الكتابة، وأخذ قلماً وقرطاساً ومداداً وكتب:
كتابة ما تحدث به الرائي نفررحو. ابن مقاطعة عين شمس، حينما
كان يفكر فيما سيحدث في الأرض، ويفكر في حالة الشرق حينما أتى
الآسيويون بقوتهم"، (ونلاحظ أن نفررحو من عين شمس بالدلتا، مما
يجعله أقرب إلى معاشة أحداث التسلسل البدوي بل وكان في مركز
هذا التسلسل في بويطة معبد الربة القطة باستت)، ويقول نص
كلام (نفررحو):

فؤادى، لطالما تألمت من أجل تلك الأرض التى نشأت فيها

وقد أصبح الصمت نقيصة

وثمة أمور يتحدث القوم عنها...

وقد ولى زمان الرجل الكفاء..

فمن أين تبدأ؟..

لا تراع فؤادى

فالأمر واضح أمامك وعليك أن تقاومه

لقد أصبح حكام البلاد يأتون أموراً ما كان ينبغى حدوثها

وخربت الأرض وليس من يأسى عليها

..يتحدث الجميع عن الحب ... لكن الخير اختفى

تناقصت الأرض لكن الموظفين تزايدوا

جفت الأرض لكن الضرائب تضخمت

قلت المحاصيل لكن المكياج اتسع

واقترح القبطيون أرض مصر

وما من مدافع لسمع أو يجيب تباعد (رع) عن الناس

وأصبح الكليل صاحب سلاح

وصار القوم ييجلون من كان ييجلهم..

لكن سيأتى ملك من الجنوب اسمه آمينى

ابن سيدة من تاستى

طفل خن نحن

سوف يتسلم التاج الأبيض

ويلبس التاج الأحمر

والناس فى زمنه سيكونون سعداء

إن ابن أحدهم (أو ابن الإنسان) (*)

سيخلد اسمه إلى أبد الآبدين (١)

أما الذين تأمروا على الشر ودبروا الفتنة

فقد أخرجوا أفواههم خوفاً منه

والآسيويون سيقتلون بسيفه

واللوبيين سيحرقون بلهبه

والثوار سيستسلمون لنصائحه

والعصاة لبطشه

سيخضع المتمردون للصل الذي على جبينه

وسيقم أسوار الحاكم

حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر

وسيستجدون الماء حسب طريقته المعروفة

(*) هذا التعبير يعنى ما يعنيه ذات التعبير في الدراجة المصرية الآن (ابن ناس)، وهو تعبير

لا يشترط الأصل الثرى بقدر ما يقصد الأصل والمنبت الطيب.

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،

القاهرة، ١٩٦٧، ج ١، ص ٣٦٥.

حتى ترده أنعامهم

وستعود العدالة إلى مكانها

وينفى الظلم من الأرض

فليبتهج من سيرها

ومن سيكون من نصيبه التعاون مع ذلك الآتى^(١).

هذا، وكنا قد ذهبنا فى كتابنا (أوزيريس ٠٠) إلى أن تولى
(أمنمحات الأول) عرش مصر، يوحى أن تلك الولاية كانت قمة
أغراض العمل الثورى، استنادا إلى شواهد أهمها:

- أن (أمنمحات) لم يكن من سلاسل ملكية، ولا حتى من أبناء
النبلاء، بل كان رجلاً من سواد الشعب، وإن كان طيب المنبت، أثبت
صلاحيات عسكرية وحربية أوصلته إلى وزارة الحرب، ويعلمنا
(سليم حسن) مستفيداً من (جاردنر) أن تعبیر (ابن أحدهم)

(١) استنادنا هنا إلى ترجمة د/ سليم حسن (سبق ذكره ج ١، من ص ٣٣٣ : ٣٣٩)

والتعديلات التى أدخلناها على الترجمة هنا مستندة إلى:

- Gardiner, the jomal of Ehgption Archaeology, voll, pp.100ff.

- Gunn, vol x ll, 1926, pp. 250ff.

أو (ابن الإنسان) تعبیر متواتر يشير إلى شخص من نسل غير ملكي أو نبيل، وإن كان ابن أسرة طيبة^(١).

ويقول (جيمس برستد) صراحة، « إن أمنمحات قد اغتصب الملك قهراً »^(٢)، ويذهب معه آخرون إلى أنه كان وزيراً قوياً في عهد (منتوحتب الرابع) آخر ملوك الأسرة الحادية عشر، واستطاع - أثناء وزارته - أن يركز بيديه سلطات كبيرة، وأن يشرف إشرافاً فعلياً على شؤون الدولة، وانتهز وفاة مليكه فوثب على العرش^(٣)، هذا ناهيك عن الاتفاق شبه الكامل على أنه هو ذاته (أمنحتب سحتب أب رع) رئيس الجند في عهد (منتوحتب الرابع)، وأنه استغل رئاسة الجند للإطاحة بمليكه والقضاء على شأفة أسرته، وقد أكد (برستد) وهو مصر ولوجي ثقة أنه هو ذاته (أمنمحات سحتب أب رع) صاحب آخر حملة مشهورة تم تجريدتها لتطهير البلاد تماماً من بقايا الآسيويين، وذلك قبل قيام الأسرة الثانية عشرة بزعامته بزمان يسير^(٤).

(١) سليم حسن : سبق ذكره، ج ١، ص ٣٣٨.

(٢) جيمس هنري برستد: كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة

د. حسن كمال. وزارة المعارف المصرية، ط ١، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٩.

(٣) محمد العزب موسى : أو ثورة على الإقطاع، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٩٩.

(٤) برستد كتاب تاريخ .. سبق ذكره ، ص ٩.

- والشاهد الثانى هو أن قائد الجند (أمن محات) ينتمى باسمه الذى يعنى (آمن فى الطليعة) إلى إله كان مغموراً حتى ذلك الحين هو (آمن)، مما يشير إلى اتباعه عقيدة تخالف عقيدة سادته، المناحة التابعين للإله (منتو) إله أرمنت، وهو أمر غريب مع وزير فى حكومة فرعونية، ومنذ تولى (أمنمحات) الحكم يرتفع شأن (آمن) حتى يصبح أهم الآلهة على الإطلاق حتى نهاية العصور الفرعونية. والخطير فى رأينا هو أن (آمون أو آمن) كان فى العقيدة الشعبية هو " .. روح أوزيريس " (١) ذلك الإله الذى احتسبناه أدلوجة الثورة.

- والشاهد الثالث هو أن (أمنمحات) اعتبر فى نظر رجال الفكر المصرى القديم - كما عند (نفرحو) - المخلص المنتظر، إضافة إلى كونه الرجل الذى وجه همه إلى كسر شوكة النبلاء الذين بقوا من العصور القديمة (٢).

وقد أسسنا على ذلك تكهنات مفاده أن أمنمحات كان رجل الشعب المنتظر، وربما كانت القيادات الشعبية وراء الترويج له كما فى إضافة النبوءة به لاشعار (نفرحو)، مع تمهيد السبيل له بكل الوسائل

(١) أدولف إرمان ديانة مصر القديمة، ترجمة د. محمد عبد المنعم أبو بكر، ود. محمد

أنور شكرى، نشر مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، د.ت. ص ١٠٩.

(٢) العزب: سبق ذكره، ص ٩٩.

للوصول إلى الحكم. ولعل في نص البردية ما يشير إلى حميمية العلاقة بين (أمنمحات) والثوار، فإن الآسيويين سيقتلون بسيفه "واللوببيون سيحرقون بلهيبه"، و"العصاة ببطشه"، لكن "الثوار سيستلمون لنصائحه". وقد استطاع أمنمحات بالفعل أن يجعل من عصره أزهى عصور الدولة الوسطى، ولكن (أندريه إيمار) و(جانين إيوايه) يذهبان إلى تأكيد أنه قد مال آخر أيامه إلى عقد لون من المصالحة مع النبلاء الأقوياء .. الذين بدعوا يستعيدون نفوذهم بعد سكون الأحوال، بحيث أرتضى السماح لهم باستعادة قسط من النفوذ القديم مقابل طاعته^(١).

وهنا عثرنا على نصوص تشير إلى مؤامرة قد دبرت في الخفاء لاغتيال الملك، وبلغت حداً بعيداً حيث دخل عليه الجناة غرفة نومه، وهجموا على شخصه الملكى بالسيف، مما أضطره للدفاع عن نفسه بنفسه حتى هرع الحراس لمساعدته، وقد احتسبنا تلك المحاولة قد جاءت من جانب القيادات الثورية إزاء سياسته الجديدة مع النبلاء، بحيث إعتبر خائناً لقضية الثورة، مما استدعى تصفيته جسدياً. ويدل حديث (أمنمحات) عقب محاولة اغتياله على ذلك المعنى، فهو يأسف لخيانة حلفائه الذين وثق بهم ، ويقول:

(١) إيمار وإيوايه الشرق واليونان القديم، ترجمة فريد داغر وفواد أبو ريحان، دار عريقات، بيروت، ١٩٦٤، مج ١، ص ٦٣.

لقد أحسنت إلى اليتيم

وأطعمت المساكين

وتحدثت مع الوضيع كمحادثتي مع الأمير

لكن كل من أكل خيري

قام ضدي^(١)

والمعنى الواضح أنه كان حليفاً لطبقة محددة، يصفها باليتيم
والمسكنة والوضاعة، مؤكداً أن هؤلاء الحلفاء هم من حاولوا اغتياله،
وإن كان (برستد) يؤكد أن المتآمرين كانوا من رجال حاشيته^(٢)، فإن
ذلك يدعم مذهبنا، لأنه من الطبيعي أن تكون حاشيته متشكلة ممن
مهدوا له السبيل إلى العرش، ومن هنا نفهم لماذا قام بتصفيتهم جميعاً
بعد ذلك؟

كما أن في بردية (نفرحو) معاني كثيرة تؤيد ما ذهبنا إليه،
ونسوقها هنا كأدلة جديدة لم ندرجها بكتابنا المذكور، فالمعتقد أن يسبق
اسم فرعون ويتبعه عدد غفير من ألقاب التشريف والسيادة والتفخيم
إلى حد مبالغ فيه، ويثير عجباً شديداً بين الباحثين،، وهو الأمر الذي

(١) برستد كتاب تاريخ .. ص ١٦٦.

(٢) نفسه : ص ١١٥.

تخلو منه هذه البردية تماماً، وهو أمر خارج على المؤلف بالمرّة. ناهيك عن كون الملك يخاطب حاشيته بالنداء (إخوتى) ويتوجه بالحديث لأحد رعيته بالقول (يا صاحبي)، وبدلاً من أن يأمر بإحضار الكاتب الملكى، يقوم هو بهذا الدور ليسجل ما يقول أصغر رعاياه. وهى مشاهد لا يمكنك أن تجدها قبل أو بعد تلك الوثيقة النادرة، فى تراث مصر القديمة، أما أن يطلب صاحب الجلالة مرتلاً يؤنسه فيخبره رجاله لزيادة سعادته وإدخال السرور على قلبه إن مثل ذلك الرجل موجود، وأنه ليس رجلاً عادياً، ويبشرونه بوصف الرجل المطلوب بالوصف «رجل شعبى قوى الساعد!!» فهو أمر فى غنى عن التعليق.

والآن ماذا قدم لنا (فليكوفسكى) بشأن بردية الأرميتاج !

بعكس الجميع فإن كلمة (آمينى) تشير عنده إلى (آمنحتب الأول) ابن الملك (أحمس) ملك التحرير، ويعد (آمنحتب الأول) ثانى ملوك الأسرة الثامنة عشرة. والاسم هنا بدوره ملصق من مقطعين (آمن+حتب)، ولأنه يريد من كلمة (آمينى) أن تشير إلى محرر مصر من الهكسوس، ولأنها لا تلتقى مع المحرر (أحمس)، فلتتق مع ولده، ولأن (آمينى) من (تاستى) بالنوبة، فلا بد أن يكون أسود اللون وهو لون (آمنحتب الأول)، لكنه أيضاً لون (أمنمحات) وأغلب حكام مصر

من ملوك طيبة. (أمينى) إذن يحتمل أن تشير (لأمنمحات) حتى يتزامن التاريخ مع زمن التوراة، ولأن الفاصل بين الرجلين (أمنمحات الأول) و (أمنحتب الأول) يصل إلى ستة قرون، إلا أن أخطر ما يدحض (فليكوفسكى) تماماً، هو نص البردية الذى يصف (أمينى) بأنه ابن أحدهم، أى ليس سليل بيت ملكى، بينما الملك (أمنحتب الأول) هو ابن الملك (أحمس) بن الملك (سقننرع) .. الخ، أما (أمنمحات) فرجل من عامة الشعب، وهكذا لا ينطبق الوصف على الملك الذى اختاره (فليكوفسكى) ليتزامن مع تاريخه، وقصد به أن يطابق (أمينى) مع (أمنحتب الأول) ليستطيع أن يجعل من بردية الأرميتاج برمتها شهادة على أحداث الخروج ودخول الهكسوس.

أما الدحض الثانى لهذا السند لإعادة كتابة التاريخ حسب التزمين الفليكوفسكى، فهو ما جاء، فى نص البردية " .. الآسيويون سيقتلون بسيفه .. وسيقيم أسوار الحاكم حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر "، والمعلوم أن سور الحاكم الذى كان يشار إليه بالتعبير (حائط الحكم التى أقيمت لصد الآسيويين والقضاء على عابرى الرمال) قد بنيت فى عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة (١) أسرة (أمنمحات) وقبل زمن (أمنحتب الأول) بستة قرون كاملة.

(١) العرب : سبق ذكره ، ص ١٧، ١٨.

وبمزيد من البحث والتدقيق، نجد فى وثائق الأدب المصرى، وفى قصة (سنوحى) تحديداً، وهى قصة أدبية مشهورة، دليلاً قاطعاً على أن (حائط الحاكم) قد أقيم زمن (أمنمحات الأول)، أو أنه كان موجوداً فى آخر أيام هذا الملك، وبعد القضاء التام على أثر (العامو حريشع) بمصر، فيحكى (سنوحى) بعد أن بلغه نبأ محاولة اغتيال الملك (أمنمحات الأول)، ودون أسباب واضحة لم تزل شاغلة للمهتمين من الباحثين، يشعر المحارب (سنوحى) بالذعر الشديد، ونظن السبب واضحاً مع رؤيتنا التى قدمناها، وموقف سنوحى يشير إلى كونه كان أحد القيادات الشعبية المتأمرة على الملك، بل وكان شريكاً مخططاً على الأقل، لذلك نجد سنوحى يهرب فوراً إلى آسيا بعد أن غافل حراس (حائط الحاكم) أو بالنص فى قوله : « وأعطيت الطريق لقدمى - وهو يشبه تعبيرنا: وأسلمت قدمى للريح - ولما اقتربت من حائط الحاكم المقامة لرد الآسيويين والقضاء على عابرى الرمال، قعدت القرفصاء تحت أجمة خشبية، خشية أن يرانى حراس الأسوار أثناء تأديتهم لخدمتهم اليومية » (١) .

فالحائط قد أقيم إذن فى عهد (أمنمحات)، وقبل (أمنحتب) بستة قرون، وبه تسقط حجة (فليكوفسكى) المؤسسة على بردية (نفررحو)

(١) بريتشارد : سبق ذكره، ص ٨٥، ٨٦.

لإعادة صياغة تاريخ العالم، مع زيادة يقين القارئ الآن، أن غزو الهكسوس كان أمراً يختلف تماماً، ومتأخراً تماماً، بالنسبة للتسلل الآسيوى الأول فى العصر المتوسط الأول، وأن غزو الهكسوس كان حدثاً، وغزو أولئك الذين انتهزوا فرصة الثورة للتسلل كان حدثاً آخر، وهم من أطلق عليهم المصريون (العاموحريشع).

٤ - تزييف دلالات نبوءة الخراف :

فى عملية التاريخ التى قام بها العلماء لتاريخ مصر القديمة، كان ثمة خطأ بالفعل، لكنه ليس من نوع الخطأ الذى يسقط بموجبه ستة قرون كاملة من التاريخ كما يريد (فليكوفسكى)، إنه خطأ لا يسقط شيئاً إنما يودى إلى التباس فى حسابات سنى الملوك والأسر، ومدى دقة ضبطها مع توقيت محدد فى عام بذاته. وللتوضيح نقول: إن الخطأ لم يكن ناتج نقص أو تشويه للمستند التاريخى، لكنه كان عيباً فى التقويم المصرى ذاته، إذ أنه فى زمن بالغ القدم، كان المصريون قد وضعوا حساباتهم الفلكية التى بموجبها تزيد ربع يوم، أو مع زيادة يوم كامل إذا قارناه بالنسبة الفلكية، وعندما نسقط تلك الزيادة - كما نفعل اليوم فيما نسميه بالسنة الكبيسة - فإننا سنجد فارقاً فى حسابات السنة المصرية القديمة، بشهر زائد كل ١٢٠ سنة عن السنة الفلكية. ومع تراكم هذا الشهر كل ١٢٠ سنة يبدأ التناقص

بالظهور، مع أناس يعملون في مواسم للزرع ومواسم للحصاد، وهو ما عبرت عنه بردية عصر الرعامسة التي تقول : « إن الشتاء يأتي في الصيف، والشهور تنعكس، والساعات تضطرب... ». ويبدو أن المصريين لم يحاولوا تلافي الخطأ لما يحوطه من قدسية تحريرية تقليدية، حتى جاء (بطليموس الثالث) عام ٢٣٧ ق.م ليصدر مرسوماً بإدخال يوم إضافي للسنة، حتى يمنع أعياد مصر الوطنية من المجيء في غير مناسباتها الزراعية، وحتى لا يأتي الشتاء في الصيف ^(١)، لكن (فليكوفسكى) لا يجد مانعاً من الإتيان بنص البردية " ويعود موسم الشتاء إلى موقعه الصحيح من العام، وتستعيد الشمس مجراها الطبيعي " ليوحى أن الشمس كانت قد خرجت عن مدارها نتيجة الخلل الكوني الذي أصاب كوكب الأرض وسبب كوارث الخروج. ثم يستمر " وتهب الرياح بعد أن كانت الشمس محجوبة بسبب العاصفة "، بعد أن يكون قد مزج بين نص البردية المنسوبة لعصر الرعامسة بالأسرة التاسعة عشرة، وبين مرسوم كانوب المكتوب بثلاث لغات منها اليونانية، والذي أمر به (بطليموس الثالث) عام ٢٣٧ ق.م.

(١) جاردنر (ي.لن هنرى) مصر الفرعونية، سبق ذكره، ص ٨٢ : ٨٤.

وبعد ذلك يسرب فصلاً تحت عنوان (استفسارات) يقول فيه
 " لا توجد معلومات قاطعة عن أى غزو آسيوى (عامو) أو (آمو)
 حدث فى العصر المتوسط الأول الذى يقع بين الدولة القديمة والدولة
 الوسطى"، حتى لا يكون ثمة إمكان لغزو سوى غزو الهكسوس الذى
 حدث بعد الأسرة الثانية عشرة وهى مخالفة صريحة لكل ما تعارف
 عليه علم المصريات بكشوف أركيولوجية واضحة غير ملتبسة. وهذا
 التغافل عن تلك الحقيقة كان عموده العظيم الذى أسس عليه بنيان
 إعادة صياغة التاريخ، وبحيث انتهى إلى عدم صحة
 أو جواز نسبة بردية ليدن وبردية الأرميتاج إلى ما قبل الأسرة الثانية
 عشرة، ومن ثم تكون كل روايتهما والأحداث التى وردت بهما تتفق
 تماماً مع لحظة دخول الهكسوس ولحظة خروج الإسرائيليين، تلك
 اللحظة التى صاحبتهما كوارث فلكية نادرة، أشرف على تنظيمها،
 ورتب الإخلال بنظام الكون خلالها، الرب (يهوه) بذاته، من أجل
 عيون شعبه الذى فضله على العالمين!!

لكن الثابت تاريخياً أن مصر كانت تتعرض دوماً وبشكل شبه
 دورى للغزوات الرعوية، والتسلل إلى البلاد، وخاصة مع أى لحظة
 ضعف أو خلل فى المركزية، وهو ما تشهد به الوثائق التاريخية،
 تضرب منه أمثلة سريعة: ففى عهد (بيومى الأول) بالدولة القديمة

(عصر بناء الأهرام) يحكى قائد الجيوش " وحين أراد جلالته أن يوقع العقوبة على الآسيويين والساكنين على الرمال، جمع جلالته جيشاً من عشرات الألوف .. وأرسلنى جلالته على رأس ذلك الجيش.. عاد هذا الجيش فى سلام.. بعد أن حمل معه جيوشاً كثيرة العدد كأسرى " (١).

وهناك تسلل آخر قوبل برده سريع فى الأسيرة الحادية عشرة، أو بالأحرى فى بدايتها، فى عهد (منتوحتب الأول) الذى سجل نصاً يقول أنه " أستولى على الأرض كلها، وأقدم على ذبح آسيوى دجاتى" (٢)، كما علمنا بطرد (آمنمحات) لطرده بقايا العامو حريشع عندما كان قائداً على جيوش (منتوحتب الرابع)، ثم تبعه أبنة (سنوسرت الثالث) الذى طاردهم إلى مواطنهم خارج الحدود المصرية، وهو ما تسجله لوحة نسمنت " ارتحل الملك بنفسه للقضاء على الآسيويين ووصل إلى إقليم سككم " وهو منطقة (ششم) السامرية الجبلية بشمال فلسطين (٣)، وهو امر ما كان ممكن التحقق لو كان أولئك الآسيويين هم الهكسوس الذين احتلوا المنطقة كلها بد فيها فلسطين ومصر. أما الملك (خيتى) فيسجل قبل ذلك بزمان، فى العصر المتوسط الأول " عامو التعساء إن سوء الطالع يحل حيث

(١) المصدر السابق ص ١١٤٤، ١١٥.

(٢) نفسه ص ١٤٢.

(٣) نفسه ص ١٥٣.

يحلون، .. إنهم يقومون بالمعارك منذ عهد حورس (يعنى منذ فجر التاريخ)، ومع ذلك فإنهم لا ينتصرون مطلقاً، وهم كذلك لا يغلبون «^(١)»، ثم يوجه النصح لولده (مرى كارع)، قائلاً : «الأسويى التعس لا تزعج نفسك به، إن هو إلا آسيوى»^(٢)، وهى بالطبع صورة لا تلتقى أبداً مع الهكسوس المحتلين أصحاب الإمبراطورية.

٥ - تزييف دلالات مقياس سمنة :

فيما وراء الجندل الثانى فى أقصى الجنوب، وفى وقت ما من التاريخ المصرى القديم، أرسى المصريون حدودهم الجنوبية عند قلعتين منيعتين تواجه كل منهما الأخرى على القمم الصخرية على ضفتى النيل، واحدة اسمها (قمة) والأخرى اسمها (سمنة)، ومن هناك نحو الجنوب، ومع بدء الصخور، تبدأ أرض (كوش) بلاد الزنج، وعلى الصخور المقام عليها قلعة سمنة حفروا مقياساً لمياه النيل، ليتمكنوا من التنبؤ بالفيضان المرتفع أو المنخفض، قياساً على الأثر الذى يتركه ماء الأعوام الماضية من أثر، دون حاجة لفرعون حلوم، كما قصت علينا التوراة، وبناء على ملاحظة (ليبسوس) لأثار المياه التى تركها على المقياس، ربما يسجل ارتفاعاً يزيد عن اثنين

(١) نفسه ص ٥٤.

(٢) ولسن : سبق ذكره، ص ١٥٢.

قديماً على القياسات المعاصرة، يقدم (فليكوفسكى) وثيقته السادسة الدالة على الكارثة، حيث يزعم أن ذلك يعنى هبوطاً فى التكوين الصخرى وطبقات الأرض فى مصر آنذاك بمقدار اثنين وعشرين قدماً، لأنه لو كانت الأرض هى الثابتة، وأن التغير حدث فى كمية الماء المتدفق بالنيل، فذلك لا شك يعنى أن عدداً من المعابد والمساكن كان من المفروض أن تغطى بالمياه بانتظام كل عام زمن الفيضان.

ولا مشاحة أن الرجل هنا يمتلك قدرة النقاط عظيمة، وصبر على التفتيش وراء كل ما يدعم مذهبه، لكنه ربما لم يلتفت إلى النتائج التى تترتب على هبوط الصخور المقياس، والتى لابد أن تؤدى إلى هبوط المقياس بدوره بذات القدر، حيث إنه تم تسجيله حفراً فى شكل خطوط عرضية على خط رأسى على الجرف الصخرى عند (سمنة). وحبته هنا كما هو واضح واهية تماماً، لكنه على أية حال يسوقها ضمن مجموعة قرائن متضافرة، بحيث لا يظهر هذا الضعف إلا عند انهيار القرائن الأخرى، أما ما نعرفه نحن إبناء هذا الوادى يقيناً بالمعاشة والمعاناة، وفى طفولتنا قبل بناء السد العالى، أن الفيضان كان يأتى فى بعض المواسم مرتفعاً إلى حد نتحول فيه جميعاً إلى طواري من لون خاص بمصر، طواري الريف المصرى الذى

يتحرك ابنائهم فوراً، وكلّ يعرف دوره تماماً دون تنظيم رسمى، للردم حول القرى لحماية البيوت المتطرفة، التى ستتعرض بحكم الدراية — خلال أسابيع للغرق الكامل. وكان الماء يرتفع إلى حدود هائلة، ولم يكن ذلك ليبهشنا نحن أبناء النيل كما أبهر الروسى (فليكوفسكى)، حيث كنا معتادين — فى غير فصل الفيضان — على التطلع من فوق أسطح منازلنا، على الأطراف العليا البعيدة لأشعة المراكب النيلية تحتنا، وكنا معتادين أيضاً — فى فصل الفيضان — على الصعود إلى أسطح تلك المراكب واللعب فوقها عندما ترسو عند أبواب بيوتنا، أما المساعدة فى حمل (قف) الأتربة والأحجار للبالغين وهم يقيمون الردم حول البيوت المتطرفة، فكانت مجالاً لسعادة طفولتنا وهزرها ومرحها، كانت لونا من اللهو الدورى الجميل الذى — لا شك — لا يعرف (فليكوفسكى) طعمه، ولا علاقته بحميمية أبناء هذا الوادى وبعضهم، وبينهم وبين نيلهم الذى كأن يتجرأ عليهم إلى حد التدمير، لكنهم كانوا دوماً أسعد الناس به، وأشد من فى الكون فرحاً بجبروت فيضانه. أما أجدادنا فكانوا يحكون لنا فى طفولتنا عن ارتفاع أشد قسوة للماء لم نحظ نحن بمعاشته، وكان يحدث قبل إقامة سد أسوان الذى يبعد عن السد العالى إلى الشمال بمقدار سبعة كيلومترات. وكان الاجداد يشيرون إلى مواقع بيوتنا ويقولون: ما كان ممكناً أن تقام هذه البيوت هنا قبل إقامة سد أسوان، حيث كان الماء

يغطي هذه الأرض وقت الفيضان. أما أهل بعض المناطق وخاصة في وسط الدلتا فقد أقاموا قراهم بكاملها فوق ردم مرتفع، جعل لتلك القرى الآن لوناً غريباً لكنه بديع، وعلى الردم أقام الأهليون السلاالم الحجرية التي كانت تسمح للفلاحات بحمل أوانى الطهو والملابس لغسلها أمام أبواب البيوت مباشرة في مياة النيل وقت فيضانه، بدلاً من جهد حملها الطويل أيام التحاريق الصيفية إلى مجرى النهر البعيد.

٦ - تزييف دلالات نقش حتشبسوت الحجرى :

يسوق (فليكوفسكى) نص هذا النقش كالاتى " إن مقر ربة كيس قد تحول إلى أنقاض، وابتعلت الأرض حرمها المقدس، ولعب الأطفال فوق معبدها، وقد أزلت عنه ما تراكم وأعدت بناءه، واستعدت ما كان أنقاضاً، وأكملت ما كان قد ترك بلا بناء، فقد كان هناك آمو فى وسط الدلتا، وفى حواريس، وكانوا هم من دمرت قبائلهم كل المباني القديمة، وقد حكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع ".

وعندما يورد (فليكوفسكى) ذلك النص مباشرة، بعد حديثه عن مقياس سمته الذى يقع أقصى الجنوب ودون أن يحدد أين يقع المعبد

المهدم، معتمداً على أنه مكان يسمى (كيس)، حيث إن المعبد كان معبد (ربة كيس)، إنما يقوم بتزييف آخر يذهب بالقارئ إلى مكان اسمه (كيس) قرب (سمنة)، وهنا لا شك سيراود القارئ وهو يبني تصورات أن الهكسوس قد حكموا مصر بكاملها حتى وصلوا حدودها الجنوبية قرب (سمنة)، حتى يلائم ذلك أربعة قرون حكموا فيها مصر. ولن يكون مستساغاً أن يحكموا أربعة قرون دون احتلال لكل شبر فيها، لكن الحقيقة أن الهكسوس لم يصلوا إلى أبعد من (أشمون) الحالية في أبعد التقديرات، بل ربما لم يصلوها إطلاقاً، إنما رضوا من حكمها بالجزية التي ستسمح لهم بالمرور شمالاً إزاء إغلاقهم للحدود الشمالية على البحر المتوسط والشرقية بسيناء. كما أن التعبير (ربة كيس) فيه تلاعب واضح، لأنه (مقر الربة كيس) وليس (مقر ربة كيس)، والنص عبارة عن نقش أمرت بكتابتها الملكة حتشبسوت على واجهة معبد إقليمى، يوعز لنا (فليكوفسكى) إنه كان فى سيناء ليتيسر له الزعم بهبوطه تحت الأرض أثناء الكارثة. رغم المعلوم أن المعبد المذكور فى منطقة اسطبل عنتر الحالية بمصر القديمة، وهو الذى أطلق عليه اليونان اسم «سيبيوس أرتميدس» ويبدو أن معبد الإلهة (كيس) أهمل زمناً أتاح للرمال أن تتراكم عليه «أزلت ما تراكم عليه»، وهى ظاهرة نعرفها فى بلادنا. أما التعبير الوحيد الذى استند إليه صاحبنا فى انخفاض الأرض المتزلزلة بفعل رب التوراة وقت

الكارثة، وهو تعبير مجازى واضح يشير إلى تراكم الرمال على المعبد، يقول « ابتعلت الأرض حرمة المقدس »، وليس هناك أية إشارة لانخفاض الأرض وإلا أشارت (حتشبسوت) للأمر بوضوح، أما كوننا نذهب إلى عدم تجاوز الهكسوس لسيناء وشرقي الدلتا، فهو واضح في قول حتشبسوت « كان الآسيويون في حواريس في شمال البلاد، وكانت من بينهم حشود تقوم بهدم ما سبق تشييده، كانوا يحكمون بغير مشورة رع »^(١). ولعل القول بحشود تهدم ما سبق بناؤه لا تحتاج إلى تعليق.

وقبل أن ننتقل إلى القسم الثانى من نظرية (فليكوفسكى) نجدنا بحاجة إلى الإجابة عن تساؤلات مشروعة إزاء ما قدمه حتى الآن، فإذا كان بنو إسرائيل في مصر منذ زمن طويل سبق نهاية الأسرة الثانية عشرة حين خرجوا ودخل الهكسوس، فهل لم يوجد في مصر شخص واحد أمكنه أن يسجل لنا ولو إشارة عن بنى إسرائيل باسم إسرائيل أو باسم أى فرد من أعلامهم؟ وإذا كان الهكسوس قد حكموا مصر أربعة قرون متصلة لم يوجد بينهم من يعرف الكتابة ليسجل لنا شيئاً واضحاً عن إمبراطورية عربية عظمى قامت على الجهل والبربرية؟ أو لم يوجد مصرى فى عهدهم يدون لنا خلال أربعة

(١) انظر على سبيل المثال فقط جاردنر : سبق ذكره ، ص ١١٢ .

قرون شيئاً عنهم؟ إن عدم وجود مثل تلك المدونات إطلاقاً، كفيل وحده بهدم كل ما ذهب إليه (فليكوفسكى)، لكن وقفنا معه كانت أمراً لازماً إزاء براعته القصوى التى تحسب له، والتى كانت تكفل له أن يهمل أى قارئ مثل تلك التساؤلات.

تزوير التاريخ

أقام (فليكوفسكى) رؤيته فى جنس الهكسوس وموطنهم على إشارة عابرة للمؤرخ المصرى (مانيتون)، والتي ساقها (مانيتون) فى صيغة عدم اليقين بقوله: «والبعض قالوا: إنهم كانوا عرباً» لكن (فليكوفسكى) يهمل تماماً إشارة (مانيتون) التأكيدية فى كون الملوك الستة الأوائل من الهكسوس، أصحاب الأسرة الخامسة عشرة — فيما يزعم — كانوا فينيقيين بالتأكيد^(١) وهو ما أخذ به بعض المؤرخين وإن ذهب الأكثرية إلى قدمهم من مناطق بحر قزوين.

والمعلوم أيضاً أن العامل الأخطر والذي ساهم بقدر فاعل فى غزوهم لمصر، ليس فقط حالة التفكك والفوضى التى صاحبت العصر المتوسط الثانى، بل أيضاً تفوقهم العسكرى الذى تمثل فى أمرين غاية فى الدلالة: الأول هو اكتشافهم لمعدن الحديد وتصنيعه، بحيث امتلكوا أسلحة مصنوعة من الحديد، أما الأمر الثانى فهو أنهم كانوا السابقين إلى ترويض حيوان لم يكن معروفاً فى منطقة الشرق الأدنى أصلاً هو الحصان، بل واختراع العجلات التى يجرها ذلك الحصان

(١) د. لويس عوض: مقدمة فى فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

واستخدامها في النقل، وكأداة حربية متطورة للغاية، تعادل دبابات اليوم وطائراته، والثابت تاريخياً وحفرياً أن منطقتنا لم تعرف الحصان بالمرة قبل قدوم الهكسوس إليها، وإن جاءت إشارات إليه من نصوص الرافدين المسمارية، من عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م) باسم (أنشوكرا) أي (حمار الجبل) أو (حمار البلد الأجنبي)، ولم يعرف في الرافدين إلا مع الغزو الكاسي لها (١) حوالي عام ١٦٠٠ ق.م، ولنلاحظ أن غزو الهكسوس لمصر جاء حسب التاريخ المعروف حوالي عام ١٦٨٠ ق.م.

وقد ظهر سلاح العجلات التي يجرها الحصان لأول مرة في مصر، بعد اكتسابها تلك المعرفة من الهكسوس، وإبان حروب التحرير، وكان أول ظهور للحصان والعجلة الحربية في حروب أحمس ضد الهكسوس مع بداية الأسرة الثامنة عشرة، وكان سلاحاً ابتدائياً، بحيث أن كبير ضباط الفرعون (أحمس)، والمعروف بدوره باسم (أحمس بن أبانا)، الذي عرفناه مدوناً لقصة حصار المصريين لحواريس عاصمة الهكسوس، كان يسير على قدميه إلى جوار عجلة الفرعون، فإلى هذا الوقت كان المصريون يستخدمون السفن كوسيلة

(١) طه باقر: الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد

١٩٨٦، ج ١، ص ٤٥٦.

نقل رئيسية، وكترسانة عسكرية متحركة، وهو ما وضع في قصة التحرير، حيث «أبحر المصريون لقتال الهكسوس» ولأول مرة تظهر رتبة قائد سلاح العجلات مع نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة، وتحديدًا في عصر (آمنحتب الثالث) الذي أصدر قراراً - لأول مرة - بتعيين حميه (يويّا) قائداً لسلاح العجلات، بلقب «وكيل الملك في سلاح العجلات».

وهذا الأمر وحده كفيل بهدم السند الأساسي لفروض (فليكوفسكى)، إضافة لفقدان الكتاب المقدس صفته كمعيار تام السلامة للزمين، حيث أن الكتاب المقدس يشير إلى العجلات كسلاح معلوم، وكوسيلة انتقال إعتيادية عند دخول (يوسف) إلى مصر، والمفترض - حسب نظرية فليكوفسكى - أن هذا الدخول قد حدث منذ زمن سبق الأسرة الثانية عشرة، وجاء ذلك في عدة نصوص توراتية، جاء في تصرف الفرعون بعد إدراكه لقيمة يوسف التنبؤية «وأركبه في مركبته الثانية، ونادوا أمامه: إركعوا، وجعله على كل أرض مصر - تكوين ٤١ : ٤٣»، ثم جاء عند وصول يعقوب إلى مصر «شد يوسف مركبته وصعد لاستقبال يعقوب أبيه - تكوين ٤٦ : ٤٩»، ثم عند موت يعقوب وخروج يوسف ليدفن أباه.. وصعد

معه مركبات وفرسان، فكان الجيش كثيراً جداً — تكوين ٥ : ٧ - ٩"، وغير ذلك كثير من النصوص التي تؤكد وجود العجلات كشئ اعتيادي في مصر عند دخول الإسرائيليين إليها، وهو بالوثائق أمر باطل تماماً، إذا احتسبناهم قد دخلوا مصر قبل الهكسوس كما ذهب (فليكوفسكى)، لأن العجلات لم تعرف في مصر إلا مع مقدم الهكسوس إليها، بل ظلت العجلات بعد طردهم زماناً شيئاً ابتدائياً، لم يكتمل ليتمكن أن يكون نواة لسلح مستقل بالجيش، إلا بعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان، وهو الفارق بين زمن (بوياء) أو وكيل الملك لسلح العجلات، وبين زمن (أحمس) محرر مصر من الهكسوس ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة.

وعليه لا يمكن أن يكون الإسرائيليون قد دخلوا مصر في زمن سابق لزمن الهكسوس، بل المرجح أن يكونوا، قد دخلوها زمن الهكسوس وكحلفاء لهم، وقد سبق لنا أن وصلنا إلى تحديد المنطقة التي قدم منها الهكسوس إلى المنطقة، ونشرناه في كتابنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول)^(١)، وسجلنا مجموعة من القرائن كافية، تشير إلى أنهم يعودون بأصولهم إلى المنطقة الكاسية شمالي بلاد الشام والرافدين، في أراضى (أرمينيا) جنوب بحر قزوين، وتحديداً

(١) سيد محمود القمنى: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، القاهرة ١٩٩٠.

حول بحيرة (فان)، ومن هذه المنطقة قدمت موجات ذات كثافة عالية في شكل موجات متتابعة، وكان أكبر هذه الهجرات وأخطرها الموجة الكاسية التي دونت أخبارها نصوص الرافدين بعد أن هبط الكاسيون في غزو كاسح على دولة بابل الأولى حوالي ١٦٠٠ ق.م، وقد ذهبنا إلى أنه ضمن تلك الموجات جاءت موجة الهكسوس التي تعد جناحاً من أجنحة الهجرة الكاسية أتجه إلى مصر حوالي ١٦٨٠ ق.م.

وقد سبق أن علمنا أن (يوسفوس) فصل كلمة هكسوس إلى مقطعين: (هك) بمعنى ملك و(سوس) بمعنى راعي، أى ملوك الرعاة، وفي كتابنا (النبي إبراهيم...) رفضنا ذلك التخريج، لأن كلمة (هكسوس) إذا احتسبناها كلمة واحدة لا تتركب من شقين فسوف تكون واضحة بذاتها ولا تحتاج إلى تخريجات وتقسيمات، و(برستد) يذهب إلى أن الهكسوس أراميون ^(١)، وقد رأينا — بالأدلة — أن الأراميين من أرمينيا الكاسية، ومع حذف التصريف الأسمى في آخر كلمة هكسوس (حرف السين الأخير) لا تحتاج التسمية إلى إشارة إشكاليات، حيث تصبح (الكاسو) أو (الكاسي)، وهو ما يلتقى مع مذهبنا في كونهم فرعاً أصلياً للهكسوس، أما موسوعة تاريخ العالم فنقول في حديثها عن أحداث تاريخ الرافدين عام ١٦٠٠ ق.م، قولها:

(١) برستد كتاب تاريخ مصر... سبق ذكره، ص ١٤١.

«عام ٦٠٠ ق.م، غزا الكاشيون بابل، ... حكموها لمدة ٤٥٠ عاماً، أصبح الحصان معروفاً في مصر وغرب آسيا»^(١)، ومع ذلك لم تربط الموسوعة ولو بالإشارة بين الغزو الكاسي للرافدين، وبين الغزو الهكسوسي لمصر، وبين الأراميين وأرمينيا.

ولعل أهم ما يبطل تقسيم كلمة هكسوس إلى مقطعين (هك)، (سوس)، أنه لا يوجد في اللغة المصرية القديمة لفظة بنطق (سوس) أو ما تفيد معناه، على وجه الإطلاق^(٢)، وهو ما يبطل أيضاً أي تخريج يقسم الكلمة إلى مقاطع، ولا تبقى سوى (هـ - كاسي - س) أي الكاسيين، لكن (فليكوفسكي) كافح كفاحاً مستميتاً ليجد بالكتاب المقدس أي إشارة تتوافق مع معنى المقطعين (الملوك الرعاة) حسب التخريج الخاطئ، وهو ما يشير إلى تكلف وتلفيق واضح العمد، فيلجأ إلى سفر المزامير المتأخر بقرون طويلة عن زمن الخروج، ليجد فيه النص «قد أنزل عليهم الرب أشد غضبه وعقابه سخطاً وزجراً وضيقات، جيش ملائكة أشرار - ٤٨ : ٤٩»، ثم يعقب متغابياً فيما يبدو «فما الذي يعنيه ملائكة الشر؟»، بينما هو يعلم جيداً تواتر

(١) ولیم لانجر وسبعة عشر عالماً موسوعة تاريخ العالم، ترجمة د. مصطفى زيادة مع

سبعة مترجمين، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص ٥٦.

(٢) العزب سبق ذكره، ص ٤٥.

(ملائكة الشر) بالكتاب المقدس، واصطلاح ملاك الشر يشير إلى الملك الموكل من قبل (يهوه) مع جنوده لإنزال الدمار بأعداء إسرائيل، وهو اصطلاح اعتيادي تماماً لدى العارف بالكتاب المقدس، ثم يقوم (فليكوفسكى) بتفسير الاصطلاح (ملائكة أشرار) بحيث تلتقى مع (ملوك رعاة) بقوله إن الناسخ القديم للكتاب المقدس باللغة العبرية القديمة قد أضاف حرف ألف لكلمة (شرر) لتتحول عن معناها الأصلية (رعاة) إلى (أشرار)، بينما الشق الأول (ملائكة) يلتقى مع كلمة (ملوك) بلا فرق يذكر، وعليه فالأصل في المقدس القديم، كان "جيش ملوك رعاة"، وليس "جيش ملائكة أشرار"، والواضح أن الرجل قد بذل جهداً لا طائل من ورائه، حيث لا تعنى كلمة هكسوس بالمرّة (ملوك رعاة)، لعدم وجود كلمة (سوس) بمعنى (رعاة) ولا بأى معنى آخر ولاحتى بلفظها ضمن معجم ألفاظ المصرية القديمة، لأن الأصل فى اللسان المصرى كان (حقاوكاسوه) والتي ببساطة - لدينا - (الحكام الكاسيين) أو (الكاشيين).

ولو كان (فليكوفسكى) قد اقتصر على تزييف دلالات النصوص لهان الخطب، لكنه - كما رأينا في أكثر موضع - عمد إلى تزييف النصوص ذاتها، ومن ذلك التزوير ما فعله مع (بردية ساليه)، وهى عبارة عن تمرين مدرسى كتبه التلميذ (بيتاعور) كتدريب على

النسخ، وإن نسخها يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة، بعد طرد الهكسوس بمئات السنين، والأصل مفقود. لكن المصنوعين استخرجوا من ملايساتها أنها كانت تحكى قصة شعبية متواترة، من ألوان قصص الفخر الوطنى وأشعار البطولة القومية، والقصة تتناول بداية حروب التحرير، وتحديدًا بداية ما يمكن تسميته بالنزاع بين (سقننرع) الملك المصرى الطيبى، وبين (أبوب) الملك الهكسوسى، وتبدأ البردية بوصف حال الفاقة والبؤس، وكيف بعث (أبوب) رسالة تحدى (لسقننرع) فى طيبة مع رسول، تقول : " إخل البركة الواقعة شرقى المدينة من أفراس النهر، لأنها تحول بيننا وبين النوم ليلاً، ولأن ضوضاءها تملأ آذان سكان حوارييس " .

ورغم أن (فليكوفسكى) يرى فى تلك الرسالة كثيراً من الازدراء والاحتقار من قبل (أبوب) للحكام المصريين الذين يحكمون فى طيبة (الأقصر)، فإن آخرين ذهبوا إلى أن الرسالة لونا من (جر الشكل)، والاستفزاز، وهو استفزاز لامتعى له لو كانت الأمور مستقرة للهكسوس فى الجنوب، لذلك ذهب آخرون إلى أنها نوع من الألغاز القديمة التى كان الملوك يخاطبون بعضهم البعض بها، وأن الأمر يشير إلى لون من الضجيج الثورى بدأ يتعالى فى طيبة، وأن الأمر (أزعج) أبوب مما دفعه لإرسال تلك الرسالة المتحدية، التى

تكاد تقول : إن المشاعر الوطنية التى ظهرت فى الجنوب تقض مضاجعنا وعليك ايها الحاكم إخمادها فوراً.

ثم يأتى (فليكوفسكى) بما يوحى أنه نص يقول : " وظل أمير المدينة الجنوبية صامتاً، ثم بكى لوقت طويل ولم يدر بما يجيب على رسالة الملك أبو فيس " ومن ثم " قبض على الأمير المصرى، وساقه رسول الملك أبواب الثانى إلى حواريس "، ونهاية البردية مفقود، (والتعقيب الأخير لفليكوفسكى)، أما الغريب فعلاً أن بردية (سالي) تقطع عند مشاورة الملك (سقننرع) لحاشيته وجنوده بشأن الرسالة وإن الاستكمال جاء من عند فليكوفسكى فى حديثه عن القبض على (سقننرع) وأخذه إلى حواريس، وهنا الأمر الخطير فى عمل ملفق كالذى بين أيدينا، والذى حاز شهرة عالمية لا تضارع، وربما عمد (فليكوفسكى) إلى عدم ذكر ظروف كتابة البردية، حتى لا يتساءل القارئ: كيف يمكن لتلميذ فى مدرسة، وكيف يمكن لمدرسة وطنية فى ظل حكومة إمبراطورية تفاخر العالم آنذاك، أن يتناول موضوعاً شعبياً يحكى كيف تم إهانة ملك يفخر به المصريون، وكيف سيق أسيراً لعاصمة الهكسوس، بينما الثابت من وصف (البرت سميث) ومن واقع الجراح التى وجدت فى مومياء الملك (سقننرع)، أن الرجل مات بعدة ضربات نافذة بالخنجر والبلط. وكان

ممكناً القول مع (فليكوفسكى) أن الملك المصرى أخذ إلى حواريس أسيراً، ولو بافتراء على وثيقة لم تقله، وأنه أعدم هناك، لولا أن جثمانه كان محفوظاً بوادى الماوك فى طيبة عاصمة الجنوب، والتي انطلقت منها عزمات التحرير، وهو مايشير إلى موت الرجل فى معركة شرسة، وقع فيها شهيداً وسط جنوده، الذين حملوا جثمانه من ساحة المعركة إلى مرقده الأخير فى مقر حكمه (طيبة - الأقصر)، ولن نفهم سر كل هذا التسفيه من شأن قواد التحرير المصريين إلا فى ضوء تزمين التاريخ الفليكوفسكى، الذى يصب فى النهاية كل البطولة والنجدة والشهامة والمروءة فى يد بنى إسرائيل الكرام، حيث يتزامن الخروج الإسرائيلى مع الدخول الهكسوسى، ويتزامن الملك الإسرائيلى (شاوول) مع زمن تحرير مصر من الهكسوس، الذى قام به (شاوول) ورجاله بعد ماثبت له أنه إزاء جبروت إمبراطورية عربية، وبنص (فليكوفسكى) "إن الإسرائيليين كانوا هم الشعب الوحيد الذى قام وقااتل ودخل حروباً وبإصرار شديد، كى يظلوا مستقلين وغير خاضعين لسيطرة العماليق .. لقد كان زمناً بطولياً لإسرائيل أنفردت به دون سائر الأمم، فى الوقت الذى لم تقم فيه أية ثورة أو أى تمرد من أى نوع كان، لا فى مصر ولا فى غيرها، ضد العماليق، فى تلك الإمبراطورية الواسعة، خلال القرون التى حكموا فيها تلك البلاد " .

ونفهم من ذلك أن الإمبراطورية العربية المتبربرة التي تحدث عنها كإمبراطورية عالمية تحكم جزيرة العرب ومصر وجزر البحر المتوسط وبلاد الشام بما فيها فلسطين، تغلب على سطوتها حفة من الأبقين الخارجين من مصر هاربين ، بحيث كانوا الشعب الوحيد في المنطقة الذي امتلك كرامة قومية دعتة للمحافظة على استقلاله في بقعة صغيرة بفلسطين، ضمن الإمبراطورية العربية العظمى. وهو مبرر واه تماماً لتفسير قيام حكم القضاة اليهود لأربعة قرون في فلسطين في ظل إمبراطورية عاتية وهمجية كالتى صورها (فليكوفسكى) ذاته، تم سحب زمن الهكسوس ليتزامن مع عصر (شاول) مع تحرير مصر، لأن (شاول) -- فى رأيه -- هو الذى ألوف الإسرائيليين إلى حواريس، وضرب عليها الحصار وهزمها هزيمة، وشتت العماليق الهكسوس الذين انسحبوا إلى شاروهين وترك الأرض المحررة لأصحابها المصريين (منتهى العندل؟! ومنتهى المروءة)، دون أن يفكر فى الاستيلاء على تلك الأرض، ولم من باب انتقام واجب من عبودية بنى إسرائيل بمصر قروناً، و يحاول بقواته العظمى التى هزمت أعظم الإمبراطوريات فى زمانه أن يحتل مصر، كان همه الاوحد الانتقام من عماليق، لأنهم آذو الإسرائيليين عند الخروج، منذ أربعة قرون مضت، وظل الاسرائيليون يحتفظون بذلك الحق حتى انتقموا بتدمير حواريس وتشيت الهكسوس العماليق، هذا رغم (جيشان) الكتاب المقدس فى

كل إصحاح وكل سفر بحقد على مصر والمصريين، وكل ما كانت تملكه تلك الأسفار هو استئزال اللعنات المرتجاء من رب العالمين على رؤوس المصريين. لذلك من حقنا أن نبدي الدهشة والعجب من امتلاك إسرائيل تلك القوة الهائلة التي تهزم الهكسوس المحتلين أصحاب إمبراطورية الاحتلال الاستيطاني، ولا تنتقم من المصريين، في وقت كانت فيه مصر أمام تلك القدرات الإسرائيلية مجرد ثمرة ناضجة تقع دون جهد يذكر في يد (شاول) وجيوشه الجرارة.

ومن جهة أخرى، فإن مزاعم (فليكوفسكى) لا بد تفترض - ضمناً - أن بنى إسرائيل قد قضوا تماماً على كل أعدائهم الصغار مقارنة بالعماليق، وهو الأمر الذي يحتاج توضيحاً، لكن ليس قبل أن نقف مع النص المصرى الذى علم منه (فليكوفسكى) بقصة التحرير على يد (شاول)، وهو المدون فى مقبرة الضابط (أحمس بن أبانا)، إضافة إلى نص آخر استشهد به هو حكاية العراف (بلعام) بالتورة.

ولنبداً بنص التورة، الذى يحكى لوناً فجاً من الخرافة، عن كيف استدعى (بالاق) ملك الموآبيين العراف (بلعام) المديانى، ليصب له اللعنات على بنى إسرائيل فيبيدهم، فأجاب بلعام وقال لعبيد بالاق: ولو أعطانى ملئ بيته فضة، ولا ذهب، لا أقدر أن أتجاوز قول الرب.. فأتى الله إلى بلعام ليلاً وقال له: أتى الرجال ليدعوك فقم أذهب معهم.. فقام بلعام صباحاً وشد على أتانته وانطلق مع

تنبأ بلعام، وذلك فى الحملة التى قادها أول ملك لأول مملكة يتم فيها توحيد شرائع إسرائيل.

ولإثبات صدق بلعام والحمار والرب، يكتشف (فليكوفسكى) الدليل على ما حدث فى مقبرة الضابط المصرى (أحمس بن أبانا)، ولنقرأ كيف صاغ (فليكوفسكى) ذلك النقش الهام، الذى يقول فيه الضابط : " تابعت الملك سيراً على أقدامى حين ركب عجلته الحربية فى طريقه إلى خارج الولاية، وكانوا هم يحاصرون مدينة حواريس "، والإشارة (كانوا هم) لا تعنى سوى أن قوماً آخرين هم أصحاب الفضل الحقيقى فى التحرير، " كانوا هم يحاربون من جهة قناة المياه حواريس.. استولوا هم على حواريس.. هم حاصروا شاروهين "، الرجل بهذا الشكل محق تماماً، لكن عندما نقرأ النص الأسمى سنكتشف إلى أى حد بلغت بالرجل الجرأة والقدرة على التزوير.

يقول الضابط (أحمس بن أبانا) فى النص الصادق : " تبعت الملك على قدمى عندما كان يركب عجلته الحربية، إنه حاصر مدينة حواريس "، ولنقف هنا مع أمرين : الأول زمن الفعل فى النص الصادق (حاصر) وزمنه فى النص المزور (يحاصرون)، والذى

ضبطه مع تزوير آخر، وبدلاً من الصيغة المصرية للفعل الماضى (إنه حاصر) تحولت (إنه) فى صيغة الإشارة المفخمة للغائب (الملك) إلى (كانوا هم)، ولأن استكمال العبارة جميعاً فى صيغة الماضى ستصبح غير ملتزمة (كانوا هم حاصر مدينة حواريس)، فكان لابد من تزوير الكلمتين لتتحول العبارة من (إنه حاصر) إلى (كانوا هم يحاصرون).

ولنقرأ النص كاملاً : « تبعت الملك سيراً على قدمى عندما كان يركب عجلته الحربية، إنه حاصر مدينة حواريس، وقد أظهرت فى قناة مياه بازدكو فى حواريس، ثم حاربت ملتحمأ يداً بيد واستوليت على أحد الأسرى، ولما بلغ ذلك المسامع الملكية منحنى الملك ذهب الشجاعة، ثم تجدد القتال مرة أخرى فى ذلك المكان، وحاربت ثانية هناك يداً بيد، وحصلت على أسرى آخرين، ومنحنى الملك ذهب الشجاعة ثانية » .

وأثناء أنشغال الملك (أحمس) فى محاربة الهكسوس، حدثت قلاقل فى جنوبى البلاد، على بعد ما يزيد عن ألف كيلومتر عند (الكاب)، فسارع الملك مع بعض جنود، وبضمنهم الضابط (أحمس)، الذى يروى تلك الواقعة أيضاً، ويقول « لقد حاربت فى مصر جنوبى مدينة الكاب، واستوليت على أسير حى حملته معى على صفحة

الماء، ولما بلغ هذا الأمر المسامع الملكية، منحني هو الذهب بالمعيار
المزدوج"، والسؤال الآن: هل كانت (هو) المفخمة هنا — بدورها —
تشير إلى الإسرائيليين فهي تترجم حرفياً (منحوني)، وأنهم ذهبوا إلى
أسوان مع (أحمس) الملك للقضاء على قلاقل منطقة النوبة، ومنحوا
الضابط (أحمس) الأنواط الذهبية المزدوجة لشجاعته؟

وذاث الأمر يكرره في قصة انسحاب الهكسوس من حواريس
إلى شاروهين بفلسطين، حيث حاصرهما الملك ثلاث سنوات حتى
استسلمت ورحلوا عنها بموجب اتفاقية أبرمت بهذا الخصوص، "لقد
حاصر شاروهين ثلاث سنوات ثم استولى عليها، وأسرت هناك رجلاً
وامرأتين"، لكن النص هنا لا يحمل اسم الإشارة المعتاد، بل الفعل
(حاصر) فقط، مما يشير إلى الملك كقائد لجيش الحصار، وهي إشارة
لمفرد متضمن داخل الفعل الماضي بالتقدير، ولا يشير إلى جيوش
يمكن أن تكون عند (فليكوفسكى) جيوش أجداده الأفاضل، وهنا لا يجد
الرجل ما يناسب النص بالتوراة، فلجأ إلى أسطورة متداولة بين بنى
جلدته تحكى عن القوة البدنية الخارقة فى أساطير متنوعة عن (يوآب)
قائد جند (داود) الذى خلف (شاول)، وضمناها أسطورة تقول أنه
اخترق بمفرده أسوار مدينة عماليق، وعليه فإن (فليكوفسكى) يعلم أن
(يوآب) هو صاحب الفضل الحقيقى فى هزيمة آلوف المحاربين

العماليق بمفرده، وأنه وفق العادة الكريمة لبنى إسرائيل، قد تركها هدية لأحمس المصرى، رغم أنها تقع داخل أرض فلسطين ذاتها، وفى عمقها، وجزء من مملكة إسرائيل؟!!!

وتبقى هنا عدة مسائل، تثيرها استفسارات بدهية، إزاء كل ما قدم (فليكوفسكى)، لإثبات سقوط ستة قرون كاملة من التاريخ المصرى وتاريخ العالم بالتالى، وإزاء ركونه الكامل إلى مصداقية مطلقة تتسم بها نصوص التوراة، وهو غرض آخر يتضمن فى ثنايا الغرض الأول، من أجل تحقيق عدة أهداف أهمها إيجاد موطن قدم لبنى إسرائيل فى تاريخ المنطقة، وإثبات البراءة الكاملة والطهارة المطلقة لهذا الشعب من كل ما التبس بتاريخه من اتهامات، مع تأكيد العلاقات الحميمة بين بنى إسرائيل والمصريين إزاء العرب منذ التاريخ القديم، والتى أهدرها المصريون جانب واحد، مع إعاد تأسيس تاريخ العالم بحيث يتزامن مع الأساس المتيّن بالكتاب الإسرائيلى المقدس، وبحيث يكون العمل فى مجمله تنظيراً تاريخياً للقومية الصهيونية.

وهذه المسائل التى تنتج عن استفسارات، يمكن تحديدها فى العناصر التالية :

— إزاء المصادقية الكاملة التى يريد (فليكوفسكى) إثباتها لنصوص المقدس الإسرائيلى، والتى عمد وهو بسبيل ذلك الإثبات إلى الانتقاء من وثائق التاريخ القديم ما يراه أهلاً لتحقيق غرضه، مع تزوير دلالات تلك الوثائق، وإزاء حدث الخروج العظيم الذى أنبنت عليه الكرامة القومية الإسرائيلىة، وعليه أسس (فليكوفسكى) العلم كله، أقول: إذا كان الأمر كذلك فلا ريب أن الدهشة تأخذ المدقق مع استفسار بسيط تماماً يتساءل: لماذا لم تذكر النصوص المقدسة بالكتاب المقدس اسم ذلك الفرعون الذى سام شعب الرب العذاب، رغم كل تلك الدقة فى سرد المعجزات، ورغم خطورة الحدث وأهميته وأحتسابه حجر الأساس فى التاريخ الإسرائيلى؟

— ثم إذا كانت الكوارث التى أنزلها (يهوه) بالمصريين ليست من باب الأساطير، إنما تسجيل لوقائع حدثت بالفعل، وكان حدث انشقاق البحر هو قمة تلك الأحداث الكونية، وبعدها دخل بنو إسرائيل أرض الميعاد، فإن المدقق فى التوراة سيجد أن هناك أحداثاً أخرى تمت فى فلسطين بعد الخروج، تدخل فى عداد المبالغات الأسطورية وتهويلاتها، وغض (فليكوفسكى) الطرف عنها تماماً. لأن الكارثة التى يتحدث عنها كانت قد انتهت، فهذا مثلاً (يشوع بن نون) الذى خلف (موسى) على قيادة الإسرائيليين، وعند عبور نهر الأردن البعيد عن أحداث كارثة الخروج مكاناً وزماناً، تحدث له نفس المعجزة

« ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكي يعبروا الأردن، والكهنة حاملو تابوت العهد (هو تابوت ينام فيه الرب ليحملوه معهم) أمام الشعب، فعند إتيان حاملي التابوت إلى الأردن، وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفة المياه، والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد، وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت نداً واحداً بعيداً جداً.. والمنحدرة إلى بحر العربى بحر الملح انقطعت تماماً، وعبر الشعب مقابل أريحا، فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن راسخين، وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة، حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن — سفر يشوع ٣ : ١٤-١٧ »، وبعد ذلك بخمسة قرون يأتى الرب ليقابل النبى (إيليا التشى) ط فقال أخرج وأقف على الجبل أمام الرب، وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب — ملوك أول ١٩٩ : ١١ « فهل كانت تلك كارثة أخرى، وخاصة أن (إيليا) قام بمعجزة فلق الأردن هو بدوره « فأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبر كلاهما فى اليبس — ملوك ثانى ٢ : ٨ » . وبعدما ظل رداء (إيليا) يقوم بالوظيفة التى كانت تقوم بها عصى (موسى)، « فأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه وضرب الماء وقال أين هو الرب إله إيليا؟ ثم ضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك فعبر

أليشع — ملوك ثمانى ٣ : ١٤ "ومثل تلك الروايات تغص به كل صفحات الكتاب المقدس من بدئه إلى منتهاه.

— أما الاستفسار الأهم، فهو إذا كان الإسرائيليون مع أول ملوكهم (شاول) قد امتلكوا تلك القوة الحربية العظمى بألوف العربات ومئات الألوف من الجنود المدربين، بحيث تمكنوا بها من استئصال شأفة الهكسوس العرب وتحرير مصر، فإن ذلك يعنى وجود نظام مركزى متماسك وقوى، بينما المطالع للكتاب المقدس لن يجد لأى من الفرضين أى تحقيق بالمره :

"وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون. مع بنى يهوذا فى أورشليم إلى اليوم — يشوع ١٥ : ٦٣ ."

وكذلك سبط إفرايم لم يستطيعوا أن يطردوا الكنعانيين الساكنين فى جازر، "فسكن الكنعانيون وسط إفرايم إلى اليوم — يشوع ١٦ : ١٠ ."

وكذلك أبناء منسى أخى إفرائيم " ولم يقدر بنو منسى أن يملكوا
هذه المدن فعزم الكنعانيون على السكن فى تلك الأرض — يشوع
١٧ : ١٢ .

كذلك سبط أشير لم يستطع الاستيلاء لا على " صيدون
العظيمة " . ولا على " المدينة المحصنة صورة — يشوع ١٩ :
٢٨ — ٢٩ .

" وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان
الوادى لأن لهم مركبات من حديد — قضاة ١ : ١٩ .

كذلك " زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلون فسكن
الكنعانيون فى وسطه — قضاة ١ : ٣٣ .

" وحصر الأموريون بنى دآن فى الجبل .. فعزم الأموريون
على السكن فى جبل حارس فى إيلون وفى شعلبيم
— قضاة ١ : ٣٥ .

والأمثلة غير ذلك كثيرة يمكن للقارئ الرجوع إليها بالكتاب
المقدس . وتشير بوضوح إلى أمرين هامين : الأول أن الخارجين من

مصر ظلوا على انفسامهم قبائل وبطوناً وأفخاذاً، والثانى هو أنهم رغم البشاعة التى استخدموها فى حروبهم ضد سكان الأرض، فإن هؤلاء ظلوا فى أماكنهم ولم يتمكن بنو إسرائيل رغم المجازر الهائلة التى ارتكبوها — وسنأتى على ذكرها — أن يزحزحوا هؤلاء من بلادهم، فسكن الإسرائيليون بينهم.

أما الفرض الثانى، وهو قيام كيان متماسك، فمن الواضح أنه لم يتحقق طوال العصر الممتد من زمن الخروج إلى زمن (شاول)، وفى رواية المقدس التوراتى تفاصيل تؤكد أن بنى إسرائيل لم ينعموا بالاستقرار طول ذلك الزمن الذى امتد حوالى أربعة قرون كاملة، وإليك نماذج من تلك الروايات التى وردت فى سفر القضاة «فعمل بنو إسرائيل الشرفى عينى الرب ونسوا إلههم وعبدوا البعليم والسواري، فحمى غضب الرب على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعنايم ملك أرام النهرين، فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعنايم ثمانى سنين — ٣ : ٧ ، ٨، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرف فى عينى الرب.. فشدد الرب عجلون ملك موآب.. وضرب إسرائيل، فبعد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثمانى عشرة سنة — ٣ : ١٢ — ١٤، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرف فى عينى الرب.. فباعهم بيديا بين ملك كتعان.. فصرخ بنوا إسرائيل إلى الرب لأنه كان له تسع مئة مركبة من حديد، وهو ضايق بنى إسرائيل بشدة عشرين سنة

٤ : ١ - ٣ وعمل بنو إسرائيل الشرفى عينى الرب فدفعهم الرب
 ليد مديان سبع سنين.. بسبب المديانيين عمل بنو إسرائيل لأنفسهم
 الكهوف التى فى الجبال.. وإذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون
 العمالة وبنو المشرق.. ويجيئون كالجراد فى الكثرة وليس لهم
 ولجمالهم عدد، ودخلوا الارض لكن يخبوها، فذل إسرائيل جداً من
 قبل المديانيين، وصرخ بنو إسرائيل للرب - ٦ : ١ - ٦، وعاد بنو
 إسرائيل يعملون الشرفى عينى الرب، وعبدوا البعليم والعشتاروت
 وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بنى عمون وآلهة
 الفلسطينيين، وتركوا الرب ولم يعبدوه، فحمى غضب الرب جداً على
 إسرائيل وباعهم بيد بنى الفلسطينيين ويد بنى عمون فحطموا
 ورضضوا إسرائيل.. ثمانى عشرة سنة.. فصرخ بنو إسرائيل إلى
 الرب قائلين أخطأنا إليك - ١٠ : ٦ - ١٠، ثم عاد بنو إسرائيل
 يعملون الشرفى عينى الرب فدفعهم إلى يد الفلسطينيين وانكسر
 إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جداً،
 وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل، وأخذ تابوت الله - صموئيل
 أول : ٤ : ١٠ - ١١، وبعدها اجتمع الاسباط وطلبوا من الكاهن
 القاضى (صموئيل) أن يجعل لهم ملكاً فاختر (شاول)، الذى نجح فى
 استرداد التابوت من الفلسطينيين، فى غزو ما أسماه الكتاب المقدس
 مدينة عماليق، والتى افترض (فليكوفسكى) أنها كانت حوارييس

عاصمة امبراطورية الهكسوس العربية، تلك الإمبراطورية التي كانت تحكم على منطقة حوض المتوسط الشرقى، بينما كان داخلها كل تلك الممالك وتلك الحروب، والتي لم يأت لها (فليكوفسكى)، على ذكر، إن معنى وجود ممالك متعددة فى المنطقة، وحروب إقليمية متتالية، بينها حروب شعب مثل بقية تلك الشعوب بالمنطقة والمعروف باسم العمالة، يهدم الفرض الأساسى فى كتابه حول تلك المملكة العظمى المسيطرة خلال عصر القضاة المليء بالأحداث.

- ومسألة أخرى مازالت تطلب المناقشة، وتتأسس على مدى مصداقية الصفات البربرية التى نسبها (فليكوفسكى) للهكسوس العرب حسب فروضه، وفى هذه الحال لن يكون أماننا مقياساً للفضائل ومعياراً للنبل سوى الشعب المقابل، الشعب التقى الورع الذى فدى الإنسانية جمعاً، وقضى على شر الهكسوس، وظلمته الإنسانية جمعاء، شعب اسرائيل، ولا شك أنه لا توجد شهادة للإسرائيليين أفضل من كتابهم المقدس.

تقول شريعة الكتاب المقدس العطرة والسماح لشعبها أثناء رحلة التيه، قبل دخول فلسطين: "أحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار - عدد ٣١ : ١٠، اقتلوا كل ذكر من الاطفال وكل امرأة - عدد ٣١ : ١٧، احرقوا حتى بينهم وبناتهم بالنار - تثنية

١٢ : ٣١، فضرباً تضرب سكانهم المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها من بهائمها.. وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك - تثية ١٣ : ١٥ ، ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما - تثية ١٠ : ١٠ - ١٦ .

ولن تجد سفيراً واحداً يخلو من صورة (يهوه) وهو ينفث أوامره المتكررة بالحرق والذبح وتقطيع الأوصال، رجال أو نساء أو حتى الاطفال بل والبهائم أيضاً، وعندما كانت تحدث أى مخالفة لتلك الأوامر، حين يطمع الإسرائيليون فى الإبقاء على بعض النساء كسبايا، أو على المتاع والبهائم كغنائم، فإن الرب كان يصب نقمته على الاسرائيليين أنفسهم. والأمثلة كثيرة بالكتاب نستشهد منها بمثال واحد فقط اختصاراً للأمر، "وكلم الرب موسى قائلاً : انتقم نقمة لبنى إسرائيل من المديانيين... فكلم موسى الشعب قائلاً: جردوا منكم رجالاً للجدد فيكونون على مديان ليجعلوا نقمة الرب على مديان، ألفاً واحداً من كل سبط من جميع أسباط إسرائيل ترسلون الحرب.. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر.. وسبى بنو اسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار.. فخرج موسى.. لاستقبالهم.. فسخط موسى.. وقال لهم

موسى: هل أبقيتم كل أنثى حية.. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة - عدد ٣١ : ١ - ١٧ . فلماذا تجاوز (فليكوفسكى) عن هذه المدونات التى لا شك كانت مصداق كل كلمة استشهد بها من قبل واعتبرها تقول ما تعنيه فعلاً؟ بينما حمل على الهكسوس تلك الحملة القاسية بعد أن احتسبهم عرباً من العمالقة، بينما فى مصر ذاتها لا توجد شهادة قديمة واحدة على قسوة الهكسوس بشكل يقترب من تلك البشاعة فى شرائع الحرب التوراتية؟ اللهم إلا فى نص (حتشبسوت)، وما جاء فى حديث (مانيتون) فى القرن الثالث قبل الميلاد.

هذا ما كان عن تزوير التاريخ لصالح التنظير التاريخى للقومية الإسرائيلية، ويبقى أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ونكشف عن هوية الهكسوس بوضوح وعلاقتهم بالعرب وبالمصريين وبنى إسرائيل، وموقعهم الصحيح من التاريخ القديم! وهذا وعد نعمل حالياً - وربما لبعض الوقت - من أجل الوفاء به.

مصادر استشهادات البحث

الكتاب المقدس

القرآن الكريم

١- د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، دار العربى للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، د.ت.

٢- د. أحمد شلبى : مقارنة الأديان، اليهودية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.

٣- إرمان (أدولف) : ديانة مصر القديمة، ترجمة محمد عبد المنعم أبو بكر، ود. محمد أنور شكرى، نشر مصطفى البابى الحلبي، القاهرة، د.ت.

٤- اسبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة ترجمة د. حسن حنفى، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٨١.

٥- أنطون ذكرى : مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع وأهم إشاراته، د.ت.

٦- د. أنيس فريحة : دراسات فى التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠.

- ٧- إيمار وإبواية: الشرق واليونان القديم، ترجمة فريد داغر، وفؤاد أبو ريحان، دار عويدات، بيروت، د.ت.
- ٨- باقر (طه): الوجيز في تاريخ حضارة الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، ١٩٨٦.
- ٩- برستد (جيمس هنرى): كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفاريسى، ترجمة د. حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٩.
- ١٠- برينشارد (جيمس): نصوص الشرق الأدنى القديم المتعلقة بالعهد القديم، ترجمة وتعليق د. عبد الحميد زايد، هيئة الآثار المصرية، القديمة، القاهرة، ١٩٨٧.
- ١١- جاردنر (آلن هنرى): مصر الفراعنة، ترجمة د: نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧.
- ١٢- حتى (فيليب): خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة، القاهرة، ١٩٩٠.

- ١٤- روبنسون (تيودور). إسرائيل فى ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثانى من تاريخ العالم، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
- ١٥- الشهرستانى : الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفى البابى الحلبي، القاهرة ، ١٩٦١.
- ١٦- صالح (د. عبد العزيز) : الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٢.
- ١٧- طعيمة (د. صابر) : التاريخ اليهودى العام، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.
- ١٨- على (د. جواد) : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت.
- ١٩- على (د. فؤاد حسنين) : التوراة الهيروغليفية، دار الكاتب العربى، القاهرة، د.ت.
- ٢٠- عوض (د. لويس) : مقدمة فى فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.

- ٢١- الفرّح (محمد حسين) : الحضارات العربية الكبرى فى العصور القديمة، مجلة المنابر، بيروت، الأعداد من ٣٢ : ٤٠.
- ٢٢- فليكوفسكى (إيمانويل): عصور فى فوضى، ترجمة رفعت السيد، دار سيناء، الطبعة الأولى، القاهرة.
- ٢٣- القمنى (سيد محمود) : الأسطورة والسترات، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٢.
- ٢٤- القمنى (سيد محمود) : النبى إبراهيم والتاريخ المجهول ، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٠.
- ٢٥- القمنى (سيد محمود) : أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة، دار فكر، القاهرة، ١٩٨٨.
- ٢٦- لانجر (وليم) : مع سبعة عشر عالماً: موسوعة تاريخ العالم، ترجمة د. مصطفى زيادة وسبعة مترجمين، دار النهضة المصرية، د.ت.
- ٢٧- ماكلستر (راس) : الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، مجلدات تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، المجلد الثانى.

٢٨- موسكاتى (سبتيانو) : الحضارات السامية القديمة، ترجمة،
د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة،
القاهرة، ١٩٥٧.

٢٩- موسى (محمد العزب) : أول ثورة على الإقطاع، دار الهلال،
القاهرة ١٩٦٦.

٣٠- هومل (فرتز) : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ضمن
كتاب التاريخ العربى القديم بإشراف (نيلسن)، ترجمة د. فؤاد
حسنين على، د.ت.

٣١- ولسن (جون) : ضمن كتاب : ما قبل الفلسفة، بمشاركة
آخرين، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، مكتبة دار الحياة،
بغداد، د.ت.

المحتوى

٥	الإهداء
٧	تمهيد

الباب الأول

١٥	التوراة
١٧	تأسيس
٢٧	علاقة النبی موسى بالتوراة
٤٣	تدوين العهد القديم وترجمته
٥٤	الخرافة فى العهد القديم
٦٥	الأنبياء فى العهد القديم
٧٦	الآلهة فى العهد القديم

الباب الثانى

٨٥	التاريخ
٨٧	تأسيس
١٠١	أدوار التاريخ الإسرائيلى

أحداث الدخول	١١١
في الطور الإيلى الإبراهيمى	١١١
أحداث الخروج	١٣٢
في الطور اليهودى الموسوى	١٣٢

الباب الثالث

التضليل	١٥٣
التأسيس	١٥٥
تأسيس - ١	١٥٥
تأسيس - ٢	١٦١
تأسيس - ٣	١٦٣
تأسيس - ٤	١٧٠
الوثائق والأدلة	١٧٦
الوثيقة الأولى - بريدية ليدن	١٧٧
الوثيقة الثانية - حجر العريش	١٨٥
الوثيقة الثالثة - بريدية الأرميتاج	١٨٨

الوثيقة الرابعة - نبوءة الخزاف	١٩٠
الوثيقة الخامسة - مقياس سمنة.....	١٩٠
الوثيقة السادسة - نقش حتشبسوت	١٩١
امبراطورية الهكسوس العربية	١٩٣
التحدى	٢٠٥
مناقشة الوثائق	٢٢٦
١- تزييف دلالات بردية ليدن	٢٢٦
٢- تزييف دلالات حجر العريش	٢٥٠
٣- تزييف دلالات بردية الارميتاج	٢٥٩
٤- تزييف دلالات نبوءة الخزاف	٢٧٤
٥- تزييف دلالات مقياس سمنة	٢٧٨
٦- تزييف دلالات نقش حتشبسوت الحجرى.....	٢٨١
تزوير التاريخ	٢٨٥
مصادر استشهادات البحث	٣١١
من أعمال المؤلف.....	٣٢٠

من أعمال المؤلف

الكتب المنشورة :

- الموجز الفلسفى ، دار السياسة ، الكويت (نفذ).
- مشكلات فلسفية، التربية الكويتية، الكويت (بمشاركة آخرين).
- أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة.
- الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية.
- النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.
- الأسطورة والتراث.
- إسرائيل : التوراة ، التاريخ، التصليل.
- حروب دولة الرسول.
- قصة الخلق.
- رب الزمان.
- السؤال الآخر.
- النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة.

هذا الكتاب

ضمن مشروعه الكبير يتناول مفكرنا (سيد القمنى) فى هذا العمل نقطة مفصلية وعلامة فارقة فى تاريخ المنطقة، هى لحظة التماس بين القبيلة الإسرائيلية وبين مصر القديمة. يناقش فيها على خطوات

أولاً: الكتاب المقدس/ العهد القديم/ التوراة على محك العلمية وحدها ليخرج بصورة بانورامية متكاملة لهذا الكتاب وكيف تم تأليفه؟ ومن قام بنحريه؟ وبأى لغة؟ وبأى أدوات كتابية؟ ولأى أهداف؟ .. الخ.

ثانياً: يتوقف مع إشارة التوراة لدخول بنى إسرائيل مصر وخروجهم منها، ليناقشها على محك معطيات علوم التاريخ القديم للكشف عن الوجه الأقرب لحقيقة الأحداث فى حقلها الموضوعى آنذاك.

ثالثاً: ثم يقف مفكرنا مع المنظومة العلمية التى تؤسس لإسرائيل موطن قدم فى تاريخ المنطقة، وتمثل تلك المنظومة فى أخطر تنظيرة تاريخية للقبيلة الإسرائيلية، فى كتاب فليكوفسكى (عصور فى فوضى).

نضع هذا الجهد بين يدى القارئ ليستكمل به قراءة سيد القمنى لتاريخ المنطقة، بعين على الماضى، وعين على هموم الحاضر. مقدريين له دوره فى إعادة قراءة التاريخ معنا.

عبد الوهيد

تأليف
١٢/٠٠